



Princeton University Library



32101 048852410

الدولة الأموية

في إيشاء

تأليف

أنيس كرايا البصولي

مؤلف « الدولة الأموية في قرطبة » الخ .

الطبعة الاولى

مطبعة دار السلام في بغداد

١٩٢٧

مطهر
Mata Vera

لست انا من انبياء الامم
من هذا الكتاب القويم
والمرصوم انبياء انصوني
والتي تسمى النسخة
تلي من الصدقة على المؤمنين
يبررت ١٩٧٩/١٢/٢٠

من احق بتاريخ امية من ابنا امية !
ومن احق بتاريخ معاوية والوليد من ابنا معاوية والوليد !
فاقبلوا يا ابنا سورية الباسلة المتحدة المستقلة هذه الثمرة الصغيرة .

انيس

(Arab)

DS38

N878

1927

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

يتحقق الباحث في كتاب الدولة الأموية في الشام انشام تقسم فصوله حسب السنين او الملوك او الحوادث او الفتن والحروب كما فعل غيرنا ، ولم نهم في جمع الحقائق حولها فنجعلها نقطة الدائرة او المحور الذي يدور عليه كلامنا . بل رتبنا كتابنا هذا حسب حركات نعتقد انها صورة حية الهادي والافكار والاعمال التي قام بها الامويون في العصر الذي سادوا فيه وتغلبت مدينتهم على العالم المعروف يومذاك . اننا اقدمنا على كتابة التاريخ على هذا النمط لاننا نعتقد ان التاريخ سلسلة حركات مستديمة متصلة مشبكة يأخذ بعضها برقاب بعض . وهي تربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل وتظهر الصلة بينها في رقي الجماعات الانسانية في البيئات المختلفة . وقد جعلنا هذه الحركات عناوين لفصول هذا الكتاب وهي : ١٠ تأسيس الدولة الاموية (وقد لخصنا هذا الفصل عن كتابنا معاوية بن ابي سفيان)

١٩٢٤٩٠٣

- ٠٢ مأساة الحسين (ع) ٠٧ العمران الاموي
 ٠٣ الحركة الزبيرية ٠٨ احوال الاجتماع الاموي
 ٠٤ سياسة الشدة ومظاهرها ٠٩ الادب الاموي
 ٠٥ الفتوح الاموية ١٠ اسباب سقوط الدولة الاموية
 ٠٦ العدل والاصلاح في الدولة الاموية

وكان جل اعتمادنا على المصادر التي تراها فيما يلي. انما رجعنا لدى تضارب الروايات الى الطبري لصدق اسناده ولتحريره الحقائق من ينابيعها فهو من اولئك المؤرخين الذين ينقلون لك التاريخ كما تركه السلف. قال: «لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج... وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادنا في كل ما احضرت ذكره... انما هو على ما رويت من الاخبار... والآثار التي مسندها الى روايتها... اذ كان العلم بما كان من اخبار الماضين وما هو كائن من انباء الحادئين غير واصل الى من لم يشاهدوا ولم يدرك زمانهم الا باخبار الحبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالقول... وليعلم انه لم يؤت ذلك قبلنا وانما اوتي من قبل بعض ناقليه اليه وانا انما اديننا ذلك على نحو ما ادي اليه. المقدمة ج ١ ص ٦ - ٧ ليدن»

ثم اننا جربنا ان نعمل العقل والبصيرة فيما كتبناه فلم نشد بفضل اناس

ليسوا من الفضل في شيء ولم نجعل لعلاقتنا الدينية والطائفية والسياسية والاجتماعية
تأثيراً في تدويننا التاريخ . ولم نكتب هذه الصفحات والصبغة التقديسية
للسلف هدفنا . والحق اننا اردنا ان نثبت الحقائق ونفسرها حسب اجتهادنا
ونحن بعيدون جد البعد عن التعصب فان وفقنا في هذا العمل الصغير فحسبنا
هذا التوفيق في خدمة تاريخ العرب .

مدينة السلام في ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٧

انيس زكريا النصولي

المصادر التاريخية

— التي اعتمدنا عليها —

١ — الطبري تاريخ الرسل والملوك لناشره *M. J. De Goeje*

S II V I

S II V II

ليدن ٣ - 1881 S II V III

٢ — القلقشندي صبح الاعشى تأليف الشيخ احمد ابى العباس القلقشندي

المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٤ م

٣ — مرصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع.

Edited by. J. G. J. Tugne Boll

Tomus Primus. 3. J. Brill

٤ — معجم البلدان تأليف الامام شهاب الدين ابى عبد الله ياقوت بن

عبد الله الحموي الرومي البغدادي .

Ferdinand Wustefeld. Leipzig 1869

٥ — عيون الانباء في طبقات الاطباء . تأليف الطيب موفق الدين

ابى العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف

بابن ابي اصبعة ، نقله من النسخ الموجودة في بعض خزائن الكتب وصححه
العبد الفقير امرؤ القيس الطحان . الطبعة الاولى . المطبعة الوهبية . ١٢٩٩ هـ .
١٨٨٢ م .

٦ - اخبار العلماء بأخبار الحكماء . للوزير جمال الدين ابي الحسين علي
بن القاضي الاشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ . مطبعة السعادة مصر
سنة ١٣٢٦ هـ . الطبعة الاولى .

٧ - طبقات الشعراء تأليف محمد بن سلام الجمحي . مطبعة بريل في
مدينة ليدن . سنة ١٩١٣ . لناشره *Joseph Hell*

٨ - محاضرات الادباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء . للراغب الاصفهاني ،
مطبعة الهلال مصر سنة ١٩٠٢ م ، هذبه واختصره ابراهيم زيدان .

٩ - الفصل في الملل والاهواء والنحل . للامام ابي محمد علي بن احمد
بن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . المطبعة الادبية سنة ١٣١٧ هـ . الطبعة
الاولى . مصر .

١٠ - الملل والنحل للامام ابي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني
المتوفى سنة ٥٤٨ . (على هامش الملل والنحل) .

١١ - الاغاني للامام ابي الفرج الاصفهاني . مصر ، مطبعة التقدم .

١٢ — المشتبه في اسماء الرجال . تأليف الشيخ الامام الحافظ شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد بن عثمان الذهبي . مدينة ليدن سنة ١٨٦٣ م

لناشره Dr. J. De Jong

١٣ — التاريخ الكبير . للحافظ الكبير ثقة الدين ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر . مطبعة روضة الشام لصاحبها قارصلي خالد . اعتنى بتربيته وتصحيحه الشيخ عبد القادر بدران . دمشق سنة ١٣٢٩ هـ

١٤ — كتاب الولاة وكتاب القضاء . تأليف ابي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري مذهب ومصحح بقلم Rhuron Guest مطبعة الاباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٨ م .

١٥ — العقد الفريد لابي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي الاندلسي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ . المطبعة الجمالية مصر . الطبعة الاولى سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م .

١٦ — وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان . تأليف القاضي احمد الشهير بابن خلكان . طبع مصر .

١٧ — مختصر الدول . للعلامة غريغوريوس ابي الفرج بن اهرؤف

الطبيب الملطي المعروف بابن العبري . وقف على طبعه الاب انطون صالحاني
اليسوعي المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت ١٨٩٠ .

١٨ - طبقات الامم للقاضي ابي القاسم صاعد بن احمد بن صاعد الاندلسي
المتوفى سنة ٤٦٢ هـ . نشره وذيله بالحواشي واردفه بالروايات والقهارس الاب
لويس شيخو اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين . بيروت
سنة ١٩١٢ م .

١٩ - سيرة عمر بن عبد العزيز . تصنيف الحافظ جمال الدين ابي الفرج
عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي . نسخه وصححه ووقف على طبعه محب
الدين الخطيب . مطبعة المؤيد مصر ١٣٣١ هـ .

٢٠ - الامالي في لغة العرب . تأليف ابي علي اسماعيل بن القاسم ابقالي
البغدادي . المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر . الطبعة الاولى سنة ١٣٢٤ هـ .

٢١ - امالي السيد المرتضى . للشريف ابي القاسم علي بن الطاهر ابي
احمد الحسيني المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . في التفسير والحديث والادب . مطبعة
السعادة بمصر . الطبعة الاولى سنة ١٣٢٥ هـ و سنة ١٩٠٧ م .

٢٢ - كتاب العبروديان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر . للعلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي .

٢٣ — الشعر والشعراء تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
المتوفى سنة (٢٧٦ هـ) • صححه وعلق حواشيه السيد محمد بدر الدين أبو فراس
النعماني الحلبي مصر ، الطبعة الاولى سنة ١٣٢٢ هـ .

٢٤ — تاريخ الكامل للعلامة أبي الحسن علي بن أبي الكرم • • •
المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين • المطبعة الأزهرية المصرية ، مصر ،
الطبعة الاولى سنة ١٣٠١ هـ .

٢٥ — كتاب الإمامة والسياسة • تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن
قتيبة المتوفى سنة (٢٧٦ هـ) • مصر ، مطبعة النيل سنة ١٣٢٢ هـ • وسنة ١٩٠٤ م •
٢٦ — مختصر كتاب البلدان تأليف أبي بكر أحمد بن محمد الهمداني
المعروف بابن الفقيه • ليدن • مطبع بريل سنة ١٣٠٢ هـ ، ١٨٨٥

Edidit H. J. De goeje .

٢٧ — احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم جمع الشيخ شمس الدين أبي عبد
الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري ، الطبعة
الثانية ، ليدن ، بريل سنة ١٩٠٦

Descriptis Imperii Moslemici

Edidit M. J. De Goeje .

٢٨ — كتاب المسالك والممالك • عن ابن خرداذبة ليدن سنة ١٣٠٦ ✓

Edidit M. J. De Goeje

3. J. Brill 1899.

٢٩ — كتاب الخراج وصناعة الكتابة • لابي الفرج قدامة بن جعفر

الكاتب البغدادي • بريل ليدن 1899

٣٠ — كتاب الامالي • املاء الحجة ابي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق

الزجاجي النحوي البغدادي المتوفى سنة ٣٣٧ هـ . الطبعة الاولى سنة ١٣٢٤ .
مصر ، مطبعة السعادة .

٣١ — البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة

سنة ٢٥٥ ، وقف على طبعه محب الدين الخطيب الحرر بجريدة المؤيد . مطبعة
الفتوح الادبية ، مصر سنة ١٣٣٢ هـ .

٣٢ — المحاسن والاضداد تأليف ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

مطبعة السعادة مصر ، الطبعة الاولى سنة ١٣٢٤ هـ

٣٣ — التنبيه والاشراف لابي الحسن علي بن الحسين بن علي السعودي

ليدن . مطبعة بريل سنة ١٨٩٣ .

٣٤ — كتاب الاخبار الطوال لابي حنيفة احمد بن داود الدينوري .

جمعها واعتنى بترتيبها وطبعها وتعليق مقدمتها اغناطيوس كراشكوفسكي المعلم
بالمدرسة النكلية الامبراطورية في بطرسبرج . مطبعة بريل ، ليدن سنة ١٩١٢ .

Ignace Kratchkovsky

٣٥ — فتوح البلدان لأحمد يحيى بن جابر البغدادي الشهير بالبلاذري

مطبعة الموسوعات مصر ١٣١٩ ، سنة ١٩٠٩ ، م الطبعة الاولى .

٣٦ — كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية تأليف

محمد بن علي طباطبا المعروف بابن الطقطقي . مطبعة المعارف مصر سنة ١٩٢٣ .

٣٧ — الدولة الاموية في قرطبة . المؤلف المطبعة العصرية ببغداد . ١٩٢٦ .

٣٨ — معاوية بن ابي سفيان . مطبعة طيارة بيروت سنة ١٩٢٤ —

• المؤلف

الفهرست

ص	المقدمة
ج	تأسيس الدولة الاموية
١	مأساة الحسين
٢٨	الحركة الزبيرية
٦١	سياسة الشدة ومظاهرها
١٢٥	الفتوح الاموية
١٦٥	العدل والاصلاح في الدولة الاموية
٢٠٨	الامران الاموي
٢٢٨	احوال الاجتماع الاموي
٢٦٣	الادب الاموي
٢٩٤	سقوط الدولة الاموية
٣١٤	جدول الخلفاء الامويين
٣٦٠ - ٣٥٧	



الفصل الاول

تأسيس الدولة الاموية



مباة معاوية ، لما ساعده انصاره ، ؟ اسهر قاداته ، المجنحون
والقيسيون ، الحرب الاهلية ، المعزلة ، العثمانية ، معركة صفين .
الفال بين عيسى علي وعيسى معاوية ، بروتوكول صفين ، نذر بروتوكول
صفين ، مؤتمر افرح ، دومة الجندل وافرحة ، القابلة بين حزب علي
ومزب معاوية ، ابو موسى الاسعري ، عمرو بن العاص ، الفلظ
القادح الذي ارتكبه الاسعري ، معاوية مؤسس الدولة الاموية
في الساس .



الرجال ذوو الشخصيات الكبيرة التي تطل على هذا العالم قليل ، غير
أن انوارهم وضاءة فيظنون مناراً يهتدى به ، وباعثاً قويا يدفع ابناء الاجيال

المقبلة على استثمار نتائج قرائحهم ومجهوداتهم كما يكون جوهر العتلي والادبي والسياسي والديني جواً راقياً صافياً لا تشوبه غيوم الظلمة والجهالة . من هؤلاء الرجال شاب عاش مثبداً اثني عشر قرناً ونيف . ربي في سهول الحجاز المنقورة وهر طفل وأظلمته سماء سورية وهو يانع ، ذلك الشاب هو معاوية بن ابي سفيان . ولد معاوية في مكة وتهذب على ابيه ابي سفيان الزعيم الكبير في الجاهلية ثم أصبح كاتباً لولي النبي (ص) ^١ وحاز على ثقته لأموجه وذكائه وخصب آمله . إن هذا المنصب جعله يحتك برجال الاسلام الذين أصبحوا بعد ذلك إماماً من اخصامه وإماماً من دعاة في نزاعه المشهور مع علي بن ابي طالب . فعرف الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وطلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين والدة الهامة المشهورين أمثال عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه وكثيراً من الانصار الذين كانت تغلو مراحل الحق في صدورهم حسداً من أبناء قریش وغيرهم من الزعماء الذين جمعهم المصلحة ففتيأوا ظل الراية الاسلامية . ولطالما اعترف معاوية بفائدة الاختبارات والدروس الجملة التي تلقاها من ذلك المركز . ثم نراه بعد ذلك قلداً بسيطاً في جيش الفتوح الذي اجتاحت سورية بقيادة اخيه

(١) حياة الحيوان للمصيري ج ١ ص ٦٧ ، ابن خيس ج ٢ ص ٣٢٥ ، الفخري

يزيد بن ابي سفيان ^(١) ، فهاكما للشام والعراق نحواً من عشرين سنة فخليفة يخضع له العالم الاسلامي لمدة لاتنقص عن مدة ولايته . حقاً ان حياته السياسية الطويلة تظهر لنا قوة الزعامة في الرجل وتمكنه من منصبه والحفاظة عليه .
 دىن ان يعتريه اليأس فينقلب خاسراً مدحوراً . ويعترف اعداؤه السياسيون بقوة شخصيته التي تسحر النفوس فتجتذبها غير انهم يتألمون منه لانه جعل من الخلافة ملكاً ضحياً فحما وحطم اساس الشورى في الاسلام بقيامه على علي بن ابي طالب واقاراره الملك في أعقابه .

اما مساعده في اعماله ومشيدو دولته فكانوا اشبه شيء بحلفائه منهم برجال خضعوا له . فعمرو بن العاص لم يسلك سبيله ويلتف حوله الا حين شرط مصر والمغرب طعمة له ^(٢) ونسخة الشرط تقول أخيراً (هذا ما اعطى معاوية بن ابي سفيان عمرو بن العاص اعطاه اهلها (اهل مصر) فهم له جيوشه ولا تنقص طاعته شرطاً ^(٣)) . وكان عمرو لا يحمل اليه شيئاً من الاموال بل يفرق الاعطية في الناس فما فضل من شيء اخذه لنفسه ^(٤) . ويقول

(١) حياة الحيوان للدميري ج ١ ص ٦٧ ، ابن خيس ج ٢ ص ٢٢٥

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٣

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٣

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦٢ ويقول ابن الخيس ان معاوية اطلق خراج مصر ست

سنتين ج ٢ ص ٢٢٦

الفخري « انه لم يكن بينهما مودة قلبية وكانا يتباغضان سراً ، بما ظهر ذلك على صفحات وجوههما وفتلتات السنتهما (١) » مما يدل على ان المصلحة المشتركة كانت العامل الاكبر في اتحادهما . فعلاوية كان يطمع في الخلافة والسلطة وعمره في مصر السعيدة الخصبة .

ولا شبهة ان عبد الرحمن بن خالد وحبيب بن مسامة القهري وبسر بن ارطاة والضحاك بن قيس وأبا الاعور السلمي وحمزة بن مالك الهمداني وشرحبيل بن السمط الكندي كانوا من اعظم قواده ومدبري دولته وحكام اجناده (٢) فالاربعة الاول الذين ذكرنا اسماءهم آتقاً هم مكبون . أما ابو الاعور السلمي فهو من قيس ؛ القبيلة التي ينتسب اليها معاوية نفسه . ولم يقع معاوية في غلط التحزب لقبيلة او حزب ما فيقسم اهل البيت الواحد بعضهم على بعض بل استثمر مواهب مواطنيه سواء كانوا انصاراً ام يمينين . أجل حين اعتلى معاوية عرش الخلافة أخذت القبائل القرشية تخفف من غلواء عدائها ؛ فأسس في دمشق « كومة » مادتها شتيت الاحزاب والسكنه لم ينتسب علناً الى واحدة منها .

(١) الفخري ص ٩٦

(٢) راجع الطبري ليدن الجلة الاول ص ٢٢٧٢ ، ٢٢٦٠ ، ٢٣٩٦ ، الطبري

كل هؤلاء القادة قدموا شبانا الى سورية حين القتح سوى شرحيل وقد استخدموا عند يزيد بن ابي سفيان وظلوا في عداد رجال معاوية نحواً من ثلاثين سنة . ولقد كانوا قادة كباراً لم يتبوأوا مراكزهم الا عن جدارة واستحقاق فاستعملهم معاوية في الحروب التي اشعل نارها حبا باتساع المملكة الاموية وقد ايلي حبيب بن مسلمة البلاء الحسن في العراق وارمنية وصفين^(١) ولعب كل من ابي الاعور السلمي وبسر بن اوطاة دوراً مهماً في فتح مصر وافريقية^(٢) . وبسر هذا رجل ذو شخصية غريبة وشجاعة نادرة، كان له في بث دعوة معاوية شأن ، وهو من اولئك البدويين الذين لا تتخلل الرحمة قلوبهم فيفتك باعدائه إن تمكن منهم فتكا ذريعاً . هؤلاء القادة هم الذين قاموا بمعظم مغازي معاوية في الاناضول وغيرها فيينا نرى عبد الرحمن بن خالد وحبيب بن مسلمة يضربان المملكة البيزنطية الضربة تلو الاخرى إذا بأبي الاعور وبسر يقودان أسطول معاوية للانتصار في المواقع البحرية . ومن الغريب أن هؤلاء القادة الاشداء كانوا في بعض الاحايين رجال ادارة وسياسيين^(٣)

(١) البلازري ١٧٦ و ١٨٤ و ١٨٥ و ١٨٩ و ١٩٨ و ٢٠٤ راجع اليه توبي

ج ٢ صفحة ١٧٨ و ١٨٠ والطبري المجلة الاولى ص ٢٨٠٨ و ٢٨٧١ و ٢٨٨٩ و

٢٨٩٢ و ٢٨٢٧

(٢) للطبري ٢ : ص ١٢ ، ص ٢١٢

(٣) الطبري مجلة اولي ص ٢٢٧٧ و ٣٢٢٢

ومثلاً على ذلك تقول ان ابا الاعور وحبيب تخابرا مع علي اثناء معركة صفين
وهيئاً الكتاب او « البروتوكول » المبدئي لمؤتمر أذرح وقد حكم حبيب بن
مسلمة أخيراً جند قنشرين في شمال سورية الى الحدود البيزنطية وتولى ابو
الاعور جند الاردن وشرحيل جند حمص .

كان اليمينيون يؤلفون القسم الاعظم من الجيش السوري ويشهد الطبري
بذلك حيث يقول انهم « عظم جند اهل الشام »^(٢) وقد اعتمد عليهم معاوية
في قتال البيزنطيين واهل العراق فكانوا سيوفه البتارة حين محنه ومع ذلك
فقد ذكروه احياناً باعمالهم الحميدة^(٣) . وكان اليمينيون ايضا ساعده اليمين
في تجهيز الاسطول وقيادته ولذا عطف عليهم لاختلاصهم لقضيته واستمالهم
بكرمهم وجعل بعضهم من بطانته ولما اعتنق هؤلاء الاسلام ، ذلك الدين
الجديد ، ظلوا ينظرون الى « مبدأ العربية الشامل »^(٤) المبدأ الجامع لشتاتهم
فلم تكن الحزبية معروفة تماماً في بلاطه واصبحوا بتوالي الايام شاميين ومن
اعظم دعائه . إن معاوية وإن كان قيسياً في انتسابه فقد علم علم اليقين ان
الاتفاق مع القبائل العربية ، المقوطنة سورية منذ أجيال ، دعامة كبيرة في سبيل
دعوته وركن متين في توطيد العائلة المالكة الأموية . وكان اليمينيون اولئك

صحيح

(١) الطبري ج ٢ : ١٧٧٥ (٤) الاغانى ج ١٧ من ٦٤ - ٦٢

(٢) لامس ص ٥٢

الذين اعتادوا النظام والحياة الهادئة في ظل الحكومة البيزنطية من أكبر مساعدي معاوية على ادارة سورية .

اما القيسيون فقد كانوا يسكنون التخوم في الجهة الشرقية من سورية وهم اقلية ، فنجدهم اغلبهم في قنسرين والاعتماد عليهم دون سواهم غلط فادح لسكثرة اليمانية ، ويشهد بذلك ان معاوية حين ابتداء في نزاعه مع علي اشير عليه باكتساب رضى اليمانية وعلى الاخص زعيمهم شرحبيل بن السمط .

ان اليمانيين والقيسيين بامتزاجهم مع سكان سورية قرقت عقليتهم وامت افكارهم نوعا فترعوا عنهم ثوب البداوة ومن المهم ان نقرر ان هؤلاء العرب وخصوصا ابناءؤهم اخذوا ينسبون وطنهم الاول ويرون في سورية وطننا ثانيا وقد كانوا ذوي ليونة ومران قابلين لكل تجديد .

كان معاوية يستشير رجاله وذوي الرأي من نبلاء سورية في اموره وطلبا لأبديت الآراء . بصراحة امامه دون رهبة او وجل كما هو الشائع اليوم في المجالس النيابية عند الغربيين . ويقول الحصري . انه (اذا اراد ان يفعل شيئا التي منه طرفا الى الناس) . ويؤكد لامنس ان معاوية جدير بان يتربع في ايامنا هذه على كرسي الرئاسة في اي مجلس من مجالسنا التشريعية ^(١) .

الحرب الأهلية أو نزاع معاوية مع علي

لما قتل عثمان اجتمع اناس من المهاجرين والانصار فأتوا علياً وبايعوه سنة ٣٥ هجرية « ٦٥٥ م » والانصار هم اكثرية حزب علي . ان هؤلاء منذ وفاة الرسول (ص) لم يرضوا عن ابي بكر خليفة المسلمين بل اعترضوا واحتجوا على ذلك . ولو نظرنا الى الامرجليا لتحققنا انهم لم يفوزوا في انتخاب علي خليفة في القرص الثلاث التي سنحت لهم بل تربع على عرش الخلافة ابو بكر فعمر فعثمان كما هو مشهور . على ان هذا لم يمنع بعضهم من التألم والحزن لمقتل عثمان كحسان بن ثابت والنعمان بن بشير وكعب بن مالك . ولو استثنينا النبلاء من اهل المدينة لوجدنا العدد القليل من اشراف بقية البلاد الاسلامية مواليه لعلي . ويمكننا القول ان اغلب سادة قريش وقفت على الحياد او ظهرت معاوية وكاتفته . فتأثر ابن ابي طالب كثيراً من عدائهم له ، « اما مهاجرو مكة فقد تحزبوا لعلي وهم في اماكنهم وعن بعد . وكان الهاشميون أعوانه وقوام حزبه بطبيعة الحال غير ان منهم من تخلى عنه كعائشة أم المؤمنين وأسامة بن زيد ، الذي تبناه الرسول ، وعقيل بن ابي طالب اخي علي ، وهو شاب قبل الاسلام متأخراً ولم يشترك في أي معركة أو غزوة قبل فتح مكة

اطاعت خراسان ومصر والعراق علياً اسماً ولم يكن له السلطة المطلقة
 البتة في هذه المقاطعات واعتزل عن بيعته سعيد بن زيد وعبدالله بن سلام
 والمغيرة بن شعبة وسعد بن ابي وقاص وعبدالله بن الخليفة عمر بن الخطاب
 وابو موسى الاشعري ،^(١) احدثهمي مؤمرا اذرح ، فسموا المعتزلة — وهم غير
 الفرقة الفلسفية الاسلامية — وكان هؤلاء يعتقدون انه لا يجوز ديناً
 الاشتراك في الفتنة ومقاتلة السوريين اخوانهم في الاسلام . يدلنا على ذلك
 ما قاله أسامة معتزراً لعلّي حين طلب منه الانضمام الى صفوفه : « اعفني من
 الخروج معك في هذا الوجه فاني عاهدت الله ان لا أقاتل من يشهد أن لا إله
 إلا الله^(٢) » وقول آخر « أتريد ان تسير بنا الى اخواننا من اهل الشام
 فنقتلهم^(٣) » . وقد خاطب سعد علياً بقوله : « اعطني سيفاً يفرق المسلم من
 الكافر^(٤) » . ثم انضم معظم هؤلاء الرجال المعتزلة الى معاوية ومنهم تألف
 حزب العثمانية^(٥) « الذين يقدمون بني امية على بني هشيم ويقولون الشام

(١) المصمودي ج ٢ ص ٤٥ ، وروضة الناظر لابن الشحنة ص ٢١٢-٢١٤

(٢) الدينوري ص ١٥٢

(٣) الدينوري ص ١٧٥

(٤) الدينوري ص ١٥٢

(٥) تجددهم المذكورين في الطبري الجمة الاولى ص ٤٨ و٣٣ وفي ابن المبري (مختصر الدول)

ص ١٨٠ وفي البقوي ج ٢ : ٢١٨

خير من المدينة»^(١). وقد قعدوا عن علي بن أبي طالب ولم يشهدوا حروبه واعتقبوا أن عثمان قتل خطأ. ولكعب بن مالك أحدهم مرات في الخليفة المقتول وتحرّض للانصار على نصرته قتل قتله وتأييد لهم على خذلانه^٢. فاتحادهؤلاء الرجال مع معاوية أو اعتزالهم كاف لان ذلك لنا ان حقوق علي في الخلافة كانت امراً مشكوكاً فيه لم تثبت اصوله في صدور القوم اجمعين.

تدل كلمة (عثمانية) في الاصل على اقرباء عثمان الخليفة الثالث ومواليه غير انها اطلعت في الحرب الاهلية للدلالة على حزب الخليفة المقتول الذين قاموا يطالبون قصاص من سفك دم ذلك الشهيد المظلوم في عرقهم؛ وتطوف بعضهم فقالوا ان املي يدا في الثورة التي نشبت في المدينة وكان من نتيجتها قتل عثمان، ولذلك فهو غير جدير بتسليم عرش الخلافة. وانه لمن الغلط القادح ان نعتقد بان العثمانية هم حزب معارضة ومريدوه، بل بالعكس، فان كل من التف حول معاوية وناصره من اجل الاقتصاص لعثمان والاخذ بثأره هم من العثمانية^٣.

اما القبائل فكان قسم منها مع علي وقسم آخر مع معاوية لكن باهلة وبكر القبيصتان العراقيتان الصميمتان كانتا من اخلص المحلصين لدعوة بين

(١) الاذاني ج ١٥ ص ٣٠ (٢) الاذاني ج ١٥ ص ٢٦

(٣) لامس ص ١١٩-١٢٠

إبي طالب ثم انضمت اليه تغلب في الجزيرة واشتركت معه كما اتحدت قبلا مع غيره محافظة على مصالحها لقربها من العراق ولم يكن بنو تغلب من الذين يضحون انفسهم في سبيله لاننا نراهم بعد ذلك في صفوف معاوية في السكوفة؛ الا ان المتوطنين سورية منهم كانوا من حزب ابن ابي سفيان ، وتردد شاعرهم الاخطل الشامي — كما يسميه القهرزدق — على بلاط الامويين قدما كاف الدلالة على ذلك .

ومهما يكن من امر هؤلاء ، فان اليمن ومصر والعراق كانت دعامه الحزب العلوي ومادته الحيه . غير انه كان بها كثير من العثمانية الذين تألموا لهاجمة المدينة وغيرهم من المعتزلة . ففي مصر كان عددهم نحو من عشرة آلاف وقد حسب علي هؤلاء من الخونة ^(١) لانهم لم ينصروه ، وحارب معظمهم بجانب معاوية في معركة صفين ومن ثمة ساعده على فتح مصر والعراق والتغلب عليهما . ويعدد معاوية الاسباب التي جعلته يفوز على علي في نزاعهما فيقول (اعنت علي علي ثلاث : كان رجلا ظهره عانة وكنت كسوما للسر وكان في اخبث جند واشده خلافا وكنت في اطوع جند وقله خلافا وخبلا باصحاب الجمل فقلت ان ظفريهم أعددت ذلك عليه وهنا وان ظفروا به كانوا اهون شوكة

علي منه) ^(١) ويزيد العقد القريد انه قال (وكنيت احب الى قریش منه «اي من علي» فيالك من جامع الي ومفرق عنه) ^(٢). هذا عدا عن تفوق سياسي معاوية واغلبهم من الارستقراطية المسكية على رجال علي الانصار كما يظهر لنا من تتبع حوادث مؤتمر أذرح.

معركة صفين

حين قتل عثمان رهبث عواصف الالام في صدور من تخلف عن بيعة علي وغيرهم من العثمانية ، تربص معاوية يتتبع سير الاحوال فلم يتابع علياً نظراً لما جاش في صدره من الاطماع في السيادة والسلطة على العرب ، سيما ولعائلة ابي سفيان مجد تالد في قریش ولانه خاف من علي إذ علم انه متى استتب له الامر عزله ولم يستعمله ^(٣) فاستشار معاوية عمرو بن العاص في القيام عليه فاشار علي معاوية « اشراب قلوب اهل الشام اليقين ، بان علياً ملاً على قتل عثمان قبل ان يدعوم الي الخلاف ، وان يتقدم الي ذلك بالتزوين للاشراف منهم ، خصوصاً رأسهم شرحبيل بن السمط ^(٤) ». ففسد الي اهل الرضا

١ (الطبري ج ١ ص ٢٣٢٢ . ابواب الفرج ١ ص ١٦٩)

٢ (العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٣٧)

٣ (الفخري ص ٨١)

٤ (الدينوري ص ١٦٩)

عنده ان يخبروه بفاجعة عثمان، الواحد أثر الاخر حتى اشبعوا تفسيته بأنه قتل
مظلوما فأتى معاوية وقال « والله لئن باعته لنخرجك من الشام » ^(١) فاجاب
« ما كنت لاخلف امركم وانما انا واحد منكم » إن معاوية بعد ان ذل
هذه الصعوبة وتأكد من اخلاص زعيم اهل الشام ، عمد الى اكتساب
قلوب العامة فارسل شرحبيل في مدائن سورية يبائعهم على النصرة والمعونة
والاخذ بثأر خليفته المظلوم، ولطالما بكى واستبكى الناس مذكراً اياهم بمصاب
عثمان ^٢ ؛ مما يدلنا ان معاوية لم يحرم من المواهب الخطابية التي تؤثر في النفوس
فتستهويها وتضرب على وترها الحساس فتجتذبها ؛ فاجابه الناس كلهم الا
قراً من اهل حصص .

ثم بين معاوية للعالم الاسلامي ، الاسباب التي دعت له الثورة وضمنها في
رسالة بعث بها الى مندوبي ابن ابي طالب وهي اساس المبادئ العثمانية وتقول :
« اما بعد فأنكم دعوتكم الى الطاعة والجماعة ، فاما الجماعة التي دعوتكم اليها فعنا
واما الطاعة لصاحبكم فلا نراها . ان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جاعتنا
وتأوى ثارنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم انه لم يقتله فنحن لانرد ذلك عليه .
أرايتم قتلة صاحبنا ؟ الستم تعلمون انهم اصحاب صاحبكم فليدفعهم اليها

فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة . ١ ان معاوية اوجد لعلي بذلك مشكلة صعب حلها ؛ إذ كيف يسلم قتلة عثمان وهم يدمو عضده وانصاره و بطانته ؟ ٢ وان لم يفعل ذلك تسرب الشك الى صدر الامة فتعتقد ان لعلي دخلا في فاجعة المدينة سواء كان مجرما او بريئا . وقد اجاب ابن ابي طالب على ذلك بكلمات مبهمة غير محددة مما لا تبعث اليقين الى النفوس لانه لم يدفع بها عن نفسه التهمة التي صوبها اليه معاوية وكانت السبب الاكبر في ترغيع اركان دعوته والتخلي عنه ؛ وهاك جوابه « واما ما سألت من دفعي اليك قتلته فاني لا ارى ذلك ؛ لعلمي بانك انما تطلب ذلك ذريعة الى ما تأمل ومرة الى ما ترجو وما الطلب بدمه تريد » . ٣

ثم التقوا بصفين من ارض الشام على الفرات فجرت بينهم مناوشات وجروب وكان اولها ان معاوية واصحابه سبقوا الى شريعة الماء فملكوها ومنعوا اصحاب ابن ابي طالب من الماء . غير انهم اجبروا على مغادرتها بعد مناوشة انجلى عن تقهقرهم ٤ . ولجدير بالذكر انه حين كان يكف القتال ، تتوابع الجنود ويحتلطون بعضهم ببعض فلا يعرض احد من الفريقين لصاحبه الا

(١) الطبري ج ١ : ٢٢٧٥ - ٢٢٧٦ وان الاثير ج ٢ ص ١١٥

٢ . الدينوري ص ١٧٢

٣ . الدينوري ص ١٧٤

(٤) الدينوري ص ١٢٩ - ١٨٠ والفغري ص ٨٢

بخير، ورجوا ان يقع الصلح^١. وكانت طريقة القتال ان تخرج الجماعة من هؤلاء الى الجماعة من اولئك فيقتتلون بين العسكرين، وقد كرهوا الالتقاء بجميع القبليين، مخافة الاستئصال^٢ ولم تقع هزيمة ما على احد الفريقين الى ان كان يوم الهمد^٣ وهو اعظم يوم بصفين وبه زحف اهل العراق على اهل الشام فأزالوهم عن مراكزهم وحمل الناس بعضهم على بعض حملة شعواء حتى تكسرت الرماح وتقطعت السيوف ونفذ النبل وتكادموا بالافواه وتحاثوا بالتراب^٤. وذلك ان عليا امر كل قبيلة من اهل العراق ان تكفيه اختها من اهل الشام؛ الا ان تكون قبيلة ليس بالشام منها احد فيصرفها الى قبيلة اخرى كباهلة فانه صرفها الى الخم^٥.

وحين ظهرت امارات الفتح اشار عمرو على معاوية برفع المصاحف على الرماح^٦ والدعاء الى ما فيها من امر الله وغايته من ذلك؛ اولا، ايقاع الانقسام في احزاب علي لان هذا امر ان قبلوه اختلفوا ولان ردهه تفرقوا.

(١) الدينوري ص ١٩١

(٢) الدينوري ص ١٩٢

(٣) الدينوري ص ١٩٥، الطبري مجلة ص ٢٢٢٢

(٤) الدينوري ص ١٩٥

(٥) الدينوري ص ١٩٢، الطبري ج ١ ص ٢٢٨٢

(٦) الطبري ج ١ ص ٢٢٢٩. اقرأ رأي علي في رفع المصاحف الطبري ج ١

ص ٣٣٢٠، ٣٢٠ الفخري ٨٢

ثانياً ، رفع الحرب عن السور بين الى اجل او الى حين على الاقل . ولقد
 أثر ذلك على عقلية الجنود اذ قيل لهم « من لثغور اهل الشام بعد اهل الشام
 ومن لثغور اهل العراق بعد اهل العراق » . ان ذلك العامل الذي
 ابان لهم ما يصيبهم من الضرر ، (مدموغاً بطابع الدين) جعلهم
 يفترون عن القتال ويصيب سهم ابن العاص مرماه . والحقيقة هي
 ان التفرقة وقعت في جند علي فقام بعضهم وقال انها مكيدة فاجابهم آخرون
 « انا قد بدأنا بدعاء اهل الشام الى كتاب الله فردوا علينا فاستحللنا قتالهم
 فان رددناه عليهم حل لهم قتلنا »^١ واخيراً قر قرارهم بعد الجدل في مسألة
 الشك واليقين من صدق امرهم ، على ان يرضوا بالتحكيم وهياً مندوبو كل
 من الفريقين الكتاب او البروتوكول الاتي بيانه :^٢

اولاً : ينزل الحكمان والفريقان عند حكم الله عز وجل وكتابه .

ثانياً : الحكمان هما ابو موسى الاشعري عن اهل العراق وعمر بن العاص
 القرشي من قبل اهل الشام .

ثالثاً : يعتمد الحكمان على السنة العادلة الجامعة غير التفرقة فيما لم يجدها

في كتاب الله .

(١) الدينوري ص ٢٠٢

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٣٢٦ - ٢٣٢٧ ، الدينوري ص ٢٠٧ - ٢٠٨

رابعاً : الامن والاستقامة ووضع السلاح جـار بين افراد الحزبين ايثا ساروا على انفسهم واهليهم واموالهم وشاهدتهم وغائبهم .

خامساً : الامة لها انصار على مايتقاضيان به وليس لعل ومعاوية ان ينقضا مما حكم به في كتاب الله وسنة نبيه . وهما آمانان في حكومتهم على دملهم واموالهم واشعارهم وابشارهم واهليهم واولادهم .

سادساً : مكان قضيتهم الذي يقضيان فيه مكان عدل بين اهل الكوفة (العراق) واهل الشام ويأخذ الحكمان من ارادا من الشهود .

سابعاً : اجل القضاء الى رمضان وان احبا ان يؤخرا ذلك اخراه على تراض منهما .

حقاً ان معاهدات السياسيين بها شيء من الابهام وعدم التحديد ولعلمهم انفسهم يودونها ان تكون كذلك كما يعلقوا المسائل تعليقاً دون حل نهائي لها ، اذ ربما تسنح القرص بعد ذلك بتتميمها . ومن هذا القبيل نرى ان المادة الاولى من هذا الاتفاق غير محدودة اذ ما معنى حكم الله ؟ وما هي التفصيلات الدقيقة التي يجب ان يبحث فيها اعضاء المؤتمر حين يضعون ايديهم على « حكم الله » اذا وجدوه ووصلوا اليه ؟ ثانياً ترى هل كان احد الحكمين او كلاهما منتخبين من قبل الحزبين بتمامهما ام كان هنالك فئة غير راضية عن

أحدهما أو كليهما؟ ألا اننا نعرف ان علياً نفسه لم يكن راضياً عن إبي موسى؛
ويثبت لنا ذلك رأيه فيه حيث قال: (انه ليس لي بثقة . قد فارقني وخنل
الناس غني ثم هرب مني حتى امنته بعد اشهر^١). وللقادة الاحنف بن
قيس رأى في إبي موسى وهو « قد عجمت هذا الرجل وحلبت اشطره فوجدته
كليل الشفرة قريب النعر »^٢ ناهيك ثالثاً بان التحكيم نفسه لم تقبل به فئة
كبيرة من الناس دعوا بعد ذلك بالخوارج. وتفصيل الخبر انه لما خرج الاشعث
يقرأ مواد الكتاب الذي عقد بين الطرفين على الناس؛ قامت طائفة من
بنى تميم فيهم عروة بن أدية حيث قال « تحكمون في امر الله عز وجل الرجال.
لاحكم الا الله »^٣ كذلك صرحت له تماماً فئة من عنزه وبعض من اشراف
مراد وغيرهم من بنى راسب اذ تنادوا (لا يحكم الرجال في دين الله)^٤ مما
يدل ان علياً لم يصل الى منصب الخلافة الا بأمر الله . ومنصبه جليل سام
لأراي للناس فيه او في انتخاب الرجل الذي يجب ان يتسمنه اذ ان الله خصه
به . ولقد قاموا على علي لانه شك في صحة خلافته وجعل نفسه عرضة للحكم
الذي يصدره الحكماء . خامساً اننا لو تصفحنا العقد لتحققنا ان علياً لم يلقب

(١) الطبري ج ١ ص ٢٣٢٢

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٣٢٤

(٣) الطبري ج ١ ص ٢٣٢٩

(٤) الدينوري ص ٢١٠

فيه بامير المؤمنين^١ مما يبرهن لنا ان خليفة المسلمين رضي بأن ينزل نفسه منزلة معاوية حاكم دمشق وان يخضع واياهم لصوت القضاء. وهذا ضعف في سياسته كما لا يخفى .

مؤتمر اذرح

كانت دومة الجندل ؛ البلدة التي صمم الحكمان على جعلها مقراً للمؤتمر في باديء الامر ؛ اذ انها في مركز وسط بين سورية، والعراق . وقد انتخبت اذرح ايضا مكانا لاجتماعهما ، وهي من اعمال الشراة شم من نواحي البلقاء ، وعمان ،^٢ مجاورة لأرض الحجاز ؛ تبعد نحواً من ميل عن الجرباء ويستطاع القول انها في منتصف المسافة بين معان وبطرا (وادي موسى) في ايامنا هذه . وكانت اذرح محطة للقوافل القرشية التي امت سورية ايام الرسول (ص) وقد لعبت دورا مهما في العصر الرومانية اذ جعلوها مخيما ومركزاً للمواصلات مع البحر الاحمر . وهي غنية بمياهها في تلك البقاع الجرداء وورثة بطرا في اجتذابها القوافل حين مرورها الى شرقي الاردن . ولقد خسرت مركزها التجاري حين الفتح الاسلامي . وكان لمعان البصيب الاوفر في النمو والازدهار

(١) الـ تيـ نـ وري ص ٢٠٧

(٢) معجم البلدان لابن خلدون الجوهري ج ١ ص ١٦٢ ، راجع الطبري ج ١ : ٢٢١

بعدها . واخر ذكرى لها في التاريخ الاموي هو تنازل الحسن بن علي عن الخلافة فيها لمعاوية . والظاهر أنها خربت ايام الحملات الصليبية على سورية لان مؤرخيهم لا يذكرونها مع كثرة معسكرات اللاتين، كوادي موسى^١ وغيرها، في تلك الجهات . ومن الشائع المتعارف لدى المؤرخين العرب سوى الطبري^٢ ان دومة الجندل كانت مركز المؤتمر وذلك لاثباتهم الروايات دون غلبة وانتقاد . غير اننا لو تصفحنا اقوال الشعراء لأكدنا ان المؤتمر لم يعقد الا في أذربج ويشهد بذلك قول ذي الرمة يمدح بلال بن ابي بردة بن ابي موسى الاشعري :

ابوك تلاقي الدين والدنيا بعدما تساءوا ويت الدين منقطع الكسر

فشد اصار الدين ايام اذربج ورد حروبا قد لقمن الى عتمر^(٣)

ولنا من شعر كعب بن جعيل في عمرو بن العاص ما ثبت ما نحن بصددده^٤

كان ابا موسى عشية اذربج يطيف بلقمان الحكيم ويواربه

فاما تلاقوا في تراث محمد سمت بابن هند في قریش مضاربه

(١) لامنس ص ١٢٨

(٢) الطبري ص ٣٢٤١ . ابن الأثير ينزل ماور - في الطبري ج ٣ ص ١٢١

(٣) ياقوت الحموي معجم البلدان ج ١ ص ١٦٢

(٤) معجم البلدان ج ١ ص ١٦٢

وقال الاسود بن هيثم في المؤتمر :

لما تداركت . الوفود باذرح وفي اشعري لايحل له غدر^(١)
أدى أمانته ووفى نذره عنه واصبح غادراً عمرو
وان كان المؤتمر لم يعقد في دومة الجندل فذلك يرجع الى سلوك علي لأنه
امل ان يؤخر تاريخ انعقاده لينتسب له ضم الخوارج الى حظيرته بعد ان
انشقوا عنه ولربما لتقطع العلاقات ثانية مع معاوية . ثم ان علياً لم يدفع مندوبيه
لحضور المؤتمر ويحرج عليهم في ذلك ولذا تأخروا عن الميعاد المضروب له^(٢)
مما جعل انصار علي نفسه يجبرونه على الوفاء بهمه . اما اهل الشام فتمسكوا
بقدموا للوعد الذي واعدتهم اياه الحكماء .

اجل قررت بعد ذلك دمشق والكوفة ان تكون اذرح مركزاً لاجتماع
الحكمين نظراً لتوفر اسباب الحياة فيها وكثرة مياهها مما فضلت به على دومة
الجندل . وقد رجا معارضة المعتزلة حضور المؤتمر ليشهدوا ما يكون
من أمرهما^(٣) .

لا بدع ان الحزبين لم يكونا متعادلين في المندوبين السياسيين اللذين

(١) مجمع اللدان ج ١ ص ١٦٢

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٣٤

(٣) الطبري ج ١ ص ٢٢٤١ الدينوري ص ٢١١

مثلاً هما لأن عمراً ذلك الداهية المشهور يعلم من ابن تَوَكُّل السكستف في الامور السياسية الخطيرة ، عدا ما اتصف به من فصاحة اللسان . ولما كان معاوية يشك في حسن مقاصده فقد ارسل له اخاه عتبة مشيراً .

اما ابو موسى فكان حاكماً للكوفة يوم مُثلت مأساة المدينة ، الاّ انه حين اشتعلت نار الحرب الاهلية اعتزل القتنة وهو من اصحاب رسول الله له شرف ونبيل ؛ لسكنه لم يكن ليعد من انداد عمرو في اساليب السياسة والدهاء ولقد كن خطيباً ذا افق عقلي محدد . ومهما يكن من امرهما فان المفاوضات التي دارت بين الاثنين تظهر لنا شخصيتهما وقواهما العقلية في الدفاع عن ارائهما ؛ وتفصيل الخبر هو انه حين نظر الحكمان في امرهما وما اجتماعا عليه « اراد عمر و ابا موسى على معاوية فأبى ، و ارداه على ابنه فأبى ، و اردا ابو موسى عمراً على عبدالله بن عمر فأبى عليه » " ومن ثمة قررا ان يجعل الامر شورى بين المسلمين فيختارون لأنفسهم من احبوا . وعموما نرى جميع المؤرخين من العرب ينسبون الى عمر و بن العاص انه خدع ابا موسى بتشبيته صاحبه معاوية وخلفه علياً بعد ان خلع زميله الزعيمين . نرى هل من الممكن ان يملو رجل عرش الخلافة اذا غش مندوبه مندوبا آخر فحسب ؟ ان حيلة عمرو لا يقبلها

المنطق اذ انه لو تسنى له ان يخدع ابا موسى لأثار الرأي العام عليه وتحويل الانظار نحو علي سيما وقد شهد المعتزلة الحايديون والأربعمائة مندوب من العتائق قرارات المؤتمر^١. ثم كيف تفسر ثورة الخريث بن راشد^٢ ذاك الرجل الذي أخلص لعلي وشهد معه معركة صفين والنهروان ولم يندفع البتة مع تيار الخوارج. لو خدع عمرو ابا موسى هل يهمل ان ينفخ الخريث في بوق الثورة وينشق على ابن ابي طالب بينما يعلم ان صاحبه خدع خدعا لم تكن ثورة الخريث نتيجة لخدعة عمرو الخيالية انما لأنه اراد ان ينفذ اداة الحكمين المتفقين ويدعو الى الشورى ولان عليا ضعف عن الحق اذ جد الجدل^(٣) فخلعه حكمه الذي ارتضاه لنفسه وهذا كان الرأي الذي خرج عليه من السكوفة. وصفوة القول اننا حين نضع المسائل في غربال الانتقاد ونقابلها بما وقع من الامور بعد مؤتمر أذرح نتحقق ان حيلة عمرو العلنية لا تستند على اساس ثابت من الصحة اذ كيف يرجو عمرو ان يرشح معاوية للخلافة بعد ان أمضى مع ابي موسى على خلعه^٤. ومما يدلنا ان حيلة عمرو باطلة هو انه لم يرد شيئا عنها في الاحتجاجات التي

(١) لامنس ص ١٢٢

(٢) الطبري ج ١ ص ٣٤١٨

(٣) الطبري ج ١ ص ٣٤٣١ وارجع ايضا الطبري ج ١ ص ٣٤٢٧ والطبري ج ١

(٤) الطبري ج ١ : ٣٣٥٨ الفخري ص ٨٤ ٣٤١٩

قدمها علي معترضا علي مؤتمر أذرح انما اتهم الحكمين بانهم لم يسيرا حسب ما في كتاب الله ولذا وسعته الخروج عن حكمهما .

ان الحزبين لم يقتتلا في سهل صفين الا لان عليا لم يرض بتسليم قتلة عثمان للقضاء فابي اهل الشام ، العثمانية ، الاعتراف به خليفة للمسلمين ، ولذا عقد مؤتمر أذرح . وحضور العراقيين هذا المؤتمر لم يكن الا بمجاملة يقومون بها قبل ان يكون النصر حليف ابن ابي طالب . اما السوريون فقد قدموا وفي ادمغتهم فكرة الشك في حق علي بالخلافة وترشيح معاوية لها مع انه لم يدعيها علنا وود ابن ابي سفيان من صميم القلب ان يظهر مداخلة خصمه في فاجعة المدينة كما لا يكون لنصير القتلة حق بالخلافة . والغلط القادح الذي ارتكبه الاشعري هو انه سوي بين علي امير المؤمنين ومعاوية حاكم الشام في المنزلة كما نص بذلك « برونوكول » صفين ، مع ان ابن ابي طالب قد اعترفت به مصر واليمن والحجاز وخراسان ولم يبق خارجا عنه الا سورية ^٢ . هذا عدا ان معاوية لم يلتفت حوله حزبه الا كمنتهقم لعثمان وليس كمدح للخلافة . فالاشعري لم يميز هذا التفصيل الدقيق الخطير؛

(١) الطبري ج ١ ، ٢٣٥٩ ، ويقول ابو مري « اني قد خالفت عليا ومعاوية فاستقبوا

اسرهم رولو طابكم من راسنوه لهذا الاسرا » .

(٢) دروة المناظر ج ١ ، ٢١٩٠

بل حكم على علي ومعاوية كرشحين للخلافة ، وبذلك حط من مركز ابن ابي طالب ورفع منزلة معاوية وأمهله بتحقيق مطامعه الخفية وحوّل انظار الناس نحوه دون ان يشعر بما فعل . ولو امعنا النظر في سير المفاوضات بين الاثنين لراينا ان الاشعري لم يكن متأكدا من حق علي بالخلافة اذ اطلق العنان لعمرو ان يحدثه عن حقوق معاوية في ان يخلف عثمان . هذا لم يكن موضوع المناظرة ولعمري ان عمرا الداهية ابعد في مفاوضاته كثيرا عما اتوا من اجله فجعل برشح رجلا ضعيفا للخلافة الى ان انهكه ، وقر قرارهما على خلع الزعيمين والرجوع الى الشورى ؛ مما أدى الى النتائج التي وصفناها آنفا . هذا ما نظنه الصحيح من مناقشات مؤتمر اذرح . اما الباقي من الروايات فعليه مسححة من روح التعصب والاختلاف في اثبات الحديث .

خرج معاوية من هذا المؤتمر خاسرا حتماً ليس له وراجاً عطف الناس ، اذ ان عليا لم يعترف بما أقر عليه الحكماء وهو تخليه عن المركز العظيم الذي تسنمه او ما عديسدة الرجوع الى الشورى . وان ظل علي بعد ذلك متمسكاً بمن الحجاز والامراق وغيرهمان الاقطار فقد بقي معاوية المسيطر على الشام والرجل الذي بدأ يرى فيه العالم الاسلامي الشخصية الكبيرة القادرة على توطيد السلام ، ولذا فتول

ان مفاوضات مؤتمر اذرح السياسية ادت الى نتائج عظيمة لم تكن لتأتي عن طريق صفين وغيرها من المعارك التي تسفك فيها الدماء الزكية .

ومما جعل لمعاوية النصيب الاوفر في النجاح ابان المفاوضات هو روح الطاعة التي تحلى بها الشاميون. ^(١) لكن القوض نشبت بين العراقيين حتى قال لهم العباس يوما « اما ترون رسول معاوية يجيء لايعلم بما جاء به ويرجع لايعلم بما رجع به ولا يسمع لهم (لشاميين) صياح ولا لفظ واتم عندي كل يوم تظنون الظنون ؟ ^(٢) »

ويقول ذوو الرأي من العرب ، انه لو مضى علي بمن اطاعه ، اذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظفروا ويهلك لكان ذلك الحزم ^(٣)

الاسلام يقول ان النفوذ والقوة بعد الله هما في يد الجماعة الاسلامية وليس من خطيئة بعد الكفر اكبر من خطيئة الخروج على الجماعة والثورة عليها . وللخليفة ممثلها وحامل عصاها ان يحكم بموجب كتاب الله والسنة والاجماع والقياس . وقد انتخب معاوية بن ابي سفيان خليفة للمسلمين عام الجماعة في ايلياء ^(٤) (بيت المقدس سنة ٤١هـ و ٦٦١ م) ودعي هذا العام بعام الجماعة

١) راجع - ودي ج ٢ ص ٥٢ .

٢) الطبري ج ١ ، ٢٢٥١ (٣) الطبري ج ١ ص ٢٢٤٦

(٤) الدميري حياة الحيوان ج ١ ص ٦٧ . ابن خيس ج ٢ ص ٢٢٥

لاجتماع الامة بعد الفرقة على خليفة واحد ، وذلك حين بايع له الحسن بعد مقتل ابيه بالخلافة . وكان قد ارسل معاوية بصحيفة بيضاء للحسن مختوم على اسفلها وكتب اليه ان اشترط في هذه فما اشترطت فهو لك .^(١) ثم اعترف العرب عموما بمعاوية خليفة للمسلمين



الفصل الثاني

مأساة الحسين



الاعمال التحطيم العرسه المصوى في السام بعد وفاة معاذية ،
الحزب العلوي ومأساة الحسين بن علي ، لمن يزيد ، وفاة معاوية ،
مراسم الدفن ، يزيد الشير ، مؤامرات الحزب العلوي في الكوفة ،
رسائل الكوفيين للحسين بن علي ، رسائل الحسين للكوفيين . مسلم
بن عقيل في الكوفة ، اجتماع الشبهة بحضرته ، ضعف النعمان بن
بشير الى الكوفة ، وملاية عبيد الله بن زياد للعراق . اسباب نجاحه
في قمع الثورة ، فاجعة مسلم وهاني بن عروة المروى ، الحسين في
العراق ، واقعة كربلاء ، اسباب سقوط الحسين ، تألم يزيد لقتل الحسين ،
رماء الحسين ، التهاويل الغربية في مأساة الحسين .

عزم معاوية بن ابي سفيان عزما اكيدا طيلة ايامه على استئصال شأفة
المعارضين للمركزية الاموية فبذل الاموال ووهب المناصب وجيش الجيوش
ونظم فرق العيون والارصاد والشرطة في طول البلاد وعرضها، وقطع السنة
الناس والشعراء بكرمه وحلمه ودهائه وبما صرفه من الجهود القوية في سبيل
استرضاء الناس والتودد اليهم والتعجب الى زعمائهم . فتوفق في البلوغ الى
غايته بعض التوفيق اذ سكنت الاحزاب الى حكمه ورضخت لعدله . لكن
كان هناك عوامل حجة تعمل في الخفاء لتحطيم عرش الامويين في الشام
بعد وفاة معاوية الاول . فالعامل الأول في عرفنا هو قيام الحزب العلوي برئاسة
الحسين بن علي بن ابي طالب لاسترجاع ما فقدته السلطة في مؤتمر اذرح
ونشاطه الى ذلك نشاطا عظيما . واما العامل الثاني فهو طمع الزعماء من
الصحابة الى التغلب والسيطرة كعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب
وغيرهما . واما العامل الثالث فهو فترة الحجازيين والعراقيين من الامويين
لاحتكاكهم اعمال الدولة ومهام الامور فيها . فلم تكن للحجازي والعراقي يد
فعالة في تسيير دفة الاحكام كما كان للشامي ، ولا ريب ان انتمال العاصمة
من المدينة الى دمشق جعل زمام الامور بطبيعة الحال تحت سيطرة النبلاء العرب
الشاميين . ثم ان التجهز الزعماء الحجازيين الى العراق وبشهم الدعوة ضد بني

امية حرك في صدور ابناء الرافدين اسباب القتل التي ادت الى المذابح
 الشائنة والحروب الاهلية بين ابناء الوطن الواحد ، قهتكم الشامي بالعراقي
 واعمل العراقي السيف بالشامي . واذا تتبعنا مصدر هذه القتل لتحققنا ان
 محركها الاكبر هو استثمار الزعماء والاحزاب للعاطفات الدينية في سبيل الوصول
 الى غاياتهم السياسية كما سيتبين معنا . واما العامل الرابع فهو قيام رجال من
 ولاة الامويين الذين لجأوا الى البطش وسياسة الدم والحديد فنجحوا نجاحا باهرا
 في توطيد الامن وتهديم الثورات — موقتاً — ولكن لم يكد كابوسهم يرتفع عن
 الصدور حتى قذفت تلك الصدور نيرانا وحماً .

الزب العلوي ، وأساة الحسين بن علي

اعتلى عرش بني امية في دمشق بعد وفاة معاوية ابو خالد بن يزيد بن معاوية
 وكان ذلك سنة ستين للهجرة (٦٧٩ م) . وهو شاب يلعبه معظم المؤرخين
 فيتعرضون له بالسب والشتيمة والتكفير . وهم حسبما رايت فشتان . فئة تقيم
 عليه النكير لان في ايامه قتل الحسين بن علي سليل العترة النبوية وحفيد
 الشجرة الهاشمية . ولانه امر بغزو الكعبة حينما التجأ اليها ابن الزبير في ثورته
 المشهورة فاجترأ على اكبر مؤسسة اسلامية يحج اليها المسلمون . وفئة تصب
 جام غضبها عليه لسوء سيرته الشخصية وتمتعه بلاذ الحياة الدنيا فتقول انه

تعاطى كؤوس الراح ولبس الحرير ولاعب الحيوانات الاليفة كالقردة ،
 واستهوته اسباب المدنية البيزنطية فجاء في أثرها ، وروى الشعر وامترسل
 في التشبيب والغزل . اما الفئة الاولى فهي مخطئة في اعتقادنا لانها ترجع
 اسباب الحادثات الى الملوك وترى انهم هم الذين يكونون مجارى التاريخ ،
 وما التاريخ الا سلسلة حركات متصلة لا بد ان تعمل عملها سواء اكن يزيد
 مستوليا على العرش ام غير يزيد . وسنفصل لك الاسباب التي دعت الى مأساة
 الحسين تفصيلا مسهبيا يريك ان لكل حادث سببا ، وان لكل سبب نتيجة
 هي مرهونة بأوقاتها ، وان اللعنة التي بلغها المسلمون ليزيد هي ليست من
الاهمية على شئ في نظر التاريخ العلمي الذي يستبصر بنور الحياض الصحيح
ويترفع عن الحزبية وتعصباتها .

واما الفئة الثانية فليس لها ان تحكم على شاب ربي في محيط شامي يختلف
 تمام الاختلاف عن المحيط الحجازي الذي عاش في كنفه الخلفاء الراشدون .
 فالمحيط الحجازي هو مركز الزهد والتقشف والتمسك برباطة الدين وتعاليمه
 بينما دمشق هي عاصمة البيزنطيين الشامية وفيها من اسباب مدينتها مآدهش
 العرب وجعلهم مع الزمن ينسجون على منوالها ويقتبسون فوائدها . ومما لا ريب

فيه ان المؤرخين يرتكبون خطأ فاحشاً اذا جعلوا مقياس حكمهم على يزيد هو المقياس الذي يقيسون به اعمال عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة مثلاً . وان لكل زمن مقياساً فلا يمكنك البتة ان تحكم على ابن القرن الثاني وتزن اعماله بميزان ابن القرن الاول ناهيك ايضاً باختلاف الامكنة ومؤثراتها . فالشام هو غير الحجاز والحجاز هو غير العراق وفارس على ذلك .

اعلن الضحاك بن قيس الوزير الاول في الدولة الاموية اذ ذاك وفاة معاوية فصعد منبر المسجد الجامع ومعه اكفان الخليفة الحليم وقال « ايها الناس ان معاوية بن ابي سفيان كان عبداً من عباد الله ، ملكه على عباده فعاش بقدر ومات بأجل ، وهذه اكفانه كما ترون ، نحن مدرجوه فيها ، ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين ربه فمن أحب منكم ان يشهد جنازته فليحضر بعد صلاة الظهر » (الدينوري ص ٢٤٠) يمثل هذه الكلمات الموجزة البلادة ودع الضحاك معاوية وواراه الناس في مرقد الاخير . ولدى البحث والتدقيق وجد ان هذه الخطبة هي شبيهة كل الشبه برسالة بعث بها يزيد الاول لذي تسنمه عرش الخلافة الى الوليد بن عتبة والي المدينة يخبره بوفاة ابيه فيقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد امير المؤمنين الى الوليد بن عتبة ، اما بعد فان معاوية كان عبداً

من عباد الله كرمه الله وأستغفره وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل فرحمه الله
 فقد عاش محموداً ومات براً تقياً والسلام. الطبري *Series 2. Volume 1*
 لناشره *M. J. De Goeze* ص ٢١٦ « مما يؤيد لنا أن الرسالتين
 صدرتا من دائرة مخصوصة في بلاط يزيد لها لون واحد وروح واحدة. ولعلها
 — ونحن هنا نتكهن — للضحاك نفسه .

يتأكد طالب التاريخ لدى دراسته احوال يزيد انه كان يميل الى
 الشدة في تثبيت دعائم ملكه ، فلم يتوان ولم يكسل ولم يغض النظر عن الزعماء
 الذين ارادوا الوثوب به والتنكيل بحزبه ، فأرسل الى الولاة في الاطراف يطلب
 منهم البيعة له دون ابطاء ولا مماطلة . ثبت لنا رأينا هذا رسالته الى الوليد
بن عتيبة حاكم المدينة فهو يأمره بها ان لا يتساهل البتة مع الحسين بن علي
 وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وان يكون لهم بالمرصاد اذا ارادوا العصيان
 والثورة . ويروي لنا الطبري نص الرسالة كما يأتي : « . . . اما بعد فخذ حسيناً
 وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى
 يبايعوا والسلام *Series 2. Volume 1* ص ٢١٦ — ٢١٧ . وكان هؤلاء النفر
 قد ابوا على معاوية الاجابة الى بيعة يزيد حين دعا الناس الى بيعته وانه ولي
 عهده من بعده . ورأى مروان بن الحكم رأي يزيد في الشدة والحزم حتى

لا يطمع طامع في بني أمية فأشار على الوليد بن عتبة في المدينة قائلا « أرى ان
تبعث الى هؤلاء... فتدعوهم الى البيعة والدخول في الطاعة فان فعلوا
قبلت منهم وكسفت عنهم وان ابوا قد متهم فضربت اعناقهم قبل ان يعلموا
بموت معاوية فانهم ان علموا بموت معاوية وثب كل امرئ منهم في جانب
واظهر الخلاف والمنازعة ودعا الى نفسه... اما ابن عمر فاني لا اراه يرى
القتال ولا يجب ان يبولى على الناس الا ان يدفع اليه هذا الأمر عقواً
الطبري ص ٢١٧ S 2 V 1 « وقد اكّد مروان بن الحكم للوليد بن عتبة
ضرورة استعمال الشدة مع الزعماء الذين لا يظهرون بيعتهم علناً حتى انه دعاه
الى الفتك بالحسين حينما ابى مبايعة يزيد وأجاب «... فان مثلي لا يعطي
بيعته سراً ولا أراك تجتري بها مني سراً دون ان تظهرها على رؤوس الناس
علانية... فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا مع الناس
فكان أمراً واحداً. الطبري ص ٢١٨ S 2 V 1، الفخري ص ١٠٨-١٠٩
وعدّ مروان بن الحكم هذا الجواب دليلاً على المماثلة والتبزم من الخضوع
والاعتراف لبني أمية بالخلافة، لاسيما وان الحسين لم يأت دار الامارة في المدينة
الا ومعه وواليه وأهل بيته. ويروى لنا الطبري انه قال لأصحابه لما انتهى
الى باب الوليد « اني داخل فان دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا فافتحموا علي

باجعكم والا فلا تبرحوا حتى اخرج اليكم الطبري ص ٣١٨ / ٢٧١ ٠١٢
وهذا يبرهن لنا جلياً ان حبل الثقة كان قد انقطع بين الطرفين وتنص
التصريحات التي ادلى بها الجانبان نصاً صريحاً على ان الفتنة آتية لا ريب فيها
وان كلاً من الحزبين قد أخذ يعددته ليناجز صاحبه الواقعة وان الكلمة
النهائية هي ليست للمفاوضات بل للسيف. ولما جبن الوليد امام الحسين ولم يجبره
على البيعة وترك امامه السبل آمنة مطمئنة قاله مروان قوله المشهور (والله لئن
فرقت الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها ابداً حتى تكثر القتلى بينكم
وبينه . احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع او تضرب عنقه . الطبري
ص ٢١٨ / ٢٧١) وكان ضعف الوليد في عرف يزيد مدعاة لعزله
عن منصبه .

ابي الحسين البيعة ليزيد فجمع أهل بيته وشيعته وانطلق الى مكة فاختلف
الناس اليه والتفوا حوله حلقات حلقات واحتفلوا به وانتصروا له فكثرت
رجاله وانتشرت دعوته بينهم وقد اتصل هناك برسل الكوفيين من الشيعة
الغاضبين على يزيد فشجعوه على القدوم اليهم لينادوا به اميراً للمؤمنين بدلا
من يزيد بن معاوية المعتصب اعرض ابيه علي بن ابي طالب ابن عم الرسول .
حملت الاخبار وفاة معاوية فنشط الحزب الشيعي في الكوفة وانشأ يدبر

الموأمرات ويهيء الوسائل للفعالة لاسترجاع عرش الخلافة الى اصحابه الشرعيين . ف عقدوا الاجتماعات في بيت اكبر زعمائهم سليمان بن صرد . واندفعوا اندفاعا كلياً في القاء الخطب الحماسية التي تظهر مساويء الحسك الأموي وفضائحه ودسائسه فاعتلى سليمان مرةً منصة الخطابة واقتتح احدى جلساتهم بقوله : (ان معاوية قد هلك وان حسيناً قد تقبض على القوم ببيعتيه وقد خرج الى مكة وانتم شيعته وشيعة ابيه فان كنتم تعلمون انكم ناصروه ومجاهدوه عدوه فاكسبوا اليه وان خفتم الوهل والقشل فلا تغفروا الرجل من نفسه ص ٢٣٣ الطبري S2V1) فلجأ القوم والحماس آخذةً منهم مأخذة « لا بل تقاتل عدوه وتقتل انفسنا دونه الطبري ص ٢٣٣ / S2V1 » .

وعمدوا الى كتابة الرسائل الواحدة اثر الاخرى وكلها توثق للحسين طاعتهم واخلاصهم وتقائهم في الدفاع عنه والذود عن حرمة . واني مورد لك بعض هذه الوثائق لتلمس بيدك شيئاً من حماس القوم وتهاالكهم - ولو عن بعد - في نصرته ومحبته :

الرسالة الاولى : — بسم الله الرحمن الرحيم

من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر

وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة . سلام عليك فانا نحمد
 اليك الله الذي لا اله الا هو . اما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار
 العنيد . . . انتزى على هذه الامة فابتزها أمرها واغتصبها فيها وتأمر عليها
 بغير رضى منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين
 جبابرتها واغنياها فبعداً له كما بعدت ثمود . انه ليس علينا امام فأقبل لعل
 الله يجمعنا بك على الحق . والنعمان بن بشير — الوالي — فى قصر الامارة
 لسنا نجتمع معه فى جمعة ولا نخرج معه الى عيد ، ولو بلغنا انك قد اقبلت الينا
 أخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله ، والسلام ورحمة الله عليك الطبري

« S 2 V / ص ٢٣٤ »

الرسالة الثانية : بسم الله الرحمن الرحيم

لحسين بن علي ، من شيعته من المؤمنين والمسلمين اما بعد في هـلاً فان
 الناس ينتظرونك ولا رأي لهم فى غيرك فالعجل العجل والسلام عليك
 الطبري S 2 V / ص ٢٣٤ »

الرسالة الثالثة : . . . اما بعد فقد اخضر الجنب واينعت الثمار

وطمت الجمام فاقدم على جندك محمد والسلام عليك الطبري S 2 V /

ص ٢٣٥ »

فترى مما تقدم ان الكوفيين قد حبسوا انفسهم عليه واسرفوا في ذلك اسرافاً شديداً وغلوا في انتصارهم للحسين غلواً عظيماً حتى ليقول الدينوري صاحب الاخبار الطوال انه « ورد اليه خمسون كتاباً من اشراف الكوفة ورؤسائها ، كل كتاب منها من الرجلين الثلاثة والاربعة وتابعت عليه في ايام فملاً منها خرجين » الدينوري ص ٢٤٣ »

أمام هذه الجهود العظيمة التي بذلها الكوفيون في بث دعوته ، وتلك المواعيد الجميلة الجذابة التي تواردت عليه في ايام قلائل ، لم ير الحسين رأياً اصوب من الالتحاق بهم فهدى لذلك السبل فارسل مسلم بن عتيل بن ابي طائب وهو ثقته وطلب اليه المسير الى الكوفة لنشر الدعوة وتنظيم الحركة العلوية تنظيمًا يدعو الى النجاح واخذ البيعة وجمع الرجال والاموال . وبعث معه رسالة يدعوهم بها الى التكاتف والتعااض وهي ترمي الى معرفة احوالهم تماماً قبل الاقدام على استلام مهام الزعامة فيهم . ووردت هذه الرسالة بنصوص عديدة لكنها لا تختلف في مطالبها الجوهرية واليك نصين منها يثبتان دعوانا :

النص الاول : بسم الله الرحمن الرحيم .

من الحسين بن علي الى من بلغه كستاني هذا من اوليائه وشيعته بالكوفة : سلام عليكم ، اما بعد فقد اتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي

وانا باعث اليكم باخي وابن عمي وثقتي من اهل بيتي مسلم بن عقيل ليعلم لي
 كنهه امركم ، ويكتب الي بما يتيين له من اجتماعكم فان امركم علي ما اتتني
 به كتبكم واخبرتني به رسلكم اسرعت القدوم عليكم ان شاء الله والسلام
 الدينوري ص ٢٤٤ »

النص الثاني : « بسم الله الرحمن الرحيم

من حسين بن علي الى الملا من المؤمنين والمسلمين

اما بعد فن هانئا وسعيداً (هانئ بن هانئ السبيعي وسعيد بن عبد الله

الحنفي) قدما علي بكتبكم وكان آخر من قدم علي من رسلكم ، وقد فهمت

كل الذي اقتضصتم وذكرتم ومقالة جلسكم انه ليس علينا امام فاقبل لعل الله

ان يجمعنا بك على الهدى والحق ، وقد بعثت اليكم اخي وابن عمي وثقتي من

اهل بيتي وأمرته ان يكتب الي بحالكم وامركم ورأيكم فان كتب الي

انه قد اجمع رأي ملاكم وذوي الفضل والحجى على مثل ما قدمت علي به

رسلكم وقراءت في كتبكم ، اقدم عليكم وشيكا ان شاء الله فلعمري ما الامام

الا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات

الله والسلام . الطبري S 2 V ص ٢٣٥ »

ثم رحل مسلم الى الكوفة فدعت اليه الشيعة وعقدوا اجتماعا في حضرته

تجلت فيه آيات التأثر والحماس والغضب للبيت العلوي . وقد افتتح جلستهم
 مسلم فقراً ككتاب الحسين فبكوا خشوعاً وحناناً لمقدمه . وتتابع الخطب
 من اشهر المتفوهين والبلغاء وكلها تؤيد الرسائل المتطرفة التي بعثوها للحسين
 فزاد ايمان مسلم بالحركة العلوية لا سيما وقد رزت كلمات التضحية مراراً في اذنيه
 فقام الزعيم عابس بن ابي شبيب يؤكد اخلاصه واستعداده للموت في ميميل
 الدعوة فقال « . . . اما بعد فاني لا اخبرك عن الناس ولا اعلم ما في انفسهم .
 وما اغرك منهم . والله احذثك عما انا موطن نفسي عليه ، والله لأجيبنكم ان
 دعوتهم اولاً قاتلن معكم عدوكم ولأضربن بسيفي دونكم حتىلقى الله ، لا اريد
 بذلك الا ما عند الله الطبري / S 27 ص ٢٣٨ وايد حبيب بن مظاهر
 الفقعسي رأي زميله عابس بن ابي شبيب فقال مخاطباً اياه « . . . رحمك الله
 قد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك وانا والله الذي لا اله الا هو
 على مثل ما هذا عليه »

والغريب ان النعمان بن بشير والي الكوفة لم يقتلع جرثومة التآمر على
 الحكومة الاموية ولم يضرب زعماء العلويين بيد من حديد فيخفت اصواتهم
 ويشل سواعدهم ، ولا ريب انه كان ضعيف الرأي في الحكم يميل ظاهراً
 الى الحسين . يدلنا على ذلك قوله الى احد من يهوى هوى الامويين لما اخذ

يؤنبه ويتهمه بالضعف أو التضاعف في حفظ مصالحة الدولة والاهتمام في سلامتها
 (ان اكون ضعيفاً وانا في طاعة الله أحب الي من ان اكون قوياً في معصية
 الله ، وما كنت لأهتك سترأ ستره الله . الطبري ١/ ٢٢٧ ص ٢٢٨)
 ولنا من خطبه في السكوفة برهان آخر على انه كان يرى الفتنة يقطي ولا بد
 ان تشتعل ، وانه لن يهاجم القائم بها قبل ان يهاجوه فجعل لانصارها قوة
 وطيدة الاركان وبدأ فعالة في ترتيب المؤامرة وتنظيمها على الاسس المتينة .
 قل من خطاب له في المسجد الجامع « . . . أما بعد فاتقوا الله عباد الله
 ولا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيهما يهلك الرجل وتسفك الدماء وتغصب
 الاموال . اني لم اقاتل من لم يقاتلني ولا اثب على من لا يثب علي ولا اشاءكم
 ولا اتحوش بكم ولا آخذ . . . بالظنة ولا التهمة ولسكنكم ان ابدتم صفحتكم
 لي ونسكتكم ببيعتمكم وخالقتم امامكم فوالله الذي لا اله غيره لأضربنكم بسيفي
 ما ثبت قائمه في يدي ولو لم يكن لي منكم مناصر . اما اني ارجو ان يكون
 من يعرف الحق منكم اكثر ممن يرديه الباطل . الطبري ١/ ٢٢٧ ص ٢٣٨ »
 عزل يزيد الاول النعمان بن بشير لتهاونه وحبه العافية وعدم فتكه
 بالتأمرين وولى مكانه عبيد الله بن زياد باشارة سرجون مولاة . وكان عبيد الله
 والياً للبصرة اذ ذاك فضمت الحكومة اليه المصريين . وفوضت اليه السلطة

الواسعة وطلبت منه استعمال الشدة واتهام الناس على الظئنة واعدام من يرى
في قلبه ضعفاً في طاعة الخليفة او الاشتراك في التدبير على المركزية الاموية
وبعبارة ثنائية فقد خولته سلامة الحياكم المطلق او الديكتاتور في العراق

• Dictator

واني لأميل الى الاعتقاد ان عبيد الله بن زياد نجح في مهمته وقضى
على اركان الحزب العلوي لسبعين رئيسيين : الاول اتباعه سياسة الشدة
والارهاب والاعدام لمجرد الظن والتهمة اعلان الاحكام العرفية من اقصى
البصرة الى اقصى الكوفة واعتماده على القساة في تنفيذ خطته وانتهازه
القرص دون تردد ومراوغة ، فثبت دعائم الخلافة الاموية بعد ان كادت تميد
في ارض العراق . ثم انه احسن كل الاحسان الى مريديه واتباعه فجعل منهم السنة
شكر تسبح بحمده ، واولى من اطاعه نعمة الأمان على نفسه واهله ومقتنياته
وأساء كل الأساءة الى عشائر الذين يرون خذل الامويين ووجوب التخلص
منهم مبدأ قوياً فاستقامت له الامور واستقرت الاحوال ولنا من بعض فقرات
تلاها في خطبه في البصرة والكوفة ما يؤيد دغوانا وهالك اهمها :

قل في المسجد الجامع في البصرة • . . يا أهل البصرة ، اياكم والخلاف
والارجاف فوالله الذي لا اله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خالف او ارجف

لا تقتله ووليه ولا خذن الادنى بالاقصى والبري بالسقيم حتى تستقيموا وقد

اعذر من انذر الدينوري ص ٢٤٦ »

وقال في الكوفة « . . يا أهل الكوفة ان امير المؤمنين قد ولاني مصركم وقسم فينكم وأمرني بانصاف مظلومكم والاحسان الى سامعكم ومطيعكم والشدة على عاصيكم ومريبكم وانا منته في ذلك الى امره وانا لمطيعكم كالوالد الشفيق ، ولخالقكم كالسم النقيع ، فلا يبقين أحد منكم

الا على نفسه . الدينوري ص ٢٤٧ »

وقال في الكوفة ايضاً « . . ان امير المؤمنين أصلحه الله ، ولاني نغركم ومصركم وأمرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم وانا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فانما لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر وسوطي وسيفي على من ترك امري وخالف . فليبق امرؤ على نفسه ، الصديق يني عنك لا الوعيد » ووجه خطابه الى عرفاء الناس فاستطرد قائلاً « استتبوا لي الغرباء ومن فيكم من طلبه امير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية واهل الزيب الذين رأيهم اختلاف والشقاق فمن كتبهم لنا فبرئ ومن لم يكتب لنا احداً فيضمن لنا ما في عرافته ان لا يخالفنا منهم مخالف ولا ييني علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت

منه الذمة وحلال لنا ماله وسفك دمه ، وإما عريف وجد في عرافته من
 بغية امير المؤمنين احد لم يرفعه الينا صلب على باب داره وألغيت تلك العرافة
 من العطاء وسير الى موضع بعان الزاره (الزاره في البحرين وهو منفى)
 الطبري ص ٢٤٢ / S 2 V « .

بطش عبيد الله بن زياد في الكوفيين بطش الأسد بفريسته بعد أن
 صدرت اليه ارادة يزيد العليا في دمشق بأن لا يكف عن محبذي روح الثورة
والقوضى ابداً وان يطلب مسلم بن عتيل طلب الخرزة حتى يظفر به فيقتله
 او ينفيه لأنه داعية الحسين الأشد (الدينوري ص ٢٤٥) ثم قضى قضاء
 مبرما حينما بلغه ان في نية الحسين القدوم الى العراق ان يضع ابن زياد
 « المناظر والمسالخ وان يحترس على الظن ويأخذ على التهمة وان لا يتقاتل
 إلا من قاتله الطبري / S 2 V ٣٧١ »

واما السبب الثاني الذي يهد السبيل لنجاح ابن زياد في العراق فهو
 بذله الاموال للأشراف من اهل الكوفة اتقسيمهم — ومعظمهم قد تعاقدوا
 واقسموا الايمان المغلظة على نصرة الحسين بن علي — فاستمال ودهم واستخلص
 نصيحتهم واستولى على قلوبهم فصارت سيوفهم تضرب في جانبه بعد أن
 كانت مشهورة عليه . ولما أحرق الخطر بعبيد الله وحاصره الكوفيون بقيادة

مسلم — كما سيأتي معنا — كان أشراف الكوفة هم المساعد القوي في تشتيت
 شملهم واللسان البليغ في تقريوق جمعهم فقال كثير بن شهاب في الناس
 « ايها الناس الحقوا بأهلكم ولا تعجلوا الشر ولا تعرضوا انفسكم للقتل فان
 هذه جنود امير المؤمنين يزيد قد اقبلت ، وقد اعطى الله الأمير حرباً لن
 اتمتم على حربها ولم تنصرفوا من عشيتكم ان يحرم ذريتكم العطاء ويفرق
 مقاتلتكم في مغازي اهل الشام عن غير طمع ، وان يأخذ البرى بالسقيم ،
 والشاهد بالغائب حتى لا يبقى له فيكم بقية من اهل المعصية الا اذاقها وبال
 ماجرت ايديها الطبري ٧١ ٨٢ ٢٥٨ »

وقال غيره من الأشراف « يا أهل الكوفة اتقوا الله ولا تستعجلوا الفتنة
 ولا تشقوا عصا هذه الامة ، ولا توردوا على انفسكم خيول الشام فقد ذقتموهم
 وجربتم شوكتهم . . . وكان الرجل من اهل الكوفة يأتي ابنه واخاه وابن
 عمه فيقول انصرف فان الناس يكفونك وتجي المرأة الى ابنها وزوجها
 واخيها فتتعلق به حتى يرجع ، فعلى مسلم العشاء في المسجد وما معه الا زهاء
 ثلاثين رجلاً الدينوري ص ٢٥٢ — ٢٥٣ »

والفرزدق الشاعر شهادة في الكوفيين تؤيد لنا طمع الاشراف بالدرهم
 وعبادتهم للدينار واهتمامهم بمصالحهم قبل غيرها ، فسأله الحسين عن اموال

الناس في الكوفة فاجاب « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء الطبري 1 V 2 S ص ٢٧٧ ، الدينوري ص ٢٥٨ ، »

والخلاصة ان الجماعات التي اقامت النكير على بني أمية وراسلت الحسين وأكدت له اخلاصها وذرفت امام مسلم اعز دموعها هي الجماعات التي ابتاعها عبيد الله بالدرهم والدينار .

قدم مسلم الى الكوفة وامامه عدو ذو بأس شديد وحيلة واسعة فلا بد له اذن من تجنبه والدعوة سراً كي لا يفسد عليه أمره فتتشل مساعيه وتذهب ادراج الرياح . فالتجأ الى دار احد زعماء الشيعة المعروفين وهو هاني بن عروة المرادي . فبث ابن زياد العيون لمعرفة مقر مسلم واستطلاع اخبار الجماعات الذين تابعوه ليقبض عليهم فيروي لنا الطبري انه « دعا مولى له فأعطاه ثلاثة آلاف ، قال له اذهب حتى تستل عن الرجل الذي يبايع له اهل الكوفة فأعلمه انك رجل من اهل حمص جئت لهذا الامر ، وهذا مال تدفعه اليه ليتقوى فلم يزل يتلطف ويرفق به حتى دُل على شيخ من اهل الكوفة يلي البيعة فلقيه فاخبره فادخله اليه فاخذ منه المال وبايعه ورجع الى عبيد الله فاخبره الطبري 1 V 2 S ص ٢٢٩ »

فطلب ابن زياد من هاني تسليم مسلم فابى عملاً بجرمة الشهامة العربية واعتذر قائلاً (ما دعوته الي منزلي ولكنّه جاء فطرح نفسه علي) فشدد عليه وهدده فاجابه (أنا ادفع جاري وضيئي وانا حي صحيح اسمع وارى شديد الساعد كثير الاعران ٠٠٠٠ والله لو لم اكن الا واحداً ليس لي ناصر لم ارفعه حتى اموت دونه ص ٢٥٢ ٠٠٠٠ والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه الطبري ص ٢٣٠ / ٧٢٥) فأمر به فحبس في جانب القصر .

تألم مسلم تألماً عميقاً لهذه المعاملة وتأثر تأثراً بليغاً فاندفع مع اصحابه ويقدمون باربعة آلاف ونادى بشعاره وقدّم مقدمته وعبىء ميمنته وميسرته وسار في القلب وهاجم قصر عبيد الله بن زياد فكاد ينتصر لولا اشراف الكوفة الذين غرهم المال فأخذوا يرمونهم تارة ويمنونهم الخير تارة اخرى الى ان تسلل عنه جنده وظل شريداً طريداً لا مأوى يأوى اليه ولا قلب يعطف عليه سوى قلب امرأة عجوز فادخلته الى دارها لكن ابناً لها وشى به فاحاطت الشرطة البيت وقبضت عليه بعد ان اعمل فيها سيفه ودافع دفاعاً مجيداً . اما وقد وقع مسلم وهاني في قبضة عبيد الله فما كان منه الا ان امر باعدامهما فأصعد مسلم الى اعلى القصر حيث ضربت عنقه والقيت جثته الى الناس واخذ هاني الى سوق الكوفة فصلب فيه . وهكذا ختم الفصل الاول من هذه المأساة .

فرثاها الشعراء ، وابلغنا قرأت الايات المنسوبة الى عبد الرحمن بن الزبير وهي :

فان كنت لا تدري ما الموت فانظري * الى هاني في السرق وابن عقيل
الى بطل قد هشم السيف أنفه * واخر هوى من طمار قتيل
اصابهما ريب الزمان فاصبحا * احاديث من يسمي بكل سبيل
تري جسداً قد غير الموت لونه * ونضخ دم قد سال كل مسيل
(الدينوري ص ٢٤٥) الطبري ٤٢٧ ص ٢٦٩ - ٢٧٠

وثق مسلم كل الوثوق قبيل مقتله من الحزب العلوي في الكوفة اذ بايعه حسبما يروي لنا المؤرخون بين الاثني عشر الفا والثمانية عشر الفا فكتب الى الحسين يستحثه على القدوم وتلخص رسالته كما يلي (٠٠٠ اما بعد فان الرائد لا يكذب اهله ، وقد بايعني من اهل الكوفة ثمانية عشر الفا فعجل حين يأتيك كتابي فان الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى ٠٠٠
الطبري ٤٢٧ ص ١٦٤) فتحرك الحسين الى العراق ومعه خمسة واربعون فارساً ومائة راجل فنزل كربلاء فوجه اليه ابن زياد عمر بن سعد بن ابي وقاص في اربعة آلاف فارس ليصده وليأخذ ليزيد منه البيعة ، وجعل ولاية الري والديلم جائزة له كيما لا يفتر عزمه ولا يتلصق في المسير اليه . واتبعه

بالحسين بن نعيم وشمر بن ذي الجوشن ليعتلبا على رأيه وعزيمته وليرى فيهما منافسين ينتظران الثوب الى مقامه ان هو أهمل ما و كل اليه.

أصر عمر بن سعد بن ابي وقاص على الحسين في البيعة ليزيد ، والنزول على حكم ابن زياد فاني فاشتعلت نار الواقعة بين الطرفين فلم يزل اصحاب الحسين يقتلون ويقتلون ويتنافسون في الذود عنه حتى فنوا عن بكرة ابيهم ولم يبق منهم احد . وبقي الحسين ينتظر منيته وكل يهاب قتل ابن بنت رسول الله الى ان اقدم شمر واحتز رأسه . ثم داست الخيل ظهره وصدره . والحقيقة التي لا غبار عليها ان اصحاب الحسين قاتلوا اعداءهم قتال المستميت و اظهروا من ضروب الشجاعة ما يفوق الوصف . وقد قتل من اصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلا سوى الجرحي .

اما الاسباب التي ادت الى سقوط الحسين فهي في عرفنا كالتالي :

السبب الاول : هو اعتماد الحسين اعتماداً كلياً على الكوفيين

الذين اثبت التاريخ ترددهم وشقاقهم وعيبتهم بحقوق ابيه واخيه من قبله . وعدم استعدادهم الاستعداد الحربي الكافي لطرد الجيش الاموي القليل العدد من العراق . فهم من الجماعات الذين يتهاونون في الحب والاخلاص . - ولكن عن بعد وفي عالم النظريات - فلا يبذلون درهما واحداً في تهمة

خطة منظمة يسIRON بحسبها ويحبدون في تحقيتها . وكل مالديهم من السلاح
 خطب حماسية وكلام جذاب ودموع سخية يذرفونها حينما يذكرون آلامهم
 وبؤسهم وظلامتهم . ولنا من نصائح المخلصين للحسين أكبر دليل على
 ماقدمناه . قال احد اعمامه ينصحه : (اني انشدك الله لما انصرف فوالله
 لا تتقدم الا على الاسنة وحد السيوف فان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا
 كفوك ومؤنة القتال ووطئوا لك الاشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً ، الطبري
 (S 2 V ١ ص ٢٩٤)

وقال عبدالله بن مطيع : (اذا اتيت مكة فاياك ان تقرب الكوفة فانها بلدة
 مشنومة بها قتل أبوك وخذل اخوك واعتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه فانك
 سيد العرب لا يعذل بك والله أهل الحجاز احداً ، ويتداعى اليك الناس من
 كل جانب . لا تقارق الحرم فذاك عمي وخالي فوالله ان هلكت لنسترقن
 بعدك الطبري (S 2 V ١ ص ٢٣٢ ، الدينوري ص ٢٤٢)

وقال عبدالله بن عباس وهو يؤكّد تنفذ الامويين في العراق وضعف
 أخلاق الكوفيين ويستشهد التاريخ على ذلك « أرجف الناس انك سائر
 الى العراق فين لي ما أنت صانع .. أسير الى قوم قد قتلوا اميرهم وضبطوا
 بلادهم وقوا عدوهم ، فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ، وان كانوا انما دعوك

اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانهم انما دعوك الى الحرب
والقتال ولا آمن عليك ان بغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك وان يستنفروا
إليك فيكونوا اشد الناس عليك، الطبري / S 2 V ص ٢٧٤ «

ولأبن عباس ايضاً في نصيحة الحسين « اني اتخوف عليك في هذا الوجه
الهلاك والاستئصال . ان اهل . . . قوم غدر فلا تقر بهم . اقم بهذا البلد
فانك سيد اهل الحجاز . فان كان . . . يريدونك فاكتب لهم فلينفوا عدوهم ،
الطبري / S 2 V ص ٢٧٤ - ٢٧٥ «

وقال ابو سعيد الخدري يرجو الحسين ان لا يستسلم لأهل الكوفة :
« يا أبا عبدالله . اني لكم ناصح واني عليكم مشفق ، وقد بلغني أنه يكتبكم
قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك الى الخروج اليهم فلا تخرج فاني سمعت
أباك بالكوفة يقول : والله لقد مللتهم وأبغضتهم وملوني وأبغضوني ، وما
بلوت منهم وفاء ، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيبي ، والله ما لهم ثبات ولا
عزم على امر ولا صبر على السيف ، ابن عساکرج ٤ ص ٣٢٧ «

ويظهر ان لمعاوية رأى الجماعات الذين تقدمت اراؤهم في أهل الكوفة فعرف
تخاذلهم واتقسام بعضهم على بعض فقال ليزيد حين اوصاه : (انظر الى حسين
ابن علي بن فاطمة بنت رسول الله فانه أحب الناس الى الناس فصل رحمه

وارفق به يصلح لك امره ، فان يكُ منه شيء فاني ارجو ان يكفيه الله بمن
قتل أباه وخذل أخاه (يعني بهم اهل الكوفة) (ج ٤ ص ٣٢٧ ابن عساكر)
السبب الثاني : هو عدم اهتمام الحسين الاهتمام الكلي في تنظيم دعوته

Tropagonia ونشرها بين الناس فظن ان القوم سيقدمون على بيعته
ويتهاككون في نصرته لانتسابه الى رسول الله . وقد فاتته ان الحياة جهاد
والقوي القوي فيها هو السباق الى اكتساب ولاء الناس اما ببذل الاموال
لهم واشراكهم في بعض المطامع الدنيوية ، واما باسناد المناصب العالية لأشرافهم
وزعمائهم كما فعل الامويون وقد نبهه أخوه محمد بن الحنفية فأوصاه بقوله :
« تنحّ بتبعتك عن يزيد بن معاوية وعن الامصار ما استطعت ثم ابعث
رسلك الى الناس فادعهم الى نفسك فان بايعوا لك حمدت الله على ذلك .
وان اجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا يذهب
به مروءتك ولا فضلك . اني أخاف ان تدخل مصرًا من هذه الامصار وتأتي
جماعة من الناس فيختلفون بينهم فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فتكون
لأول الاسنة ، فاذا خیر هذه الامة كلها نفساً وأباً وأماً أضيعها دماً واذلها
اهلاً . فانزل مكة فان اطمانت بك الدار فسبيل ذلك ، وان نبت بك لحقت
بالرمال وشعب الجبال وخرجت من بلدٍ الى بلدٍ حتى تنظر الى ما يصير امر

الناس ، وتعرف عند ذلك الرأي فانك أصوب ما يكون رأياً واحزمه عملاً
حتى تستقبل الامور استقبالاً ، ولا تكون الامور عليك أبداً اشكل منها حين
تستدبرها استدباراً ، الطبري S 2V ص ٢٢٠ - ٢٢١ »

ونوّه عبدالرحمن بن الحارث بن هشام الى اهمية الدرهم والدينار وتأثيرها
في النفوس فقال للحسين : (قد بلغني انك تريد المسير الى العراق ، واني
مشفق عليك من مسيرك . انك تأتي بلداً فيه عماله وامراؤه ومعهم بيوت
الاموال وانما الناس عبيدٌ لهذا الدرهم والدينار ولا آمن عليك أن يقاتلك
من وعدك نصره ومن أنت احب اليه ممن يقاتلك معه ، الطبري ص ٢٧٣
(S 2V)

السبب الثالث : هو تخلي الحسين عن اليمن والحجاز وبهما انصاره
الحقيقيون وشيعة أبيه القوية المخلصه . وامتازت اليمن ببعدها عن مركز الخلافة
ومناعة حصونها وكثرة شعابها فكان بوسع الحسين ان يبتدع دعاته في الاقطار
وهو آمن مطمئن فان فشل في حملته الاولى تلافي اغلاطه في الحملة الثانية
وهكذا كان به مكانه المطاوله ولديه الوقت الكافي لاثارة الخواطر ضد المغتصبين
فذكر له ذلك ابن عباس فقال : « ٠٠٠ » فان ابيت الا ان تخرج فسر الى اليمن
فان بها حصوناً وشعاباً وهي ارضٌ عريضة طويلة ولا يبك بها شيعة وانت

عن الناس في عزلة فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعائك فاني ارجو ان
يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية ، الطبري ٢٧١ ص ٢٨٥ ،
الدينوري ٢٥٧ « .

السبب الرابع : هو تشجيع ابن الزبير للحسين من طرف خفي على الرحيل
الى العراق كما يتحلض منه فانه استهوى الحجازيين وتمسكت محبته من
قلوبهم فما عادوا ليهتموا بابن الزبير أو يجتمعوا حوله ويستمعوا له والبرهان على
ذلك انه لما نزل الحسين الى مكة أقبل أهلها يختلفون اليه مع جميع المعتمرين
والحجاج من أهل الافاق ، فلم حق العلم ان الحجازيين لا يبايعونه ولا يتابعونه
في طلبه للخلافة والجهاد من أجلها مادام الحسين زعيما في البلد الحرام . فكان
يرسل رسله له ليقنعه بان الكوفيين هم مادة حزبه ونسيج قوته ويظهر ان
هذه الدعوى كان لها اثرها في نفس الحسين . ولطالما نشط ابن الزبير لئلا
يظهر بمظهر الخلد له خيفة ان يتهمه بالنفاق وخشية ان يفسد عليه تدابير
فصرح له مرة : (اما لو كان لي بها (العراق) مثل شيعتك ماعدت بها ...
اما انك لو اقلت بالحجاز ثم اردت هذا الامر هنا ماخولف عليك ان شاء الله
الطبري ص ٢٧٤ ٢٧٥)

وقل له ايضاً : (لو اقلت بهذا الحرم وبثت رسلك في البلاد وكتبت

الى شيعتك بالعراق ان يقدموا عليك فاذا قوي امرك نقيت عمال يزيد عن هذا البلد ، وعليّ لك المسكينة والموازنة ، وان عملت بمشورتي طلبت هذا الأمر بهذا الحرم فانه يجمع أهل الافق ومورد أهل الاقطار ولم يُعِدْكُمْ باذن الله ادراك ماتريد ورجوت ان تناله الدينوري ص ٢٥٦ - ٢٥٧)

وكان المسور بن مخزومة يحذر الحسين من ابن الزبير ودعواه في تقاني الكوفيين في محبته فقال له: (اياك ان تغتر بكتب أهل العراق ويقول ابن الزبير لك الحق بهم فانهم ناصروك . اياك ان تبرح الحرم ، فانهم ان كانت لهم بك حاجة فيسيضرون آباط الابل حتى يوافوك فتخرج في قوة وعدة ، ابن عساكر ج ٤ ص ٣٢٩)

ولما ازمع الحسين على مبارحة الحجاز الى الكوفة تألم ابن عباس ، ذلك الدماغ المفكر وأنشد ابن الزبير الايات المشهورة الآتية:

يالك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فيضي واصفري

وتتري ماشئت ان تنقري « الطبري

٢٧٥ ص ٢٧٥

السبب الخامس : هو يقظة الامويين وارسلهم الاشداء من ولايتهم الى المصريين فسد ابن زياد دون الحسين وشيعته المذاهب فنع الناس من الدخول

الى الحدود العراقية او الخروج منها الا باذن خاص واحتل احتلالاً عسكرياً
« ما بين واقصة الى طريق الشام وطريق البصرة » فضمن معرفة الصادر
والوارد من الدعاة معرفة طيبة . ووجه ابن زياد الجموع الكثيرة لقتال الحسين
وكان يحكم بالموت على كل من يتخلف أو يرتدع عن خوض المعركة فخافه
الناس وجهاز لنزاله نحواً من اربعة آلاف، بينما جنود الحسين وهم اهلهم واصدقاؤه
- لا يتجاوزون المائة فتأمل النسبة بين العديدين . فهي كنسبة واحد الى اربعين
على وجه التقريب « الطبري ص ٢٨٥ / ٢٧٢ S »

السبب السادس : هو استيلاء الجيوش الاموية على القرات ومواضع الماء
في كربلاء فمنعوا انصار الحسين من الدنو منها فكادوا يهلكون عطشاً . وكانت
وامر ابن زياد شديدة بهذا الخصوص فطلب الى عمر بن سعد « ان امنع
الحسين واصحابه من الماء فلا ينوقوا منه حثوة » فبعث خمسمائة فارس نزلوا
على الشريعة وحالوا بين الحسين واصحابه وبين الماء . فيستنتج من ذلك
ان الموقع الحربي كان في قبضة الامويين دون العلويين وانه لابد للحسين من
المحجم اذا اراد الوصول الى الماء . وهذا يعني ضرورة التضحية ، وانت تعلم
قلة عدد جنوده وبؤسهم بعد رحلتهم الطويلة من الحجاز الى العراق . « الدينوري
ص ٢٦٦ الطبري ص ٣١٢ / ٢٧٢ S »

السبب السابع : هو ارتباب الحسين في حقه بالخلافة واعترافه اعترافاً صريحاً

ليزيد بامارة المؤمنين . وقوله لعمر بن سعد وشمز بن ذي الجوشن والحسين بن نمير انه مستعد لمساعدة يزيد في دمشق فيروي لنا الطبري : « لقي الحسين الخيول بكر بلاء فنزل فنشأدهم الله والاسلام وكان بعث « ابن زياد » اليه عمر بن سعد وشمز بن ذي الجوشن وحسين بن نمير فنشأدهم الحسين الله والاسلام ان يسيره الى امير المؤمنين فيضع يده في يده فقالوا لا ، الا على حكم ابن زياد . الطبري 27/ ص 285 - 286) .

كل ما اوردناه لك من الاسباب قضى على سقوط الحسين فكان مقتله يدعو الى التألم لمصابه خصوصاً حينما ناشد قادة ابن زياد (الله والاسلام) ان يسيره الى يزيد قريبه ونسيبه ونده بدلا من اجباره على السير الى رجل لا يعترف له بحكم وهو دونه بمراحل في الشرف والنبيل . وتميل الناس بطبعها الى نصرة الضعيف لا سيما اذا كان لهذا الضعيف صلة برسول الله كصلة الحسين بجده المصطفى . وحمل رأس الحسين الى ابن زياد فنصبه في الكوفة وطاف به في الاسواق وأرسله حالاً الى يزيد في الشام . فيروي لنا الكثيرون من المؤرخين انه بكى لمرآه وقال (ويحكم قد كينت ارضي من طاعتكم بدون قتل الحسين . لعن الله ابن مرجانة - ابن زياد - ، اما والله لو كنت صاحبه لعفوت

عنه . رحم الله ابا عبدالله . ابن قتيبة ج ٢ - ص ١٠ - ١١ ، الدينوري
ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

ولم يتأخر ابن زياد عن احترام نساء الحسين فأجرى عليهن الرزق وأمر
لهن بالنفقة والكسوة وبعثن إلى دمشق فدخلن البلاط الاموي وبنات
اعمامهن الامويات تستقبلهن باكيات فأنحلت على صريع كروبلاء . واقمن
عليه المناحة والحداد ثلاثاً .

لا شك ان يزيداً لم يفكر البتة بقتل الحسين ولم يأمل ان تتطور المسئلة
العلوية فتلعب هذا الدور المهيّب ، ويقدم ابن زياد على الفتك به . لكنه
خضع للنتائج التي لم يحسب لها مثل هذا الحساب فاستشهد قائلاً لما وضع
رأس الحسين بين يديه :

يفلقن هاماً من رجال اعزة علينا وهم كانوا اعق وأظلم

« الطبري ص ٢٨٢ S 2 V1 » .

ومهما تحامل المتطرفون من المؤرخين على يزيد بقولهم انه أساء معاملة
آل الحسين فلنا من شهادة السيدة سكينة ابنته ما يرد عليهم قولهم ويخفف
من غلوائهم فقد قالت فيه : « مارأيت رجلاً كافراً بالله خيراً من يزيد بن معاوية
الطبري S 2 V1 ص ٣٨١ » فانه كسأهم واوصى بهم وخرج معهم رسوله
إلى المدينة مقرأً سكتهم .

بكى المسلمون الحسين ولا يزالون يتألمون لفاجعته . وتعقد الشيعة في العاشر من محرم (ذكرى مقتله الواقع في ١٠ محرم سنة ٦١ هـ ٦٨٠ م) الاجتماعات المؤثرة فتراهم يضربون صدورهم بأيديهم ويشجون رؤوسهم بالحديد فيهلك بعضهم ولعل العلم يصددهم في المستقبل عن مثل هذه العادة فيحولون مجرى أحزانهم إلى فعل الخير والاحسان وبث الفضيلة بين أبنائهم وبناتهم . وابلغ ما قرأت من المراثي في الحسين مراثاة لزينب ابنة فاطمة اخته حين مرت به صريعاً فنادت : « يا محمداه ، يا محمداه ، صلي عليك ملائكة السماء ، هذا حسين بالعرا مرمل بالدماء مقطوع الاعضاء ، يا محمداه وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا ص ٣٨٠ الطبري ٧/ ٢٤٩ » وبكته زوجته عائكة بنت زيد بقولها :

وحسيناً فلا نسيت حسيناً أقصده أسنة الاعداء
غادروه بكر بلاء صريعاً لاسقى الغيث بعده كربلاء
« معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٠ »

ولا يتوهم بعض القراء ان العداء الشخصي كان متأصلاً بين يزيد والحسين

كما يدعي البعض ، فوفد الأخير على معاوية ، وكان جندياً في الجيش الذي توحه

لغزو القسطنطينية بأمر يزيد .

هذا ما نظنه الحقيقة من أمر هذه المسألة ولا تغرنك التهاويل والمبالغات
التي يدعى بها البعض فهي خلو من البراهين الثابتة .



الفصل الثالث

الحركة النيبيرية

الاسباب التي ساعدت ابن الزبير على النجاح: (١) فاجعة كربلاء ومقتل الحسين، (٢) الصعابة لانتزاع ابن الزبير، عبد الله بن عمر يسمى المسوس، (٣) ضعف الحامية الاموية وتعدد الولاة في الحجاز (٤) فقر الحجازيين واغتناب الامويين لاهل الكرم واراضيهم، معاوية يسمى موضعهم لهم، يزيد بن عمر لهم بغطايا، ثورة المدينة، همة مسلم بن عقبة المري، استعراضي الجيوش الاموية في الشام قبل خروجها لوضع ثورة المدينة، معركة الحرة، براعة مسلم النيبيرية، وفاة مسلم، الحصبين بن نمر، هرق الكعبة، من المسئول عن هرق الكعبة، وفاة يزيد الاول، مؤتمر الوبطح، (٥) تحالف الامويين من اجل العرش، معاوية الثاني، معاوية الثاني ضعيف، قرري، الاغزاب النيبيرية، تنسبط في الشام، مؤتمر الجابية. سرداه بن الحكم الخليفة في دمشق، اسباب انتخابه من قبل بن نمر وعاصم الحارثي، معركة مرج راهط.

انكسار ابن الزبير في فلسطين، مروان بن معاوية، مقتل مروان بن الحكم.
 (٦) الحركة الثوابة، حزب الثوابين في الكوفة يطلب الثأر للحسين بن
 علي، اجتماع الثوابين في دار سليمان بن مرد في الكوفة، خطبهم،
 اسباب نجاحهم، اسباب اخذهم، معركة عين الورد، انكسار الثوابين،
 وصايا سليمان بن مرد للثوابين قبل نشوب المعركة (٧) الازرق في الخوارج
 بساعدون بن الزبير، مبادئ الازرق في الازرق في الاهواز والبصرة، ابن
 الزبير يقاتلهم في مبادئهم، يتخلون عنه، الهارب بن ابي صفرة يقاتلهم
 يتخلون عنه ابن الزبير في الساعة العراقية: الفارسية (٨) الحركة الثوابة تنشط
 ابن الزبير، مطامع المختار السياسية، حياة المختار السياسية، اسباب نجاحه في
 حورث، الاغموط التي ركبها المختار رادت الى سقوطه، معركة بنات نلى
 ومعركة الخازر، انتصار مختار على الامويين، المختار وابن الزبير،
 معركة الخزاز ومعركة هروان، المختار يحاصر في قصره اربعة اشهر.
 مصعب بن الزبير بنقاب عليه.



كان للزعماء من الصحابة مطامع سياسية عظيمة فعمل اكابرهم على بذل الاموال والارواح في سبيل الوصول اليها . ولم يتوان ابن الزبير في السعي وراء تسنم عرش الخلافة خصوصاً بعد وفاة معاوية بن ابي سفيان . لكن أنى له النجاح وقد تطلب الزعامة ابن بنت الرسول والتف الناس حوله في الحجاز . اما الاسباب التي جعلته يلعب دوراً كبيراً في التاريخ الاموي ويظهر بمظهر الزعيم القوي الشكيمة فهي كما يأتي :

السبب الاول : فاجعة كربلاء ومقتل الحسين : أعلن عبد الله بن الزبير دعوته للناس وحقه في الخلافة بعد مقتل الحسين . وكان قبلاً لايجزأ على التصريح بطالبها . فاستفاد من فاجعة كربلاء واخذ يحمل الحملات الخطائية الواحدة اثر الاخرى ضد بني امية ، فعرض بنزيد ووصف استهتاره وتمتعه بملاذ الحياة الدنيا . ثم رجع فبكى حسيناً واستبكى الناس عليه . وعدد مزاياه الشريفة فذكر ورعه وتقاه وشجاعته وفضله واحسانه . ولام اهل الكوفة وعاب عليهم غدرهم بالحسين ورياءهم ومحاسنهم القارغ من اجل قضيته فآثر على الحجازيين خاصة وعلى الاحزاب المعارضة الغاضبة عامة ، فالتفوا حوله ورأوا به الزعيم القادر على ان يثار لدم الزكي المسفوك ظمأ وعدواناً . فانت ترى ان الرجل الذي كان يشجع الحسين على الرحيل الى العراق ويمدح السكوفيين ويرفع ذكركم هو

نفس الرجل الذي كان يقف يومذاك على منابر مكة ليعرض بهم ويغمز من قناتهم .
وقد اثبت التاريخ لنا ايضاً ان ابن الزبير كان يكره الحسين و يضمر له العدا
ويراه « اثقل خلق الله ، الطبري / 2V ص ٢٣٣ » فتجول كرهه
للحسين الى حبه بعد وفاته ، ومدحجه لـ الكوفيين الى ذمهم بعد خيانتهم . وكل
هذا في سبيل تنفيذ ما ربه السياسية واليك البرهان على صحة دعوانا فقام
يخطب في مكة بعد سماعه بمقتله :

(أبعد الحسين نظمتن الى هؤلاء القوم ونصدق قولهم وتقبل لهم عهداً ،
الا ولا نراه لذلك اهلاً . اما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيراً
في النهار صيامه ، أحق بما هو فيه منهم وأولى به في الدين والفضل . أما
والله ما كان يبذل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الخداء ، ولا بالصيام
شرب الحرام ، ولا بالمجالس في خلق الذكر الركض في تطلاب الصيد) يعرض
يزيد) ، فسوف يلتون غياً ، الطبري / 2V ص ٣٨٦)

السبب الثاني : الصحابة لا تنازع ابن الزبير :

خلا الجولان ابن الزبير بعد مقتل الحسين فلم ينازعه منازع من الصحابة
ولا ابناء الصحابة . وقد كنا نأمل ان يقوم عبد الله بن عمر ويدعي الخلافة
لنفسه فلم يفعل حباً بالسلام واتقاء للفتنة وحققا لدماء المسلمين . ولا ريب ان

عبد الله كان يحن الى التربع في دستها لكنه فضل العافية والسلامة على القتال والهلاك، وسعى سعيًا حثيثًا ليحمل ابن الزبير والحسين على جمع كلمة الامة بدلا من تفرقتها. وطلب اليهما مبايعة يزيد الاول فأبيا. ويذكر الطبري انه خاطبهما بقوله (اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين . . . وأقام اياماً فانتظر حتى جاءت البيعة من البلدان فتقدم الى الوليد بن عتبة فبايعه الطبري ص ٢١٣ ٧١ هـ ٢٩).

وقد تألم لمقتل الحسين فنوه حينما رآه وترحم عليه بما صرح به مراراً من وجوب الاتحاد والتعاقد والانتصار لرأي الجماعة فقال : (غلبنا الحسين على الخروج ، ولعمري لقد رأى في ابيه واخيه عبرة ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغي له ان لا يتحرك ماعاش وان يدخل في صالح ما دخل فيه الناس فان الجماعة خير، ابن عساكر ج ٤ ص ٢٢٨)

السبب الثالث : ضعف الحامية الاموية وتعدد الولاة في الحجاز :

وساعد بن الزبير على نشر دعوته ضعف الحامية الاموية في الحجاز . وتعدد الولاة الذين تقلبوا في ادارته لأمد قصير . فلم يتيح لهم الحظ درس الاحوال الحجازية درساً دقيقاً . وكان بعضهم ضعفاء الارادة لم يجربهم الدهر ولم تحنكهم الايام فارتكبوا اغلاطاً فادحة كبدت الامويين كثيراً من الدماء . نستنتج هذا من دفاع عمرو بن سعيد امير الحجاز عن نفسه يوم اتهم بسوء

الادارة ، قال : « ان جل اهل مكة واهل المدينة قد كانوا مالوا اليه ابن الزبير وحووه واعطوه الرضا ودعا بعضهم بعضاً سراً وعلانية ، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته . وقد كان يحذرنى ويتحززون منى . وكنت ارفق به واداريه لاستمكر منه فأثب عليه . مع اني قد ضيقت عليه ومنعته فى امهيا . كثيرة لو تركته واياها ما كانت له الامعونة ، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون احداً يدخلها حتى يكتبوا الى باسمه واسم ابيه ومن اى بلاد الله هو ، وما جاء به وما يريد ، فان كان من اصحابه او ممن ارى انه يريد ردده صاغراً . وان كان ممن لا اثم اخليت مبيله ، الطبري ٢٧ ص ٤٠١)

ويصف الطبري احد الولاة وهو عثمان بن محمد بن ابي سفيان بقوله : « فقدم ففى غر حدث غمر لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولم تضره التجارب وكان لا يكاد ينظر فى شى من سلطانة ولا عمله ، الطبري ٢٧ ص ٤٠٢ ،

الباب الرابع : فقر الحجازيين . واغتصاب الامويين لأملا كههم وارضيتهم :

لاريب ان لاقتصاديات الامة الشأن الاكبر فى مجاري حياتها السياسية فان كانت المشاريع التجارية والزراعية والمعدنية وغيرها سائرة سيراً حسناً بضمن لأهلها ربحاً جزى لا تظل تلك الامة ناعمة البال قريرة العين لا تفكر فى الثورة ولا فى العصيان . ولو درسنا طبيعة الوسط الحجازي لوحدناها فقيرة قاحلة

الا فيما ينتجه نخيلها من التمور التي يصدر منها للخارج فيعيشون عليها . وكان معاوية يسعى لأضعاف الحجاز وتقوية الشام فلم يبذل للحجازيين في العطاء فأجبروا على بيع املاكهم فاشتراها منهم بالبخس الاثمان . فلما قام ابن الزبير عاضوه آملين ان ينصفهم ويرد عليهم اموالهم واملاكهم . اما قلب الثورة الخلفاء وعصبيها النابض فسكانت المدينة ويقص علينا ابن قتيبة كيفية تألمهم من اغتصاب معاوية لاموالهم فيقول : « . . . وأقبل ابن ميثاء - قيم املاك معاوية - بسراح له من الحجرة يريد الاموال التي كانت لمعاوية فمنع منها وازاحه اهل المدينة عنها ، وكانت اموالاً اكتسبها معاوية ونخيلاً يجمع منها مائة الف وسقي وستين الفاً . ودخل نقر من قريش والانصار على عثمان بن محمد - والي المدينة - فكاموه فيها فقالوا قد علمت ان هذه الاموال كلها لنا وان معاوية آثر علينا في عطائنا . ولم يعطنا قط ديهما فما فوقه حتى مضى الزمان ونازلتنا المجاعة فاشتراها منا بجزء من مائة من ثمنها فاغلظ لهم عثمان في القول واغلظوا له . فقال لهم لا كسبن الى امير المؤمنين بسوء رأيكم وما اثم عليه من كمون الاضغان القديمة والاحقاد التي لم تزل في صدوركم فافترقوا على موجدة . ثم اجتمع رأيهم على منع ابن ميثاء القيم عليها ، ابن قتيبة ج ١ ص ٣٢٥ »

اغتصب معاوية اهل المدينة وضيق على الحجازيين الخلفاء وضربهم

في صميم اقتصادياتهم كي لا تقوم لهم قائمة . اما يزيد فجزى على عكس سياسة
 ابيه فغمرهم بعطايه واكرم زعماءهم واحسن الى فقرائهم ووعدهم باجراء العطاء
 عليهم مضاعفاً ان هم اخلدوا الى السكينة وارتاحوا الى الحكم الاموي . ولم يكن
 لابن الزبير تجاه هذه المواعيد الا ان يسرف الاسراف الكبي في ذم يزيد
 وانتقاده الانتقاد المرير . ومع ان الخليفة في دمشق اكرم وفادة الوفود
 الحجازية فهو لم يظهر امامهم بمظهر الرجل المتحفظ في سلوكه الخاص وآدابه
 الشخصية فشرب الخمر وعزف بالطنابير وجالس القيان والفتيان وراح يلهو
 متنعماً لا يعبأ بالتقاليد التي سنّها القوم فغضبوا وقالوا هو ذا رجل يحطم تعاليمنا
 ويقوض اركان ديننا . وانتشرت الدعوة ضد الامويين المعتصبين لاموال
 الامة المعرضين عن الكتاب الكريم والسنة الشريفة والشرعية المطهرة
 السمحاء . وهاك الدليل على سياسة الكرم التي امتاز بها يزيد ، واستهتاره
 الذي وصفناه . قال ابن قتيبة : « فان أقروا بالطاعة ونزعوا من غيرهم فلهم علي
 عهد الله وميثاقه ان لهم عطاءين في كل عام ، مالا افعله بأحد من الناس طول
 حياتي ، عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف . ولههم علي عهد ان اجعل الحنطة
 عندهم كسعر الحنطة عندنا . . . والعطاء الذي يذكرون انه احتبس عنهم
 في زمان معاوية فهو علي ان اخرجهم وافراً كاملاً ابن قتيبة ج ١ ص ٣٢٦ » .

وروى الطبري : « قدم وفدٌ من اهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل
الانصاري ورجال كثير من اشراف المدينة على يزيد بن معاوية فاكرمهم واحسن
اليهم واعظم جوائزهم . فلما قدم اولئك نفر الوفد المدينة قاموا فيهم فاطهروا
شتم يزيدو قالوا انا قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب ويعزف بالطنابير
ويضرب عنده القيآن ويلعب بالكلاب ويسامر الخراب والفتيان واذا
نشهدكم انا قد خلعناه فتابعهم الناس ، الطبري / ٧ ص ٤٠٢ - ٤٠٣

ثار اهل المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة الغسيل ووثبوا على الامويين
واحزابهم فيها فاجبروا على الهرب والالتجاء الى دار مروان بن الحكم :
— في ظاهر المدينة — وهي حصينة متينة الاركان . واخذوا يرسلون الكتب
الى يزيد يسألونه بها المعونة والامداد . فمن رسائلهم اليه : (٠٠٠ اما بعد
فانا قد حصرنا في دار مروان بن الحكم ومنعنا العذب ورمينا بالحبوب فيها
غوثاه يا غوثاه الطبري / ٧ ص ٤٠٦ »

فجيز اليهم يزيد جيشاً قوياً بقيادة 'مسلم بن عتبة المري ويقول عنه
الفخري « انه احد جبابرة العرب وشياطينهم الفخري ص ١٠٨ — ١٠٩ .
واستماتت الحكومة الناس لقتال الحجازيين بما وهبته لهم من الاموال فنادى
مناديها في الشام : (سيروا الى الحجاز على أخذ اعطياتكم كلاً ومعونة مائة

دينار توضع في يد الرجل من ساعته فانتدب لذلك اثنا عشر الف رجل ،
الطبري ٢٧١ س (ص ٤٠٧ - ٤٠٨) ويقدر المؤرخون عدد هذا الجيش
بأثنى عشر ألفاً .

استمرض يزيد الاول الجيوش الأموية في دمشق قبيل خروجها لاختاد
الثورة في المدينة فأتى الى الخليل يتصفحها وينظر اليها وهو متقلد سيفاً ممتكب
قوساً عربية . واخذت القرق تمر امامه ومعها راياتها . وكان واقفاً على نشز
من الأرض يحيط به الحرس القربان ، (المسعودي ص ٣٠٤) . ولم يشأ
يزيد الا ان يودع جنده قبل مبارحتها العاصمة بكلمات حماسية فوجه خطابه
الى القائد العام وقال : « اذا قدمت الى المدينة فمن عاكك عن دخولها أو نصب
لك حرباً فالسيف السيف ، ولا تبقي عليهم وانتهبها ثلاثاً وأجز على جراحهم
واقتل مدبرهم وأنشأ يردد :

ابلق ابا بكر « يعني ابن الزبير » اذا الامر انبرى

وانحطت الرايات من وادي القرى

أجمع سكران من القوم ترى

ام جمع يتظان نفى عنه السكرى « المسعودي ص ٣٠٥ » ،

الطبري ٢٧١ س (ص ٤٠٦)

ويروي القفري انه استشهد بالبيت الآتي حينما بلغته ثورة المدينة :

لقد بدلوا الحلم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظه بليان

ص ١٠٨ - ١٠٩»

التقى الجيش الأموي بشوار المدينة في الحرّة وهو مكان بظاهر يثرب .
وقد استماتل انصار ابن الغسيل واستماتوا في الدفاع عن حصونهم واموالهم
واهلهم حتى كادوا يهزمون جيوش مسلم مراراً . فقام مسلم خطيباً يهز اوتار
قلوبهم ببلاغته ويحضهم على القتال واكتساب اجر الشهادة وجزاء امير المؤمنين .
والغريب انه كلما كانت تشد عليه خيول الاعداء تراه يغضب فتتردد على
لسانه كلمات الالهافة ايضاً شأن السكثريين من القواد العسكريين فهم
يتمدحون ويذمور في آن واحد . قال من خطاب له مرة : « يا اهل الشام انكم
لستم بافضل العرب في احسابها ولا انسابها ولا اكثرها عدداً ولا اوسعها
بلداً ، ولم يخضعكم الله بالذي خضعكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند
أئمتكم الا بظاعتكم واستقامتكم فتموا على احسن ما كنتم عليه يتم الله
لكم احسن ما ينيلكم من النصر . . . انكم اهل البصرة ودار الهجرة ،
والله ما اظن ربكم أصبح عن اهل بلد من بلدان المسلمين بأرضى منه
عنكم ان اسكل امري منكم ميتة هو ميت بها . والله ما من ميتة

بأفضل من مية الشهادة وقد ساقها اليكم فاعتموها، فوالله ما كل ما اردتموها
وجدتموها . الطبري S 2 V 1 ص ٤١٦ - ٤١٧ . وقال يؤنب
جيشه لما حمل عليه اهل المدينة حملات منكرة : « يا اهل الشام اهذا القتال
قتال قوم يريدون ان يدفعوا به عن دينهم ويعزوا به نصر امامهم ، ان قبح الله
قتالكم منذ اليوم ما اوجعه لقلبي وأغيطه لنفسي ، اما والله ما جزاؤكم عليه
الا ان تحرموا العطاء وان تجمروا في اقاصي الثغور . شدوا مع هذه الراية
ترح الله وجوهكم . . . الطبري S 2 V 1 ص ٤١٤ »

هزم مسلم الثوار واباح المدينة ثلاثاً فأرهب القوم وجعل الرعب يسود
في قلوبهم . وقد قتل نحو من سبعمائة رجل من المهاجرين والانصار وابنائهم
ومواليهم وخلفائهم . وعدد غير قليل من الاهلين بينهم النساء والاطفال ويقدره
بعضهم بعشرة آلاف (المسعودي ص ٣٠٥ - ٣٠٦) . وصالحهم على
انهم خول وقن ليزيد بن معاوية يحكم في دماهم واموالهم واهليهم ماشاء .
(المسعودي S 2 V 1 ص ٣٠٥ - ٣٠٦ الطبري ص ٤٢٣)

انتصر مسلم لبرايعته الخيرية فكان دائماً يسرع الى عدوه فيفاجئه
ويضربه في قلبه قبل ان يمكنه من الاستعداد وتهيئة الخطط . ويعجل معه
الوقية الفاصلة حتى يصدمه الصدمة الاولى فيوهن قبواه المعنوية والمادية .

ثم كان له إدارة منظمة لمعرفة اخبار اعدائه ونشر الدعوة ضدها وتنوير الازدهان
لما يريد بثه من الافكار والاراء التي ترتأياها الحكومة لخيرها . واعتمد اعتماداً
تاماً على اهل الشام فكانوا مادة جنده القوية المخلصة ولم يستعن بالزعماء
القرشيين فقال مرة للحصين بن نمير السكبي نأبئه في قيادة الجيش :
« لا تمكن قرشياً من اذنك . . ولا تردن اهل الشام عن عدوهم ،
الطبري S 2 V ص ٤٢٤ - ٤٢٥ »

تابعت الحملة سيرها الى مكة بعد اخضاع الثوار في المدينة وذلك لناجزة
ابن الزبير الواقعة . فتوفي مسلم بن عقبة في الطريق في (قفا المشلل)
أو « ثنية هرشا » في آخر الحرم سنة ٦٤ هـ و « ٦٨٣ م » وكان شيخاً مريضاً فاستولى
الحصين بن نمير على قيادة الجند بعده ، ويلقبه المؤرخون ببرذعة الحمار . والتجأ
فلول اهل المدينة الى ابن الزبير لينصروا ويثأروا لدمهم المهدور . فشدت الحملة
عليه شدة منكرة فصارها وجالداها اربماً وستين يوماً ، وهو محصور ضمن
اسوار الكعبة . ويدعي الكثيرون من المؤرخين ان الامويين حرقوا البيت .
وفي هذا الادعاء شيء كثير من الصحة اذ قد فوه بالمجانيق . ولمكن لا يعرب
عن بالنا انه كان للزبيريين نصيب طيب في احراق الكعبة فقال الطبري :
« كانوا - اشيع ابن الزبير - يوقدون حول الكعبة فأقبلت شررة

هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترق خشب البيت، الطبري
S 2 V1 ص ٤٢٧ «

وروى ما سمعه من المشاهدين العيانيين عن اسباب اشتعالها فقال : « قد
خلعت اليها - الى الكعبة - النار ورأيتها مجردة من الخويز . ورأيت الركن
قد اسود وانصدع في ثلاثة أمكنة فقلت ما اصاب الكعبة فاشاروا الى رجل
من اصحاب عبد الله بن الزبير قالوا هذا احترق بسببه ، اخذ قبساً في رأس
رمح له فطيرت الريح به ، ف ضرب استار الكعبة ما بين الركن اليماني والاسود .
الطبري S 2 V1 ص ٤٢٧ «

ووصف العقد الفريد الضرر الذي اصاب الكعبة فقال : « احترق
الخشب والسقف وانصدع الركن واحترقت الاستار وتساقطت الى الارض ،
ج ٣ ص ١٢٤ . والحقيقة التي لامرية فيها ان ابن الزبير احب ان
يستفيد من حرمة الكعبة وقداستها فعاذ بها كما ان الامويين لم يتأخروا عن
احراقها في سبيل التخلص من عدوهم الجبار وان كان في ذلك اغضاب المسلمين .
فاعتفى ابن الزبير في التحصن بالكعبة كيما يضع الامويين تجاه امر واقع
فيعملون فيها نيرانهم . ويكون له من ذلك سلاح يطعنهم به فتجح في خطته
التي دبرها نجاحاً باهراً .

بينما كان الامويون يحاصرون ابن الزبير ويضيقون عليه الخناق اذ جات الأخبار بوفاة يزيد في حوارين من اعمال حص ١٤ ربيع الاول سنة ٦٤ هـ و «٦٨٣ م». واختلاف الاحزاب الاموية فيما بينها من أجل العرش . فنشط ابن الزبير اذ ذاك وجرب ان يفتح باب المفاوضات على مصراعيه آملا ان يجتذب خصومه المحاربين الى حزبه فأفلح وكـف القوم عن قتاله — بعد وفاة يزيد باربعين يوماً — وسعى في عقد مؤتمر الابطاح . واليك وصف المحادثات فيه ونتائجها .

كانت نقطة الخلاف والمشادة بين مندوبي الامويين والزبيريين في مؤتمر الابطاح تنحصر فيما يلي : هل تكون الشام مركز الحركة الزبيرية ام الحجاز ؟ وهل يظل الشاميون اصحاب الدولة والسيطرة والسلطان اذا انتقل ابن الزبير الى دمشق وتشرذعته هناك ام لا ؟ تلك هي الاسئلة التي وجهها الحصين بن نمير الى ابن الزبير فأبى الاخير الاجابة عليها والقبول بها لانه كان لا يثق بالشاميين وفيهم ابناء يزيد وآل مروان ولأن الحجازيين ناصروه فكانوا جنده الامين ورجاله المخلصين ولذا لا يعامل بهم احداً . ولم ينصره أهل الحجاز الا لتكون العاصمة عندهم فيستلمون زمام الامور ويديرون دفة الاحكام ويودعون القفر الذي احاق بهم وكاد يقتضي عليهم . وقد شجع الحصين ابن الزبير على قبول

ارائه ووعده بأخذ البيعة له من وجوه أهل الشام في جيشه ان اتبع نصائحه
فرفض . واذلنعتقد ان ابن الزبير ارتكب غلطاً فادحاً في عدم ثقته بالحصين
لان الامويين كانوا عازمين على بيعته لقيام القادة الشاميين في نصرته من
اقصى فلسطين الى اقصى قنسرين كما سيأتي معنا . وهاك ملخص المفاوضات
والاحاديث التي دارت بين الحصين وابن الزبير .

الحصين يخاطب ابن الزبير — ان يك هذا الرجل قد هلك فأنت احق
الناس بهذا الامر . هلم فلنبايعك ثم اخرج معي الى الشام فان هذا الجند
الذين معي هم وجوه أهل الشام وفوسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان
وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كنت بيننا وبين
أهل الجرة .

ابن الزبير — أنا اهدر تلك الدماء اما والله لا ارضى ان اقتل بكل
رجل منهم عشرة .

الحصين — قبح الله من يمدك بعد هذه داهياً قط أو اديباً . قد
كنت اظن ان لك رأياً ، الا اراني اكلمك سرّاً وتكلمني جهراً وادعوك الى
الخلافة وتعدني القتل والهلكة .

ابن الزبير — اما ان اسير الى الشام فلبت فاعلا واكره الخروج من

مكة ولسكن بايعوا لي هناك فاني مؤمنكم وعادل فيكم .
 الحصين - أرايت ان لم تقدم بنفسك ووجدت هنالك اناسا كثيراً
 من أهل هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس .

السبب الخامس : تخاذل الأمويين من أجل العرش .

لو اتبع يزيد الأول ان يعمر لعامل ابن الزبير معاملة شديدة ولأرسل
 عليه الحملة تلو الحملة . يدلنا على هذا سياسة الأهراب التي ما فتئ منذ ولايته
 الخليفة يسير بحسبها وكان من نتائجها فاجعة الحسين بن علي ، وقد اسهبنا في
 وصفها . فما قولك بابن الزبير الذي اوصى معاوية ابنه باعدامه وهو على فراش
 الموت . قال معاوية : (ان الذي يحجم لك جثوم الأسد ويراوغك رونغان
 الشلب فان امكنته فرصة وثب فذاك عبدالله بن الزبير فان فعل وظفرت
 به فقطعه ارباً ارباً الا ان يلتمس منك صلحاً فان فعل فاقبل منه واحقن
 دماء قومك بجهدك وكسف عاديهم بنوالك وتغمدهم بحملك ، الدينوري
 ص ٢٤٠) . ولسكن مات يزيد وهو في ريعان الشباب فعقبه على عرشه
 ابنه معاوية الثاني . وهو شاب ضعيف ربعة في الرجال يعتره صفار .
 غلب عليه الزهد والتشفي في الحياة . وكان من دعاة القدرية ويعتقد هؤلاء
 ان معلوبه فائز علياً بغيز جقي وان ولاية يزيد للخلافة ليست صادقة فاعتزل

وأعلن في خطاب العرش ما يؤيد فلسفته هذه فقال : (ان جدي معاوية نازع الأمر من كان أولى به وأحق ، ثم تقلده أبي ، ولقد كان غير خليق به ، ولا احب ان القى الله عز وجل بتبعاتكم فشا نكم وأمركم ، ولوه من شتم ، ابن العبري مختصر الدول ص ١٩٠ - ١٩١) .

ويروي لنا الطبري انه قال : (اما بعد فاني قد نظرت في امركم فضعت عنه فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع اليه ابو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها فانتم أولى بأمركم فأختاروا له من أحبتهم ، الطبري ١٧ ص ٢٤٦) . ويظهر ان الرجل كان عاجزاً عن القيام بالأمر ضعيف الارادة . استهواه عمر المقصود زعيم القدرية يومئذ فملك تعاليمه عليه لبه حتى أفقدته . معنى الرجولة والبطولة في مكافحة الحياة . ولعل هذا ناتج عن كثرة ما حمل نفسه من انواع العبادة . ان تخلي معاوية الثاني عن عرشه وتصريحاته هذه آلمت الحزب الأموي فسعى لأغتياله ، وتضاربت الأقوال في كيفية وفاته فقال بعضهم انه دُسَّ اليه فسقي سمًا وقال غيرهم انه طعن . ولم تدم خلافته اكثر من ثلاثة اشهر .

ومهما يكن من ضعف معاوية الثاني وعجزه عن استلام زمام الأحكام

فان تنازله عن العرش خلق مشا كل عظيمة كادت تفت في ساعد بني امية .
فصحت غريمة الزبيريين على مهاجمة صفوف اعدائهم في كل قطر فقام زفر
بن عبدالله السكلابي والي قنسرين وبائع لعبدالله ابن الزبير . كذلك فعل
النعمان بن بشير الانصاري بحمص . وكان الضحاك بن قيس الفهري حاكم
دمشق يهوى هوى ابن الزبير ويدعو اليه سراً . وانتشرت دعوتهم بفلسطين
فطردوا الأمويين منها ولم يبق ثابتاً على ولائهم الا الأردن وهي تحت امرة
حسان بن مالك بن بحدل الكلبي . فترى مما تقدم ان الشام شمالها وجنوبها
تقريباً أخذ يدين لأبن الزبير . هذا هو المشكل الاول في عرفنا . واما المشكل
الثاني فهو اختلاف بني امية بعضهم مع بعض وانقسامهم على اقسامهم فتعدد
المرشحون منهم للخلافة واشهرهم اثنان ، الاول خالد بن يزيد الوريث الشرعي
للعرش وكان صبياً لم تحنكه الايام ولم تعركه التجارب والثاني مروان
بن الحكم شيخ بني امية . واما المشكل الثالث فهو طلب الضحاك بن قيس
للخلافة فدعا قيساً وغيرها الى البيعة لنفسه فبايعوه « الطبري ٢٧٧ ص
٤٧٣ » ويظهر انه اراد استعمال ابن الزبير مسلماً يرقى عليه الى اطماعه
ومآربه لأن مصلحته ومصلحة ابن الزبير واحدة في الشام . فالامويون اعداؤها
على السواء فاذا تمكن الضحاك من الاستعانة بالزبيريين على آل مروان وابناء

يزيد يسهل عليه بعد مناواتهم والاستعداد لمنازلتهم.

لا بد للامويين تجاه هذه الاخطار المحدقة بهم من التكتاف والاتحاد والتدرع بالصبر والتمسك بحبال المفاوضة فاتفقت الاحزاب في الشام كلها على عقد مؤتمر يحلون به جميع العقد السياسية التي اوجدت الخلاف والضعف في جميع انحاء القطر . فقررت الاحزاب المروانية « دعاة مروان بن الحكم » والاموية الشرعية « دعاة خالد بن يزيد » ومعظمهم من بني كلب مع الاحزاب القيسية الداعية الى ابن الزبير ونصرة الضحاك على الاجتماع في الجابية . وكان الضحاك يأمل ان ينال من الامويين الكثير من مطالبه السياسية لعشيرته فيما اذا انضم اليهم ، فيترجع رجالها في دست المناصب العالية . فرضي بالتخلي عن ابن الزبير ان اجابوه الى ما يبغيه من المطامع . فاشتم دعاة الزبيرين منه ذلك فسعوا سعيا حثيثا لأحباط مفاوضات الجابية ونادوا ان السيف خير حكم بينهم وبين خصومهم . وبرهاننا على هذا ما قاله ثور بن معن بن يزيد الاخنس السلمي للضحاك : « . . . دعوتنا الى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك واقت تسير الى هذا الاعرابي من كلب » يعني حسان بن مالك « تستخلف ابن اخيه خالد بن يزيد فقال له الضحاك فما الرأي قال الرأي ان تظهر ما كننا نسر وندعو الى طاعة ابن الزبير وتقاتل عليها فقال الضحاك بمن معه من الناس

فعطفهم ثم اقبل يسير حتى نزل بمرج راهط ، الطبري ٧/ ٢٧١ ص ٤٧ .
 فغلب الضحك على امره وسار بجيشه الى مرج راهط بدلا من ان يبعث مندوبيه
 الى مؤتمر الجابية .

اجتمعت الاحزاب الاموية على اختلافها في الجابية وقررت بعد جدال
 عنيف مبايعة مروان بن الحكم لأمرين : الامر الاول لسنه وشيخوخته ، (القفري
 ص ١١٠ - ١١١) . وبلوه الحياة ومعرفته حلوها من مرها . ولأن العرب
 تميل بطبعها الى الزعيم الشيخ المحنك فقال أهل الاردن لمروان : « أنت شيخ
 كبير وابن يزيد غلام . وابن الزبير كهيل ، وانما يقرع الحديد بعضه ببعض
 فلا تبارك هذا الغلام وارم بنحرك في نحره ونحن نبايعك ، بسط يديك فسطها
 فبايعوه بالجابية يوم الاربعاء ثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ و ٦٨٣ م . الطبري
 ٧/ ٢٧١ ص ٤٧٣ . . والامر الثاني لجهاده الدائم في نصرة قومه وللصفات
 السياسية الباهرة التي تحلي بها . فكان من اكبر انصار عثمان بن عفان ، ومعاوية
 بن أبي سفيان ، ويزيد بن معاوية فعد له مناقبه هذه انصاره . فقال روح بن زُبَيع
 الجذامي : « اما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الاسلام صدع قط الا وكان
 مروان ممن يشعب ذلك الصدع وهو الذي قاتل عن امير المؤمنين عثمان بن
 عفان يوم الدار ، والذي قاتل علي بن ابي طالب يوم الجمل وانا نسري للناس

ان يبايعوا الكبير ويستشبو الصغير يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير
 خالد بن يزيد بن معاوية الطبري ٢٧٧ S ص ٤٧٦ « وقال ابنه عبدالعزيز
 ابن مروان : « ما احدث اولي بهذا الامر من مروان بن الحكم ، انه لكبير
 قريش وشيخها وافرطها عقلاً وكلاً وديناً وفضلاً ، والذي تقسى بيده لقد
 شاب شعر ذراعيه من الكبير ، ابن قتبية ج ٢ ص ٢٣ فتعاونت الاحزاب
 كلها على الوقوف وقفة الرجل الواحد امام الزبيريين وعلى رأسهم الضحاك
 بن قيس .

كان جيش الضحاك يتألف من جل أهل دمشق وحمص وقنسرين
 وفلسطين ومعظمهم من قيس ومضرو ويقدرون جميعاً بثلاثين ألفاً وأكثرهم
 فرسان . اما مروان فكان في ثلاثة عشر ألفاً من الين وكب والسكاسك
 والسكون وغسان وسواهم « المسعودي ٣٠٧ - ٣٠٩ » . والتقى الجيشان في
 مرج راهط ودامت المعارك مستمرة بين الطرفين نحواً من عشرين يوماً
 والحرب بينهما سجال الى ان كادهم مروان ودعاهم الى المودة والصلح فلما
 اطمأنوا الى ذلك اخذهم على حين غره وحمل عليهم حملة منكبة وهم على
 غير عدة ولا اهبة « المسعودي ص ٣٠٧ - ٣٠٩ » فم النصر له وقتل
 الضحاك مع ثمانين شريعاً من اشرف الشام اصحاب القطيفة وهؤلاء يأخذ كل

منهم القين في العطاء . الطبري ٢٧٧ ص ٤٧٧ - ٤٨٧ »

ومما ساعد مروان على الانتصار اشتعال الثورة في دمشق بقيادة يزيد بن
أبي النخس الغساني فغلب عليها ووضع يده على الخزان ويدي المال وبيع مروان
وأمد به بالرجال والاموال والسلاح. فقطع على الضحاك سبل الامداد والمخابرة
مع العاصمة ويقول المؤرخون ان هذه الثورة فتت في عضد الزبيريين وكانت
اول فتح فتح على بني امية .

أكثر شعراء البين من التفاخر على قيس في هذه المعركة فانشد الفرزدق:
وقد جعلت الدين في المريج والقنسا لمروان ايام عظام الملاحم
رأيت بني مروان جلت سيوفهم عشي كان في الإبصار تحت العمام
ولو رام قيس غيرهم يوم راهط للاق المنايا بالسيوف الصوارم
ولسكن قيساً روغمت يوم راهط بطود ابي العاص الشديد الدعائم

فترى ان العصبية القبائلية كانت داء وبلاء « المسعودي ص ٣١٠ »
يسري في مفاصلهم سريان الحى الفتاكة في الجسم الانساني . وسنصف لك
الولايات والمصائب التي حلت في الدولة من جرائها .

لما رأى ابن الزبير ما أصابه من الانكسار في معركة مرج راهط
اراد ان يطلق آخر سهم في كسنته صوب الشام فبعث اخاه مصعب بن الزبير

بحو فلسطين فصرح له مروان عمرو بن سعيد بن العاص في جيش فصدّه
وهزمه وأرجعه على أعقابيه . ففقد أماله في الشام .

وجه مروان وجهه نحو مصر الخاضعة لأبن الزبير لفتحها وتثبيت اقدامه
فيها بعد ان وطد تقوده من اقصى الشام الى اقصاه . فسير حملة على رأسها
ابنه عبد العزيز ورجا ان يكون الفتح عن طريق أيلة . فاجع ابن حجوم والي
مصر على حربه فخصن القسطاط وحفر حولها الخنادق ، وبعث اسطولاً الى
السواحل السورية ليناشو المرابطين فيها ويشاغلهم ، فيهتم مروان بارسال
الفرق من جيشه لهذه الجبهة الساحلية الجديدة . وجيز حملة لمقاومة الجيوش
المهاجمة . اما الاسطول فنزل عليه عاصف غرق معظمه واما الحملة فانهمزمت
امام الفاتحين واستسلم قسم كبير منهم « كتاب الولاة وكتاب القضاء لابن
الكسندي ص ٤٠ - ٤٥ » .

دخل مروان مصر فوضع العطاء في الناس فبايعوه واقدموا على نصرته .
ثم بنى القصر المعروف « بالدار البيضاء » في القسطاط وجعلها مقر الاحكام
لنائبه فيها . وولى عليهم ابنه عبد العزيز وأمره بالاحسان اليهم والمشورة في
تدبير اموره وبذل الهممة في تقرير زعمائهم . نستنتج هذا من الوصايا التي
اوصاه بها فقال له مرة : « يا بني عمهم باحسانك يكونوا كلهم بني ابيك ،

واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، ووقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره ، وينقاد وقومه اليك ، الولاة والقضاء ص ٤٧ » وقال له ايضاً : (واوصيك ان لا تعد الناس موعداً الا اقتذته وان حملت على الأسنّة ، واوصيك ان لا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير ، الولاة والقضاء ص ٤٨) « راجع ايضاً للسعودي ص ٣١١ والطبري ص ٤٨١ ٧١ ٤٢ » .

كل ما قدمناه يؤكّد لنا ان مروان لم يتغلب على ابن الزبير الا بعد الجهد الطويل . فاستمال الزعماء وقبل شروطهم القاسية وكان يعتقد بعضهم انهم شركاء له في ملكه فاشترط الحصين بن نمير جزاء نصرته له ان يجعل البلقاء مأكلاً لكسندة « الطبري ٧١ ٤٢ ص ٤٨٧ » . وقد ظلّ يوجس خوفاً من آل يزيد لثلاث ثلث يثب لهم رأي في التخلص منه فتزوج ام خالد بن يزيد وهي فاختة ابنة ابي هاشم بن عتبة ليسقط خالداً عن درجة الخلافة « الفخري ص ١٠٩ - ١١٠ » . وكان مروان لا يعتبر خالداً ويجرب ان يصغر امره عند أهل الشام فينسبه الى الحق مع انه كان فصيحاً بليغاً . فتآمر عليه مع والدته واعدامه خنقاً حسبما يروي لنا معظم المؤرخين .

السبب السادس : حركة التوابين . الثار للحسين بن علي :

كان اختلاف الأمويين بعضهم على بعض سبباً كبيراً في نشاط الحركة الزبيرية كما أسهبنا في قولنا . لسكن حركة التوابين التي قامت على أثر فاجعة الحسين بن علي اخذت تناوي بني أمية وتسعى في إعدام من اشترك في التدبير على ابن بنت الرسول « ص » وتنشر الدعوة ضد سياسة الشدة التي اتبعها عبيد الله بن زياد وامثاله . وقد استفاد ابن الزبير من هذه الحركة واستعان بكابر الرجال على تشجيعها سرّاً وعلانية حتى يشغل الأمويين في الساحة العراقية وينال الفرصة الكافية لتثبيت مركزه وتقوية جيشه .

دعت الشيعة الحسين الى الكوفة ووعدوه رجالها بالنصرة فلم يبروا بوعدهم وتحلوا عنه في الساعة الاخيرة فوقع في معركة كربلاء مضرراً بدمائه . فرأت فئة منهم انه لا يغسل عارهم ولا يحجوا أئمتهم وذلمهم الا اعداءُ منهم قتلته فأسسوا حزباً جديداً دعوه « بحزب التوابين » . كان من اركانه سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة القزاري وعبد الله بن سعد بن قهيل الأزدي ، وعبد الله بن وال التيمي ورفاعة بن شداد البجلي . عقد هؤلاء الخمسة مع دعايتهم اجتماعاً خاصاً في دار سليمان بن صرد زعيمهم فانبأ بعضهم البعض على تراخيهم في الذود عن حرمة الحسين واقسموا على الأخذ بثأره الى النفس الاخير وهيئوا الاسباب التي تؤمن لحركتهم النجاح . وكانت علامة الخماس

والألم والتأثر لقتل الحسين بادية في خطبهم . فقام المسيب بن نجبة يحرض
 القوم على الاستشهاد في سبيل آل البيت ، أولئك الذين قتلوا على مقربة منهم
 وهم عنهم لاهون فقال : « كسنا مغرمين بترك كية أنفسنا وتقريبنا
 شيعتنا حتى بلا الله اختيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن ابنة
 نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد بلغتنا قبل ذلك كتيبه . وقدمت علينا رسله
 واعذر الينا يسألنا نصره عوداً وبداءً وعلانية وسراً فبخلنا عنه
 باقتسنا حتى قتل الى جانبنا لا نحز نصرناه بايدينا ولا جددنا عنه
 بألسنتنا ولا قويناه بأموالنا ولا طلبنا له النصره الى عشائرننا . فما حذرنا
 الى ربنا وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد قُتل فينا ولده وحببيه
 وذريته ونسله ، الا والله لاعذر دور ان تقتلوا قاتله والمالين عليه ،
 او تقتلوا في طلب ذلك فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك . » . الطبري
 S 271 ص ٤٩٨ « فأمن رفاعه بن شداد على إكلامة وقال : (... دعوت
 الى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم فبسوخ منك مستجاب لك
 مقبول قولك ... الطبري S 271 ص ٤٩٨) ثم تكلم سليمان فشجعهم
 على الاستعداد لاعدائهم بالسلاح والأموال والرجال فقال : (... فاني والله
 الا يكون آخرنا الى هذا الدهر الذي تكدرت فيه المعيشة وعظمت فيه الزويزه

وشبل فيه الجور اولى الفضل من هذه الشيعة لما هو خير . انا كسنا نمد
 اعناقنا الى قدوم آل نبينا ونمنهم النصر ونحشهم على القدوم فلما قدموا ونبينا
 وعجزنا وأذهلنا وتربعنا وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولدينا، ولد نبينا وسالته
 وعصارتة وبضعة من لحمه ودمه اذ جعل يستصرخ فلا يصرخ ويسأل النصف
 فلا يعطاه . اتخذ الفاسقون غرضاً للنبل ودرية للرماح حتى أقصدوه وعدوا
 عليه فسلبوه ، الا انهضوا فقد سخط ربكم ولا ترجعوا الى الحلال والالبناء
 حتى يرضى الله والله ما اظنه راضياً دون ان تناجزوا من قتله . . . الا لاهابوا
 فوالله ما هابه امرؤ قط الا ذل . . . اشحنوا السيوف وركبوا الأسنة واعدوا
 لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل حتى تدعوا حين تدعوا وتستغفروا

الطبري ٧ ص ٢٥٠ - ٥٠١

تمكن حزب التوابين الركن المتين من اركان الشيعة من لم شعثه والالتفاف
 حول زعيمه لسبيين . السبب الاول لتبرع الزعماء بالاموال الكثيرة لاجل
 الدعوة فكنهم هذا من استنصار الناس للجهاد وتشويقهم للقتال فقدّم خالد
 بن سعيد بن قيس كل امواله واعلاكه ومزارعه في سبيل الحزب فقتل :
 « اشهد الله ومن حضر من المسلمين ان كلما اصبحت الملكة سوى سلاحى
 الذي اقاتل به عدوي صدقة على المسلمين أقويهم به على قتال الفاسقين

الطبري S2 V1 ص ٥٠١ » وقال غيره مثل قوله . والسبب الثاني لاستعمالهم البلغاء من الرجال في نشر دعوتهم فماتوا مقتل الحسين تمثيلاً محزوناً مبكياً فكانوا اينما حلوا ينالون من اعدائه الذين انتهكوا حرمة فاحتزوا رأسه وداسوا بخيالهم على جسده . وحملوا على قتلته اولئك الذين لا تعرف الشفقة قلوبهم ولا المرحمة نفوسهم فكانوا ييكون ويستبكون الناس على القتل حفيد رسول الله (ص) . واليك خطبة عبيد الله بن عبد الله المري اشهر دعائهم ، فانه كان يحب الانحاء العراقية ويلقيها على مسامع الناس : « لله انتم ألم تروا ويبلغكم ما اجترم الى ابن بنت نبيكم ، اما رأيتم الى انتهاك القوم حرمة واستضعافهم وحدته وترميلهم اياه بالدم وتجراهموه على الارض لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ، اتخنوه للنبل غرضاً وغادروه للضباع حزراً ، فله عينا من رأى مثله والله حسين بن علي ، ماذا غادروا به ذا صدق وصبر وذا امانة ونجدة وحزم ، ابن اول المسلمين اسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين قلّت حماه وكثرت عداؤه حوله ، فقتله عدوه وخذله واه فويل للقاتل وملامة للخاذل . ان الله لم يجعل لقاتله حجة ولا لخاذله معذرة الا ان ينصح الله في التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ الفاسقين . فعسى الله عند ذلك ان يقبل التوبة ويقيّل العثرة . انا ندعوك الى كتاب

الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المحلين والمارقين فإن
 قتلنا فما عند الله خيرٌ للأبرار . وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل
 بيت نبينا ، الطبري ، ص ٥٠٨ .

واستلم حزب التوابين سكان المدائن فبثوا بينهم دعوتهم ورجعهم
 إلى قتال أعدائهم فانتصروا لهم ورجعوا قواهم لتنشيط هذا الحزب . ولو دققنا
 في الأسباب التي جعلت أهل المدائن ينضمون إلى السكوفيين لتحققنا أنها
 مبنية على الأسس المالية فسكان المدائن وأرباب الثروة فيها هم شركاء لأهل
 السكوفة في نخيلهم ودورهم وعطائهم ولذا لم يكن يوسعهم أن يتخلوا عنهم
 ويتناضلهم . فلما طالب اليهم سليمان بن صرد الالتحاق بالحزب في رسائله
 المشهورة اليهم سمعوا له وأجابوا . وإني مورد لك نص بعض الرسائل التي
 جرت بين الفريقين لتفهم روح المفاوضة ومعناها إذ ذاك :

رسالة سليمان بن صرد لأهل المدائن :

« إن أولياء الله من أخوانكم وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم
 فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دعي فاجاب ودعا فلم يُجب واراد
 الرجعة فخبس وسأل الأمان فمنع وترك الناس فلم يتركوه وعدوا عليه فقتلوه
 ثم سلبوه وجردوه ظمأً وعدواناً وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب

ينقلبون ... فلما نظر اخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا ان قد
خطئوا بخذلان الزكي الطيب واسلامه وترك مواساته ولا توبة دون
قتل قاتليه او قتلهم ... فقد جدوا اخوانكم فجدوا واعدوا واستعدوا وقد
ضربنا لأخواننا أجلاً يوافوننا اليه وموطناً يلقنونا فيه فأما الأجل ففرة شهر
ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ (و٦٨٤ م) وأما الموطن الذي يلقنونا فيه فالنخيلة ...
وانكم جداء بتطلاب الفضل والتماس الأجر والتوبة الى ربكم من الذنب
ولو كان في ذلك حز الرقاب وقتل الأولاد واستيفاء الاموال وهلاك
العشائر ان التقوى أفضل الزاد في الدنيا ولتكن رغبتكم في
دار عافيتكم وجهاد عدو الله وعدوكم وعدو أهل بيت نبيكم ... الطبري
S2 V7 ص ٥٠٣ - ٥٠٤ »

من رسائل أهل المدائن للتوابين :

« .. نجيبهم ونقاتل معهم ورأينا في ذلك مثل رأيهم ...
نحن جادون مجدون معدون مسرجون ملجمون سننتظر الامر ونستمع
الداعي فاذا جاء الصريح أقبلنا ، الطبري S2 V7 ص ٥٠٤ - ٥٠٥ »
انتشرت دعوة التوابين انتشاراً عظيماً بعد وفاة يزيد الأول فاصبحوا
عدداً رهيباً يخاف الناس جانبهم . واخذت الدولة في دمشق تعد عدتها

لمنازلتهم وإخماد ثورتهم . والناظر بعين بصيرة نقادة الى حركة-تهم من اولها الى الى منهاها يرى انها صارت الى الانحلال لأسباب خمسة هي كما يأتي:

السبب الاول : الدعوة تتطلب اعدام اشراف الكوفة لقتلهم

الحسين . خوف التوابين من اعدامهم : قرأنا فيما سبق ان اشراف الكوفة كانوا الساعد الاقوى في اعدام الحسين . ومع ذلك فقد تردد سليمان واتباعه في قتلهم لان بينهم اخوانهم وبنى عمومته وأعر اقاربهم ، ولأنهم ان علموا بنوايا التوابين نحوهم صمدوا لهم وقاتلوه قتلاً شديداً . ولا ريب ان التوابين ارتكبوا غلطاً فادحاً في استعدادهم لمنازلة الامويين الاقوياء قبل اقتصاصهم من الزعماء الاشراف القتلة الذين كانوا يرتعون في بجموحة من العيش بين ظهرائهم ، والذين كانوا على اتصال تام مع الحكومة الاموية . فمحقوا اعداءهم الاشراف بذلك فرصة الاستعداد لمكيدهم والتدبير عليهم . نستشهد على صحة هذه الفكرة من الاقوال التي صدرت من زعماء التوابين بهذا الخصوص، قال :
 احد زعمائهم : « انما خرجنا نطلب بدم الحسين وقتلة الحسين كلهم بالكوفة منهم عمر بن سعد بن ابي وقاص ورؤوس الارباع واشراف القبائل فاني نذهب ههنا ونذع الاقتال والاورار ، الطبري ٧ S ٢ ص ٥٤١ » . وقال سليمان ابن صبر : « والله لو قتلتم غداً أهل مصركم ما عدتم رجلاً ان يري رجلاً

قد قتل اخاه وأباه وحميمه او رجلاً لم يكن يريد قتله، الطبري S 2 V ص ٢٤٢) • وروى لنا الطبري : « جاء الى سليمان اصحابه من الشيعة فقالوا قد مات هذا الطاغية - يزيد الاول - والأمر الآن ضعيف فان شئت وثبنا على عمرو بن حرث - نائب عبيد الله بن زياد على الكوفة - فأخرجناه من القصر ثم اظهرنا الطلب بدم الحسين وتبعنا قتله ودعونا الناس الى أهل هذا البيت المستأثر عليهم المدفوعين عن حقهم فقالوا في ذلك فأكثرنا فقال لهم سليمان بن صرد: رويداً لا تعجلوا اني قد نظرت فيما تذكرون فرأيت ان قتلة الحسين هم اشراف أهل مكة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه • ومتى علموا ماتريدون وعلموا انهم المطلوبون كانوا اشد عليكم ، الطبري S 2 V ص ٥٠٦ - ٥٠٧ » •

الحبيب الثاني : التوابون ضعافٌ في جيشهم وعدتهم : ذكرنا ان التوابين تكاثفوا وتعاضدوا واقسموا الايمان على القتل بقتلة الحسين وبذلوا الاموال في سبيل هذه الغاية • ولكن اموالهم كانت قليلة نسبة لاموال الامويين وجيشهم ضعيفاً لاحول له ولا قوة على الثبات امام الجيش الاموي • هذا عدا اولئك الذين تحملوا عنهم بتأثير الذهب الوهاج الذي كانت تدفعه الحكومة بسخاء • فيروي لنا الطبري : « دعا سليمان بن صرد الى ديوانه

لينظر فيه الى عدة من يايه حين اصبح فوجدهم ستة عشر ألفاً وقال سبحان الله ما ارانا الا اربعة آلاف من ستة عشر ألفاً ، الطبري S 271 ص ٥٣٩ - ٥٤٠ ، و يروي ايضاً : « اتى سليمان عسكره فداره ووجوه اصحابه فلم يعجبه عدة الناس ، الطبري S 271 ص ٥٣٨ .

ويقول بهذا الخصوص : « خاطب سليمان بن صرد حزبه فقال : ونظرت فيمن تبعني منكم فعلمت انهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم ينشوا انفسهم ولم ينكوا عدوهم . . . الطبري S 271 ص ٥٠٧ » .

وقد صرح التوابون انهم فقراء وانه ليس عندهم مال يهبونه للناس كما تفعل الحكومة في دمشق وان لا غاية لهم سوى التوبة بثأرهم للحسين . وكان هذا اعتراف ظاهر على عجزهم وضعفهم والناس لا يستهويهم الكلام الجذاب الى امد طويل وان استهواهم فالى حين . قال سليمان بن صرد : « . . ايها الناس من كان انما اخرجته ارادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه فرحمه الله عليه حياً وميتاً ، ومن كان انما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأتي شيئاً نستفيئه ولا عنيمة نغنمها ما خلا رضوان الله رب العالمين وما معانمنا ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير وما هو الا سيوفنا في عواتقنا ورماحنا في اكفنا وزاد قدر البلغة الى لقاء عدونا فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا ، الطبري

السبب الثالث: المنافسة في طلب الزعامة تهيب جناحهم : كان بين

الشيعة رجالٌ ينافسون سليمان بن صرد في طلب الزعامة والرئاسة . أشهرهم المختار بن أبي عبيد الثقفي — وسنتكلم عنه مفصلاً — فخرج رجاله يثبطون هم الناس عن الاتحاق بسليمان مدعين جهله في الأمور العسكرية وضعفه في قيادة الجند وقالوا ان المختار انما يدعو لمحمد بن علي بن الحنفية فهو وزيره وأمينه ، فانقسم التوابون بعضهم على بعض ، فئة تدعو لسليمان وفئة تدعو للمختار . فكان هذا الانقسام مما سهل على الحكومة الأموية ضرب سليمان واتباعه ضربة قاضية . قال الطبري بهذا الشأن : « . . . فسليمان اثقل خلق الله على المختار وكان المختار يقول لأصحابه أتدرون ما يريد هذا يعني سليمان بن صرد انما يريد ان يخرج فيقتل نفسه ويقتلكم ، ليس له بصر بالحروب ولا علم بها .

الطبري V1 ج S ص ٥٠٩ — ٥١٠

السبب الرابع: التوابون يرفضون مساعدة ابن الزبير : اولاد ابن الزبير

ان يستفيد من التوابين فحرب ان يقنع زعماءهم في الانضمام اليه والانتصار له . فأبوا ان يقاتلوا في صفوفه لئلا يكونوا سلباً يرقى عليه لمطامعه وآلة هينة لينة يديرها كيفما شاء . ولقد حاول انصار ابن الزبير أن يؤكدوا للتولين ان الامويين اعداء لكلا الطرفين على السواء . وعرضوا عليهم المساعدات المالية

فما اعاروهم اذناً صاغية ولا قلباً واعياً لأن دعوتهم معينة مفهومة لا تتجاوز طلب الثأر للحسين وارجاع الامامة لاهلها من العلويين . ان التوابين لم يفيدوا الزبيرين الافادة السكينة اذا لم ينضموا اليهم ولكنهم شاغلوا الامويين في الساحة العراقية مدة ليست بالقليلة ، استراح في خلالها ابن الزبير وهي الاسباب القوية لمناجرتهم في معركة فاصلة . فقال دعاة ابن الزبير للتوابين لا قناءهم : « انتم اخواننا واهل بلدنا واهل مصر خلقه الله الينا فلا تقجعونا باقتسكم ولا تستبدوا علينا برايكم ولا تنقصوا عدونا بخروجكم من جاعتنا . اقيموا معنا حتى نتيسر ونهتياً فاذا علمنا ان عدونا قد شارف بلدنا خرجنا اليهم بجماعتنا فقا بلناهم ، الطبري S 27 ص ٥٤٣ - ٥٤٤ . وذكر المؤرخون ان ابن الزبير لم يتأخر عن نبل الاموال لهم فيروي الطبري : « عرضوا على سليمان ان يقيم معهم حتى يلتقوا جموع اهل الشام على ان يخلصوه واصحابه بخراج « جوحى » خاصة لهم دون الناس ، الطبري S 27 ص ٥٤٤ . وكان يعتقد التوابون ان القتال مع ابن الزبير ضلال في ضلال . قال سليمان في ذلك : « .. ولا ارى الجهاد مع ابن الزبير الا ضلالاً وان نحن ظهروا رددنا هذا الامر الى اهلنا وان اصبنا فعلى نيائنا تائبين من ذنوبنا ان لنا شكلاً ولا ابن الزبير شكلاً ، الطبري S 27 ص ٥٥٥ . »

السبب الخامس: أهل المدائن يتأخرون عن اللحاق باخوانهم التوابين : أجمع التوابون ان يكون معسكرهم في النخيلة وموعد اجتماعهم في ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ و (٦٨٤ م) وذلك لتعبئة صفوفهم ولتهيئة الخطط الحربية الضرورية قبل الزحف للملاقاة الجيوش الاموية القادمة بقيادة عبيد الله بن زياد . فلم يوافهم انصارهم من أهل البصرة وأهل المدائن الميعاد المضروب بينهم . وقد أقعدهم عن اللحاق بهم قلة النفقة وسوء العدة فأقاموا مدة يتجهزون فانتهاز الامويون الفرصة وناجزوا التوابين الواقعة في «عين الوردة» قبل قدوم الامداد لهم فكسروهم شر كسرة .

المعركة : أقام التوابون يوماً وليلة بالقرب من قبر الحسين قبل زحفهم للقتال يثيرون احقادهم ويشعلون نار الضغائن في صدورهم ويستفزون همهم لطلب الثأر بالبكاء على الحسين . وقد ازدحموا حول قبره ازدحاماً شديداً يترحمون عليه ويستغفرون له ولا تقسمهم فزادهم هذا حنقاً على حنق وألماً على ألم . ثم ساروا للملاقاة عدوهم الزاحف اليهم من دمشق بطريق الزقة فانتهوا الى عين الوردة . ورسم لهم حاكم قرقيسيا الخطة الحربية التي يجب ان يسيروا بحسبها وهي تأمرهم بالانتباه الى حماية خط الرجعة لئلا يفقدوا الماء والمادة والذخيرة من ايديهم وان لا ينازلوا اعداءهم في فضاء

وسمع يتم لهم به الالتفاف حولهم وان يشاغلوهم بالسكتائب بدلا من النزول اليهم دفعة واحدة في صف واحد . وقد حفظ لنا التاريخ نص هذه الخطة وهالك هي : (٠٠ ان القوم قد فصلوا من الرقة فبادروهم الى عين الوردة فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في ايديكم وما بين مدينتنا ومدينتكم فانتم له آمنون ٠٠٠ اطوا المنازل الساعة الى عين الوردة فان القوم يسرون سير العساكر وانتم على خيول ٠٠٠ وان بدروهم الى عين انوردة فلا تقاؤلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم فانهم اكثر منكم فلا آمن ان يحيطوا بكم ولا تقفوا لهم ترامونهم وتطاعنونهم فانه ليس لكم مثل عددهم فان استهدفتهم لم يلبثوكم ان يصرعوكم ، ولا تصفوا لهم حين تلقونهم فاني لا ارى معكم رجالة ولا اراكم كلكم الا فرسانا والقوم لا قوكم بالرجال والفرسان فالفرسان يحمي وجالها والرجال يحمي فرسانها . وانتم ليس لكم رجال يحمي فرسانكم فالقوهم في السكتائب . . . ثم بثوها ما بين فيمنتمهم وميسرتهم واجعلوا مع كل كتيبة الى جانبها فان حمل على احدى السكتيبتين تجلت الاخرى فنفس كتيبة عنها الخيل والرجال ومتى شاءت كتيبة ارتفعت ومتى شاءت كتيبة انحطت ولو كنتم في صف واحد فزحفت اليكم الرجال فدفعتم عن الصف انقضوا كاذت الهزيمة ، الطبري ١٧١ ص ٢٥٤-٢٥٥)

بعث عبيد الله بن زياد الحصين بن نمير على مقدمته في اثني عشر ألفا

لملافة التوابين فاجتمع بهم في عين الوردية . فدارت المفاوضات بين مندوبي
 الفريقين لحقن دماء المسلمين فلم يصلوا الى نتيجة مرضية لان التوابين أصرروا
 على خلع عبد الملك بن مروان - وكان قد ولي الخلافة - اولاً ، وتسليم عبيد
 الله بن زياد لهم ثانياً ، ولم يتساهلوا الا في طرد آل الزبير ودعاتهم من العراق
 على ان يكون حق الخلافة لآل بيت النبي (ص)

أدت هذه المفاوضات حتماً الى القتال فاشتبك الطرفان في معركة دامية
 انتصر بها التوابون في اليوم الأول واظهروا من ضروب الشجاعة والتضحية
 ما جعل اعداءهم يقرّون لهم ببطولتهم فشهدوا لهم وقالوا : (انهم كانوا يقدمون
 على شوكة شديدة ويقاتلون فرساناً شجعاناً ليس فيهم سقط رجل ، الطبري
 ٢٧١ ص ٤٦٦) لكن هبطت الامداد على الامويين في اليوم الثاني
 فأكثروا فيهم الجراح وافشروها ، فاستمات التوابون في اليوم الثالث فكسروا
 — جفون سيوفهم — فقتل اكثر زعمائهم وبينهم سليمان بن صرد . فتقهقروا
 بعد هذه الهزيمة في الظلام حاملين جراحهم وعبروا الخابور متجهين الى بلادهم
 وقد تركوا وراءهم فرقة من الجند لتحمي مؤخرتهم وتشتغل اعدائهم لدى
 ارتدادهم .

ويجدر بنا ان نذكر وصايا سليمان بن صرد للتوابين قبل دخولهم المعركة وهي كلها تأمر بالرحمة والمواساة والعطف على الجرحى والمصابين والاسرى قال : (لا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا اسيراً من أهل دعوتكم الا ان يقاتلكم بعد ان تأسروه او يكون من قتلة اخواننا ٠٠٠ فان هذه كانت سيرة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، الطبري (٢٧ ص ٥٥٦).
 « راجع عن حركة التوابين في المسعودي ص ٣١١ ، والفخري ص ١١٠ - ١١١ » .

السبب السابع : الازراقة الخوارج يساعدون ابن الزبير :
 الخوارج في عرف الاسلام هم كل من خرج على الامام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه سواء كان الخروج في ايام الصحابة على الائمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين باحسان والائمة في كل زمان . « الشهرستاني ج ١ ص ١٥٤ » . ويطلق اسم الخوارج على جماعات عديدة تختلف في مبادئها ونواحي تفكيرها ويهمنا من أمرهم في بحثنا هذا التعرف الى طائفة الازراقة وعلاقتها مع ابن الزبير . قامت هذه الطائفة غاضبة على جماعة المسلمين لاختلافها واياهم في بعض المبادئ الدينية السياسية فهم :

اولاً : يكفرون علماً ويقولون ان الله انزل في شأنه وزادوا على ذلك

تسكفير عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس وسائر المسلمين معهم
وتخليدهم في النار . ويحملون الحملات المنكرة على عثمان ويصمون به بصمات
بعضها بعيد عن الحق ويبالغون في ذلك اشد المبالغة فيقولون عنه انه « آثر
القربى . . . ورفع الدرة ووضع السوط ومزق السكتاب وحتر المسلم وضرب
منكري الجور وأوى طريد الرسول - الحسك - . وضرب السابقين بالفضل
وسيرهم وحرّمهم ثم اخذ في الله الذي أفاء عليهم فقسمه بين : فساق قريش
ومجان العرب فسارت اليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته
لا يبالون في الله لومة لائم فقتلوه فنحن لهم اولياء ومن ابن عفان وأولياءه براء ،
الطبري ٧١ ص ٥١٦ ،

ثانياً : يوجبون على كل من ينضم اليهم ان لا يتأخر عن القدوم الى ديار
هجرتهم للذود عن بيعة دينهم . فهم يكفرون القعدة من رجالهم عن قتال
اعدائهم ، ويظهرون البراءة منهم اينما كانوا وحيثما حلوا .
ثالثاً : يأمرهم بقتل نساء مخاليقهم واطفالهم . وهذا غاية القسوة والهمجية
وهم يرون وجوب التخلص من اعدائهم باستعمال الشدة معهم واعدام
نسلهم .

رابعاً : يستطون الرجم عن الزاني اذ ليس في القرآن ذكره ويستطون

حد القذف عن قذف المحصنين من الرجال ويوجبون الحد على قاذف المحصنات من النساء .

خامساً : يأمرُون بالتصريح في مبادئهم ونشرها ويقولون ان التقية غير جائزة في قول ولا عمل .

سادساً : يعتقدون ان جميع المشركين في النار .

سابعاً : يجوزون ان يبعث الله تعالى نبيا يعلم انه يكفر بعد نبوته او كان كافراً قبل البعثة .

ثامناً : يجمعون على ان من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر ويكون مخلداً في النار ، « الشهرستاني ص ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ ، ابن حزم ج ٤ ص ١٨٩ »

وكان أول خروج هؤلاء الازارقة في اربعين رجلا وذلك في خلافة يزيد الاول . اما مقرهم فكانت الاهواز . وهم يلقبون بالازارقة نسبة لرئيسهم نافع بن الازرق . والغريب ان ابن الزبير ، حبا في توطيد سلطانه وتمسكنا بسيادته ودعوته تجاهد الامويين ، أظهر انه على مبادئهم وأرائهم « فاعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش » ، الطبري ٢٧ ص ٥١٦ ، فقاتلوا في صفوفه واستماتوا في الدفاع عن البيت الحرام وكانوا من اشد اعداء الامويين . وقد عرفوا عليه

ولحقوا به وانتصروا له « الولاة والقضاء ص ٤٠ - ٤١ ». فكانوا ركنا
متينا من اركان جيشه . اسكنه لما مات يزيد الاول ترزح كابوس الامويين
عن صدر ابن الزبير فأخذ يناقشهم في مبادئهم ويجرب ان يجلبهم الى حظيرة
الجماعة الاسلامية حتى انه صرح مرة لما جادلهم في عثمان بقوله « اني ولي لأبن
عنان في الدنيا والآخرة وولي اوليائه وعدوا اعداءه ، الطبري S2V1
ص ٥١٧ » حقا لقد جاء هذا التصريح مابقاً لأوانه اذ جعل هذه الطاقة
تناسبه العداء وتسكيده مع انه كان في حاجة ماسة الى من ينصره ويأخذ بيده
امام الحكومة الاموية .

قلنا خرجت طاقة الازارقة في ولاية يزيد الاول فعهد هذا الى عبيد الله بن
زياد والي البصرة يومئذ ان ينازلهم ويعاملهم بالشدة ، فكان لا يدع احداً ممن
يتهم برأي الخوارج الا قتله حتى قتل بالهمة والظنه تسعمائة رجل حسبما يروي
لنا الدينوري « ص ٢٧٨ - ٢٨٢ » . والحقيقة ان هذه السياسة
القائمة على الدم لم تمت حركه الازارقة ولم تخففها بل زادت بها قوة ونشاطاً
خصوصاً حينما توفي يزيد وأجبر ابن زياد على الهرب الى دمشق خوفاً على
حياته . فبدلاً من ان يكون الازارقة في العراق وفارس رجال ابن الزبير وسيفه
البتار اصبحوا عليه يناوئونه ويضربونه الضربة تلو الضربة . فنستنتج ان

الازارقة بعد ان كانوا من احزابه اخذوا يفتون في عضده ويخنقون دعوته في
البصرة وفارس .

لما ضعفت الدولة الأموية عن القيام بحماية العراقيين خصوصاً سكان
الجنوب راسل اهل البصرة ابن الزبير يعلمونه ان لا امام لهم ويسألونه حمايتهم
وصدأ الخوارج عنهم ، وهم لقاء ذلك ينصرونه ويثبتون اقدمه ويجهزون له
الجيوش . فبعث اليهم المهلب بن ابي صفرة القائد المشهور — وسنصف فتوحه
في وقتها — من خراسان فقدم البصرة وبث روح الاقدام والجهاد في القبائل
والعشائر واشترط عليهم الطاعة ، وان له ما يغلب عليه من البلاد فقبلاوا ذلك درأ
الالاخطار المحدقة بهم وتخلصاً من القوضى . وكان المهلب نزر الكلام الا فيما
يختص بمصلحته فصعد منبر المسجد الجامع في البصرة وألقى خطبته التي أملئ
بها شروطه وهي : « انه قد غشيك عدوٌ جاهد سيفك دماً ، كم وينتهب اموالكم ،
فان اعطيتموني خصالاً اسألكموها قتُ لكم بجرهم واستغنت بالله عليهم . . .
انتخب منكم أوساطكم لا الغني المثلث ولا السبوزات الخنف وعلى ان لي
ماغلبت عليه من الأرض ، وألا أخالف فيما ادبر من رأيي في حربهم واترك
ورائي الذي اراه وتديرى الذي ادبره . الدينوري ص ٢٠٨ — ٢٨٢ »

بلغت الحملة التي قادها المهلب لقتال الازارقة نحواً من عشرين ألفاً

فواقعتهم في نهر «تسترت» فبرز منهم ثم في «نسلي» من أعمال الأهواز فبرز منهم أيضاً وقتل زعيمهم نافع بن الأزرق، وما زال يلاحقهم من بلد إلى بلد حتى ضربهم في سابور من أرض فارس . وقد ضيق عليهم وسدَّ السبل دونهم بعد ذلك في أيام عبد الملك بن مروان حتى قال أحدهم :

حتى متى يتبعنا المهلبُ
ليس لنا في الأرض منه مهربُ

ولا السماء ابن المذهب (الدينوري ص ٢٨٦)

والغريب أن هؤلاء الأزارقة كانوا يناضلون نضالاً هائلاً وينتخبون الزعيم اثر الزعيم بعد مقتلهم، فترى قائمة من أسماء قادتهم بعد مصرع ابن الأزرق أشهرهم عبد الله بن ماحوز وقطري بن الفجاءة، وعبدربه وغيرهم . والحقيقة التي نريد تأييدها من كلامنا هذا كله ان الأزارقة كانوا يداً قوية في نجاح دعوة ابن الزبير في اول امرها . وكان بوسعه ان يحتفظ بهم لو احسن اساليب السياسة فأجلَّ المناقشة معهم في مبادئهم او غضَّ الطرف عنها فيظنون جنده القوي في الساحة العراقية ومدده العظيم في قتال بني امية . لكنه اخطأ في مناقشتهم ومجادلتهم في آرائهم فحملوه احمالاً باهضة لا قبل له بها اذ اثاروا عليه حرباً ضروساً في العراق وفارس كفتته دماء غزيرة واموالاً كثيرة كان بوسعه ان يتجنبها .

السبب الثامن : الحركة المختارية تنشط ابن الزبير :

يتحقق الباحث عن الحركات الثورية التي قامت في صدر الاسلام انها نهضت تدفعها عوامل سياسية حجة قد لا تظهرها في البدء ، انما تجعل الدين ستارها فتضرب على وتره فتبرز عاطفات التعصب السكائمة في النفوس ، وتستهيوي عامة الناس فتجعلهم آلة تسيرهم حسبما تشاء ، ونعاجاً تدبجهم على مذبح الجشع والمصلحة .

رأى المختار بن ابي عبيد الثقفي حبل الامن مضطرباً في الاقطار العربية ومطامع الزعماء تقرض بمقراضها جسم المملكة الاموية ، فغلب عبد الله بن الزبير على الحجاز والعراق ونجدة الحروري على العروص وعبد الله بن خازم على خراسان ، فتحركت في نفسه محبة السيطرة والسيادة فدعا القوم في العراق الى الثورة فأجابوه . وسنيين لك الاسباب التي رفعت شأنه وقدرت لحركته النجاح نوعاً .

هبة المختار السياسية : نرى المختار لأول مرة على مسرح التاريخ حينما نزل مسلم بن عقيل رسول الحسين في داره ، وجعل يبايع له ويدعو الناس الى معونته وذلك قبيل التجاء مسلم الى دار هاني بن عروة المرادي . ثم كانت فاجعة كربلاء ، فقبض عليه عبيد الله بن زياد وضربه وسجنه وأهانته في كبريائه . فاستعطف عبد الله بن عمر صهر المختار يزيداً الاول ورجا منه اخلاء سبيله مشروطاً

ان لا يتداخل في سياسة الحكومة فأجابه الى ذلك على ان يخرج من العراق وان لم يفعل برئت منه الذمة . فرحل الى مكة وفي نفسه من الحقد والضعينة على ابن زياد ماجعله ينتهز كل فرصة للايقاع به والانتقام لانتفته حتى لقد قال : « قتلني الله ان لم أقطع انا مله . . واعضائه ارباباً ارباباً » الطبري ،

٧١ ص ٥٢٤ «

اراد ابن الزبير ان ينتصر بالختار فرحب به واوسع له وغمره باحسانه وعطفه ، فاشترى منه دينه على الشروط الآتية ، اولاً : يبيع المختار ابن الزبير على ان لا يقضي الامور دونه . ثانياً : يكون المختار الوزير الاول في دولته فلا يأذن لأحد قبله ويوله على احسن عمله . وقد ابلى المختار البلاء الحسن في اعداء ابن الزبير وشهد الحصار الاول يوم أحرق البيت وخدم رئيسه خدمة صادقة . والظاهر ان المختار تألم المأ شديداً من ابن الزبير لأنه لم يوف له بالعهود التي اخذها على نفسه فلم يستعمله وجعل يقدم عليه من هم دونه منزلة وكفاءة . فأقام يستطلع اخبار السكوفة ويتزود بالعلوم الكثرية عنها الى ان اوتهن فرصة قيام حزب التوابين فرحل اليها وجعل يدس الدسائس بين اعضاء هذا الحزب حتى انشعبت اليه فرقة تؤيده وتعظمه وتبث دعوته .

قضت الدولة الأموية على حركة التوابين في معركة عين الوردة ولسكنها

لم تقض على الأحقاد المتأصلة في نفوس الشيعة. فكانت تغلو مراراً على الضعيفة
 في صدورهم اذ لا قوام من المذلة والاهانة بعد معركة كربلاء وعين الورد
 ما جعلهم مستعدين استعداداً تاماً لقبول زعيم نشيط يدير دفة سياستهم ويستلم
 زمام امورهم. وقد كان المختار شاباً طموحاً عالي الهمة (الفخري ص ١١١)
 لم تقترهمة عن جمعهم تحت لوائه فتكملت مساعيهِ بالنجاح. وانا مودون
 لك الاسباب التي اعانتته على الثورة وهاكها:

اولاً المختار يطلب بثار الحسين ويدعو لأبن الحنفية:

لاريب ان السبب الرئيسي الذي دفع المختار للثورة هو محبته للزعامة
 والتغلب كما نوهنا سابقاً. وكان لا يتأتى له النهوض ان لم يجعل طلب الثار
 للحسين وارجاع الامامة الى آل بيت النبي غاية التي ليس وراءها غاية.
 فنشر هذه الدعوة بين الموتورين من الشيعة فلاقى ارضاً خصبة وجواً صالحاً
 للنمو والحياة. ويؤكد انا الشهرستاني ان امره لم ينتظم الا بانتمائه الى محمد
 بن الحنفية اخي الحسين علماً ودعوة ولاشغاله بقتال الذين أجمعوا على الفتك
 بآل البيت (الشهرستاني ج ١ ص ١٩٧). فدعا الناس قائلاً (ان
 المهدي ابن الوصي محمد بن علي بعثني اليكم اميناً ووزيراً ومتخباً واميراً وأمرني
 بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته والدفع عن الضعفاء، الطبري ١٧٢ ص ٢٠٧)

ص ٥٣٤) . ومن اقواله يدعوهم ايضاً : (اني قد جئتكم من قبل ولي الأمر ومعبد الفضل ووصي الوصي والامام المهدي بأمر فيه الشفاء وكشف الغطاء وقتل الأعداء وتمام النعماء اني انما اعمل على مثال قد مثل لي وأمر قد بين لي فيه عز وليكم وقتل عدوكم وشفاء صدوركم فاسمعوا مني قلوي وأطيعوا أمري ثم أبشروا وتباشروا فاني لاسم بكل ما تأملون خير زعيم ، الطبري ٢٧٧ ص ٥٢٤) . ونشط في بث دعوته نشاطاً عظيماً بعد مقتل سليمان بن 'صرذ' ورجوع فلوله الى اوطانها فكتب للتوابين يعزيمهم بمصرع ابطالهم ويهينهم بما نالوه من الأجر والفوز عند ربهم ويدعوهم الى الانضمام اليه ليجرد في عدوهم السيف ويثأر لأبن بنت الرسول . وهالك رسالته لشيعته : (. . . اما بعد فان الله اعظم لاسم الأجر وخط عنكم الوزر بمنارقة القاسطين . . . فاني لو قد خرجت اليكم جردت . . . في عدوكم السيف . . . فوجب الله بمن قارب منكم واهتدى ولا يبعد الله الا من عصى واني ، الطبري ٢٧٦ ص ٥٩٩) فانضم اليه قسم كبير منهم كانوا من اشد انصاره في حركته واعظم احزابه في حروبه .

لقد كان المختار اعظم خطورة في دعوته من سليمان بن 'صرذ' اذ اجتمعت فيه صفات الزعامة فخافه اولياء ابن الزبير في السكوفة فقبضوا عليه

وأودعوه السجن . والحقيقة التي لا شبهة فيها ان المختار اراد الوثوب على العراق والتخلص من النفوذ الزبيري بينما كان سليمان يسعى لقتال بنى امية اعداء ابن الزبير . فشتان بين الزعيمين فان لكل منهما مبدءا كما ترى .

أثقت الشيعة على القيام بتأييده فصار دعاة يبائعون له وهو مسجون الى ان أخلي سبيله . ولا شك في عرفنا ان المختار اخذ يدعو لابن الحنفية ، وابن الحنفية جاهل تمام الجهل ما ينتحله باسمه . وذلك لضعفه وأثره الخول على الشهرة . ان هذا الضعف في زعماء آل البيت كان من اكبر المصائب على الاسلام اذ جعل لأحزابهم واصحاب النفوذ والمطامع من رجالاتهم القمص الكافية لادعاء مبادي باسمهم لم يفكروا بها ولم تخطر لهم على بال . فاستثمر المختار بعض التصريحات التي صرح بها ابن الحنفية بعد مقتل الحسين وأخذ يقول للناس ان امامكم ابن الحنفية يدعوكم لطلب الثأر لآل بيت نبيكم وقس على ذلك من الاقوال المؤثرة المؤلفة . ومن هذه التصريحات ما قاله ابن الحنفية لأحد الوفود العراقية في الحجاز : (. . .) واما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم الى الطلب بدمائنا فوددت ان الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء . من خلقه ، الطبري ٤٢٧ ص ٦٠٧) . وقد استمال المختار هذه الوفود فأكدت صدق دعوته للناس بقبولها : (كننا احببنا ان ننبت

لأنفسنا خاصة ولجميع اخواننا عامة فقدمنا على المهدي ابن علي فسألناه عن
 حزبنا هذا وعن ما دعانا اليه المختار منها فأمرنا بمظاهرتة وموازرتة واجابته
 الى ما دعانا اليه فأقبلنا طيبة أنفسنا منشرة صدورنا وقد اذهب منها الشك
 والغل والريب ، الطبري ٢٦٧ (٢ ص ٦٠٨) وما فتى المختار منذ
 ذلك الحين يلقي الخطب اثر الخطب في المجالس وكلها ترمي الى الدعوة لابن
 الحنفية بواسطته . فترى ان الرجل عرف كيف يستفيد من اقوال ابن الحنفية
 المهمة الصادرة عن قلب طيب ونفس زكية تحب العافية وترجو السلام
 وتود ان لا تسفك الدماء باسمها . فأعلن عن رغبته هذه بكتاب بعثه له :
 (. . .) وان احب الامور كلها الي ما اطيع الله فيه فأطع الله ما استطعت
 فيما علنت واسررت واعلم اني لو اردت القتال لوجدت الناس الي سراعاً والاعوان
 لي كثيراً ولكنني اعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين
 الطبري ٢٧١ (٢ ص ٦٩٢) . واوصاه مرة بالكف عن القتال فروى
 الطبري انه ذكر : « قل للمختار فليثق الله وليكفف عن الدماء ،
 ٢٧١ (٢ ص ٦٩٢) . »

ثانياً المختار يستميل كبار الزعماء الى حزبه ويطمعهم بالقوائد المالية :
 علم المختار حق العلم ان لا سبيل الى اجتذاب قلوب الزعماء ارباب المصالح

الا بمنحهم ما تصبو اليه تقوسهم من المناصب وما تنوق اليه ذواتهم من الارباح
 المادية فكتب رسالة عن لسان ابن الحنفية الى ابراهيم بن الأشتر سيد الكوفة
 وبها يؤكد له انه ان نصره واطاعه وطلب دماء أهل بيته فله كل ثغر ظهر
 عليه فيما بين الكوفة واقصى بلاد الشام . فاستماله وبسط له يده فبايعه على
 الجهاد في اعدائه . وليس بوسعنا ان نمر بهذه الرسالة دون ان نثبت انها
 مزورة ليس عليها مسحة من الحقيقة . نستشهد على ذلك بما قاله الشعبي وهو
 يتهم المختار بان الكتاب مزور وان من شهد بصحته كاذب . قال الشعبي :
 « أنا والله لم على شهادتهم منهم غير انه يعجبني الخروج وأنا ارى رأي
 القوم واحب تمام ذلك الأمر فلم اطلعه على ما في نفسي من ذلك ، الطبري
 ١٧١ ٨٢ ص ٦١٢ . اما نص الكتاب الذي ادعى المختار انه من
 ابن الحنفية فما كه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد المهدي الى ابراهيم
 بن مالك الأشتر . سلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو . اما بعد
 فاني قد بعث اليكم بوزيري واميني ونجبي الذي ارتضيته لنفسي وقد امرته
 بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي فانضض معه بنفسك وعشيرتك ومن
 اطاعك فانك ان نصرتني واجبت دعوتي وساعدت وزيري . كان عندي
 بذلك فضيلة ولك بذلك اعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومينى وثغر

ظهرت عليه فيما بين الكوفة واقصى بلاد أهل الشام على الوفاء بذلك على عهد الله فان فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل السكراة وان ايت هلكت هلاكاً لا تستقيله ابداً والسلام عليك، الطبري، ٧٦٧ ص ٦١١ «
 « الدينوري ص ٢٩٧ » .

ثالثاً — المختار يؤمن الاشراف ويعدل بين الناس :

لم يكده المختار يعلن عن عزيمته في طلب الثأر للحسين وارجاع الامامة الى ابن الخنفية حتى أحسن السيرة جهده فقعده للعدل وأمن الناس وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأدنى الاشراف فكانوا جلساءه وحداثة. فظنوا أنه صادق النية فيما رعى اليه فتهافتوا عليه لكن العقد القريد يقول ان هذه كلها كانت مظاهر لأدراك بغيته فلما أدركها بانته مقاصده السياسية، (العهد القريد ج ٣ ص ١٥٢)
 رابعاً — الامويون لا يحسنون صنماً بانتخاب عبيد الله بن زياد للاستيلاء على العراق . العراقيون يبغضون عبيد الله ، يلتمهون حول المختار :

كلنا يعلم سياسة الشدة التي جرى عليها عبيد الله بن زياد في العراق، تلك السياسة التي ادت الى قتل الحسين بن علي. فكرهه الناس وأرادوا القتل به بعد وفاة يزيد الاول فتمكن من الهرب اذ التجأ الى الازد . وقد قدم به هؤلاء الى الشام آمناً مطمئناً، « الدينوري ص ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ » زد على هذا

استعماله الدهاقين من القوس لجباية الاموال لأنهم ابصر بالمسائل المالية في عرفه من العرب وأوفى بالامانة وأهون بالمطالبة . وكان عبيدالله بن زياد بخيلا فحرب ان لا ييندل في العطاء اذا تمكن من ذلك . ان كل هذه العوامل دفعت العراقيين الى الالتفاف حول المختار ومناصرته

خامساً — المختار يستفيد من ثارات العصبية القبائلية :

قلنا فيما سبق ان العصبية القبائلية كانت داء وبيل . ولا نزال نذكر معركة مرج راهط وما احدثت اليمن فيها بقيس من المنلة الشنيعة . فلما قدم جيش عبيدالله بن زياد من قبل مروان بن الحكم لأخضاع العراق ومرمر الجزيرة اصلاه اهلها القيسيون ناراً حامية . وذلك لأنهم اهل خلاف لمروان وآل مروان ، ولأنهم ارادوا الانتقام ايوماً راهط . ان هذه الحرب التي اشعلها القيسيون على اليمنيين انصار مروان كلفت عبيدالله ثمناً باهظاً اذ سفكت فيها دماء غزيرة ، واخرته سنة كاملة عن القدوم الى العراق . وقد تمكن المختار من الاستعداد خلال هذه المدة استعداداً كاملاً .

سادساً — المختار يداري ابن الزبير لئلا يصبح بين نارين :

ثار المختار في العراق وطرده الحامية الزبيرية واعلن استقلاله وهو متأكد كل التأكد انه لا بد له من مناجزة عدوين قوين طامعين في تثبيت سلطانهم في بلاد الرافدين ، الاول بنو امية في الشام والثاني ابن الزبير في الحجاز . اما بنو امية

فمن الصعب المفاوضة معهم لكره الشيعة لهم وما ارتكبه ولاتهم من المظالم في المصريين حسب اعتقادهم . واما ابن الزبير فقد تسهل المحاربة معه لان المختار سيقوم بقتال اعدائه الامويين الذين كادوه كيداً عظيماً فان انتصروا على المختار تخلص منه وان انتصر عليهم كان اهلون شوكة منهم عليه . فتوادعا حتى يستجمع لأحدهما الامر فيثب بصاحبه وهالك ما كتبته المختار لابن الزبير بهذا الشأن : (. . .) اما بعد فقد عرفت مناصحتي اياك وجهدي على أهل عداوتك وما كنت اعطيتني اذا انا فعلت ذلك من نفسك ، فلما وفيت لك وقضيت الذي كان لك علي خست بي ولم تف بما عاهدتني عليه ورأيت مني ما قد رأيت فان ترد مراجعتي اراجعك وان ترد مناصحتي أنصح لك ، الطبري

٢٧٧ S ص ٦٨٧ «

سابعاً - المختار يدعي مبادئ جديدة في الاسلام . كرسي علي عند شيعته كالتابوت عند بني اسرائيل :

احب المختار أن يصبغ مبادئه السياسية بصيغة دينية تؤثر في قلوب العامة من اتباعه فادعى انه يوحى اليه واخترع « مبدأ البدأ » ويفسره لنا الشهرستاني بقوله : « ومن مذهب المختار انه يجوز البدأ على الله تعالى والبدأ له معان ، البدأ في العلم وهو ان يظهر له خلاف ما علم ، والبدأ في الارادة وهو ان يظهر له صواب على خلاف

ما اراد وحكم ، والبدا في الامر وهو ان يأمر بشي ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ،
وانما صار المختار الى اختيار القول بالبدا لانه كان يدعي علم ما يحدث من الاحوال
اما بوحى يوحى اليه واما برسالة من قبل الامام ، فكان اذا وعد اصحابه
بكون شي وحدث حادته فان وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه
وان لم يوافق قال قد بدا لربكم الشهرستاني ص ١٩٧ - ١٩٨ ثم أتى
بكوسى قديم قد غشاه وعصبه بالحرير والديباج وزينه بانواع الزينة . وكان
يخرج به على بغل يسكه عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة ، وادعى ان به
قوة معنوية فاذا حارب خصومه ووضع في برامج الصف فلهم الظفر والنصرة
لأن فيه « السكينة والبقية والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم
الشهرستاني ص ١٩٨ - ٢٠٠ . وطالما ذكر لهم ان هذا الكرسي محل
فيهم كمحل التابوت في بني اسرائيل . واذا علمنا بعد ذلك ان المختار
اخذ يعتمد على الاعاجم القرس فلا بد ان يأتي لهم بمثل هذه المبادي القرية
من افهامهم والمغروسة في دماغهم .

والشعراء العرب قصائد حجة في وصف هذا الكرسي وهي كلها تقريبا
تظهر لنا كفرهم به واستصغارهم اياه . قال أعشى همدان :
شهدت عليكم انكم سبابة واني بكم يا شرطة الشرك علوف

وأقسم ما كرسيم بسكينة وان كان قد لقت عليه اللقائف
وان ليس كالتابوت فينا وان سمعت شبام حواليه ومهد وخارف
وقال المتوكل الليثي :

أبلغ ابا اسحق «المختار» ان جثته اني بكوسيم كافر
ذكرنا لك الاسباب التي وفقت المختار في حركته بعض التوفيق
وجعلته يستقل بالكوفة استقلالاً لاشائبة عليه . ولقد كان بوسعه لو احسن
السياسة في هاتيك الربوع ان يتمتع زمناً طويلاً بسيادته وسلطانه . فارتكب
سلسلة من الاغلاط القادحة رمت بن من شاهق مجده الى الحضيض . فقتلت
حركته بعد ان كاد يقتطف ثمارها .

اعتمد المختار في دعوته على الفرس بدلا من العرب فأخذ يقربهم ويسند
اليهم المناصب ويبدل لهم في العطاء . وكان ذلك بعد اشتد ساعده وعظمت
هيئته . فاعتاظ اشراف الكوفة من عماله وأضمرؤا له أن السوء . واجتهدوا في اعدامه
واغتياله . فكادهم كيداً عظيماً بعد ان غمرهم باحسانه وعيهم بعدله وطلب قتله
الحسين منهم فثاروا به ثورتهم المشهورة والمعروفة بشورة اهل السبيع والكناسة
سنة (٦٦ هـ و ٦٨٥ م) (محلقتان في الكوفة) فأخذها وضرب عنق كل من
شهد مقتل الحسين ، او اشترك في التدبير عليه . وقامت طائفة الموالي والعبيد

تنتقم من اشراف السكوفة لأن فئة كبيرة منهم آذتهم وعاملتهم فيما سلف معاملة قاسية . فاستفاد المختار من عداء طبقة الموالي لطبقة الاشراف وعبارة ثانية من عداء العرب الاشراف للفرس الموالي . فجعل يوسع شقة الخلاف بين الطرفين ويوغر الصدور بالأحتماد لتكون له الطاعة العليا . قال الدينوري : « ٠٠٠ واكثر من استجاب له — للمختار — همدان وقوم كثير من ابناء العجم الذين كانوا بالسكوفة فقروض لهم معاوية وكانوا يسمون بالحمراء . وكان منهم بالسكوفة زهاء عشرين الف ٠٠٠ وجمع الف رجل من القعدة بالمعول وتتبع دور من خرج الى قتال الحسين بن علي فهدمها وجعل يستقصي من ظفر به منهم وامر ان يكون عطاءهم واموالهم لأبناء العجم الذين كانوا معه ٠٠٠٠ ومكث المختار يطلب قتلة الحسين ونجى اليه الاموال من السواد والجبل واصبهان والري واذريجان والجزيرة ثمانية عشر شهراً ، وقرب ابناء العجم وفرض لهم ولاؤهم والاعطيات وقرب مجالسهم وباعد العرب واقصاهم وحرهم فغضبوا من ذلك ، الدينوري ص ١٩٧ — ٣٠٦ »

ويقول الطبري في هذا المعنى : (المختار معه عبيدكم — عبيداهل السكوفة — ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة وعبيدكم ومواليكم اشد حنقا عليكم من عدوكم ٠٠٠٠ وانظروا كل من شهد منهم — من اشراف السكوفة — قتل الحسين فاعلموني

به فأخذوا لايء عليه برجل قد شهد قتل الحسين الا قيل له هذا ممن شهد قتله فيقدمه فيضرب عنقه حتى قتل منهم قبل ان يخرج مائتين وثمانية واربعين قتيلا . وأخذ اصحابه كلما رأوا رجلاً قد كان يؤذيهم او يماريهم او يغريهم خلوا به فقتلوه حتى قتل ناسٌ كثير منهم وتجرد المختار لقتلة الحسين فقال ما من ديننا ترك قوم قتلوا الحسين يمشون احياء ن الدنيا آمنين الحمد لله الذي جعلني سيفاً ضربهم به ورحماً طعنهم به وطاب وترهم والقائم بحقهم . انه كان حقاً على الله ان يقتل من قتلهم وان يذل من حبل حقتهم فسموهم لي ثم اتبعوهم حتى تقنوهم اطلبوا في قتلة الحسين فانه لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أظهر الارض منهم وأنقي مصر منهم ، راجع الطبري S2 V1 ص ٦٥١ و ٦٦٠ و ٦٦٧)

فترى ان الضعف الداخلي كان جلياً كل الجلاء في الحركة المختارية . فالتجأ اشراف الكوفة الى مصعب بن الزبير والي البصرة لاختيه عبد الله بن الزبير . وجعلوا يعينون الزبيرين بكل ما لديهم من مال وقوة ، ويشجعونهم على تجهيز حملة ينتقمون بها لسيطرتهم المضاعة واملاكهم المفقودة . فتربص ابن الزبير ليرى ماسيكون بين بني أمية والمختار .

وجه المختار لقتال عبيد الله بن زياد «يزيد بن أنس» مع ثلاثة آلاف فارس

فالتقى مع مقدمة الجيوش الاموية في (بنات تلى) من اعمال الموصل فقتل
وانهزم اصحابه ، واخذوا يتسللون ويرجعون الى الكوفة . وقد اسقط في يد
المختار آتشد الا ان ابن الاشر الشجاع جمع صفوفه وخرج اليهم بجيشه ، وأمر في
السير حتى جاوز الحدود العراقية واوغل في الموصل فالتقوا في (بار نيشا) على
الخانزر — وبينها وبين الموصل خمسة فراسخ — وكانت جموع ابن الاشر
من الاعاجم حتى لقد روى لنا الدينوري ان عمير بن الحباب احد قادة الشام
قال له قبل المعركة : (لقد اشتد غمي منذ دخلت عسكرك وذلك اني لم اسمع
فيه كلاماً عربياً وانما ملك هؤلاء الاعاجم وقد جاؤك صناديد اهل الشام
وابطالهم وهم زهاء اربعين الف رجل . قال ابراهيم : وما قوم اشد بصيرة
في قتال اهل الشام من هؤلاء الذين تراهم معي وانما هم اولاد الاساودة من
اهل فارس والخراسان ، الدينوري ص ٣٠٢) . وقد انضم عمير هذا الى ابن
الاشر وكان قيسياً وفادى في قيس الثارات مريج راهط فتكسوا اعلامهم
وانهزموا فاعمل ابن الاشر ورجاله السيف في الامويين فذهب الرعب في
صفوفهم فقتل عبيد الله بن زياد والحسين بن نعيم وغيرهما من القادة المشهورين
وغلب ابن الاشر على الموصل وبعث عماله على سنجار ودارلوما والاهل من
ارض الجزيرة . (للسعودي ص ٣٠٢)

سطع نجم المختار في الديار العراقية بعد معركة الخازر وتشيتت شمل الجيش الاموي ومقتل قائده عبيد الله بن زياد . ولم يبق أمامه لتأمين استقلاله الا طرد الزبيريين من البصرة وكانوا اصحاب الحول والقوة في الجنوب . كذلك ابن الزبير فانه بعد انكسار الامويين امام المختار رأى ان مجابهته واقعة لا بد منها . فاخذ كل من القرينين يستعد للوثوب بصاحبه ولضربه ضربة قاضية لا يرجو الحياة من بعدها . فارسل ابن الزبير أخاه مصعباً والياً على البصرة لينظر اعمال المختار ويراقبها مراقبة شديدة . وقد كان الاشراف الكوفيون يستنجدون مصعباً على قتال المختار ويهيمون له أسباب الفتح وبشون الدعوة ضد المبادئ الدينية الجديدة التي قام يؤيدها ، ويقولون انه من الذين يودون القضاء على النفوذ العربي واستبداله بالنفوذ الفارسي . أما يد الزبير البطاشة في قتال المختار فكان المهلب بن أبي صفرة صاحب الوقائع المشهورة مع الخوارج فاستقدمه من فارس ومعه الجموع العديدة والاموال الكثيرة . ويظهر لنا ان ابن الأشرع بعد فتحه الجزيرة اراد استثمار الارباح التي وعده بها المختار في الموصل آنفاً فتقاعد عن مساعدته وتهاون في أمره فأجبر على إسناد القيادة في جيشه لأحمر بن شبيب فالتقى الجيشان في (المدار) وتزاحما ثم اشتبكوا في معركة دموية قتل بها القائد بن شبيب وقسم عظيم من جموعه ، وتراجعت البقية

الباقية الى الكوفة . ولو دققنا في الاسباب التي اادت الى هذا الانكسار
 المرع لتحققنا انها ترجع للمنافسة الشديدة بين العرب الأشراف أصحاب
 الأقطاعات الواسعة والموالي عبيدهم . فأحب الكوفيون ان ينتقموا لأنفسهم
 فاستألو عبدالله بن وهب بن أنس أحد قادة المختار - وهو من اشراف الكوفة
 ايضاً - وأوعزوا اليه ان يوقع بالموالي والعبيد الفرس فأشار على أحر بن شميظ
 ان لا يركب هؤلاء الخيل ليثبتوا في ساحة الوغى لدى اشتداد القتال وليصابروا
 حين الازمة فلا يولوا الادبار على متونها . فعمل برأيه وكر لايتهمه ففتكوا
 بهم فتكا ذريعاً . ويثبت لنا الطبري مناصحة عبدالله بن وهب بن أنس
 لابن شميظ وقوله له فيروي : (ان الموالي والعبيد آل خوزر عند المصدوقة
 وان معهم رجالا كثيراً على الخيل وانت تمشي فرهم فليزولوا معك فان لهم
 بك اسوة فاني أخوف إن طوردوا ساعة وطوعنوا وضربوا ان يطيروا على
 متونها ويسلموك ، وانك ان أرجلتهم لم يجدوا من الصبرُ بدأ . وانما كان هذا
 منه غشا للموالي والعبيد لما كانوا لقوا منهم بالكوفة فأحب ان كانت عليهم
 الدبرة ان يكرهوا رجالا لاينجوا منهم احد ولم يتهمه ابن شميظ وظهر انه انما
 اراد بذلك نصحه ليصبروا ويقاتلوا ، الطبري (٧٢١ ص ٢٧٦) وقد
 انتقم الأشراف الكوفيون من الموالي انتقاماً هائلاً فلم يدركوا منهزماً الاقتلوه

ولا أسيراً الا ضربوا عنقه .

فلما علم المختار ما أصاب جيشه في (المدار) صمد لهم في (حروراء) أو (نهر البصريين) وحال بينهم وبين السكوفة وحصن قصره فيها وأدخل اليه المؤن والذخيرة . فحمل عليه أصحاب مصعب حملة شعواء وانقضوا على رجاله وأعملوا فيهم السيف حتى ليصف بعض المؤرخين حالهم بقوله (كأنهم أجرة فيها حريق ، الطبري ٧١ ص ٨٢٧) .

فلم يبق امام المختار الا التحصن في قصره ومناوشة اعدائه ولكن كيف يتأتى له الفوز والثبات امام مصعب وأهل السكوفة انفسهم من اعظم اعدائه واشدهم بلاء عليه . فكانت لا تخرج فرقة من رجاله من القصر لقتال الزبيريين الا رموهم بالحجارة وصبوا عليهم الماء القدر . ثم قطع مصعب عنهم الماء والمادة . اما جيشه فكان يأتيه الامداد بواسطة السفن في القوارب . ويروي لنا المؤرخون انه كان يبني سفنه هذه من قصب واسط ولم تكن بنيت بعد (راجع عن واسط في معجم البلدان ص ٨٨٢ : ج ٤) واستحكمت الضائقة في صفوف المختار حتى لقد كانت نساء الجند تأتي أزواجهن ببعض القوت فأجبر مصعب ان يضع الحرس لمنع النساء من القدوم نحو الحصن . ويذكر لنا الطبري ذلك فيقول : (. . . فكانت معاشهم افضلها من انسايم فكانت المرأة تخرج

من منزلها معها الطعام واللاطف والماء قد التحفت عليه فتخرج كأنما تريد المسجد
 الأعظم للصلاة وكأنها تأتي أهلها وتزور ذات قرابة لها فإذا دنت من القصر
 'فتتح لها فدخلت على زوجها وحيها بطعامه وشرابه وإلقاه ٠٠٠ فجعل المصعب
 دورياً حتى يمنع من يأتيهم من أهلهم وابنائهم ٠٠٠ وكان القوم إذا اشتد
 عليهم العطش في قصرهم استقوا من ماء البئر ثم أمر لهم المختار بعسل فصب
 فيه ليغير طعمه فشربوا منه ، الطبري / VII ٢٢٧ ص ٧٣٤)

ثم استقل المختار وخرج من قصره مع بعض جنده فخرّ صريعاً .
 ونزلت بقية الجيش على حكم مصعب فأعدمها وجالها من العجم . وكان يود
 لو يبق على العرب ويطلق لهم الحرية فتغلبت عليه العصبية الدينية دون العصبية
 الجنسية فساقهم جميعاً للموت . وكان مقتل المختار في ١٤ رمضان سنة
 ٦٤هـ و (٦٨٣ م) وذلك بعد ان ثبت في قصره نحرأ من أربعة اشهر .

والخلاصة اننا قد اسهبنا لك في وصف الأسباب التي دفعت ابن الزبير
 لمطالبة الأمويين وكفاحهم كفاحاً مستمراً . اما سياسة الشدة التي اتبعوها
 فيما بعد فقد جعلت ابن الزبير وامثاله يسقطون امامهم الواحد اثر الآخر
 وسنأتيك في الفصل التالي على ايراد اشكال هذه السياسة وتطوراتها . ا. هـ .

الفصل الرابع

سياسة الشدة ومظاهرها

الاصويون والشدة ، مظاهر سياسة الشدة ، عبد الملك وعمرو بن
سعيد بن العاص ، القضاء على الحركة الزيدية في العراق والحجاز ،
اخفاقات الثورة الاُسَينِيَّة ، الاسباب التي هبَّتْ ثورة ابن الاُسَينِيَّة في
العراق ، الاصويون بسوقون العراقيين دوما للقتال ، قسوة الولاة
الاصويين في العراق ، اشتهر خطاب فائد بن عبد الله القسري في مكة ،
خطب عثمان بن ميان المزي في المدينة ، اشتهر خطب الحجاج بن يوسف
في العراق ، ابن الاُسَينِيَّة طموح يسعى الى التوسُّع ، اضمحلال الولاة
الاصويين في العراق ، تفتُّن سياسة الشدة ، الحجاج بن
يوسف ، ميانة ، اعماله .

أقدم الامويون على اتباع سياسة الشدة والأتهم على الفلنة بعد ان سادت
القوضى في الاقطار العربية وامت الثورة مختلف الساحات الشامية والعراقية
والحجازية . فلو أجلت نظرك في خارطة البلاد الاسلامية لرأيت ان الزعماء
كانوا يمتازون المركزية الاموية نزاعاً عظيماً ويسعون جهدهم للأستقلال والمحافظة
على نفوذهم . فوطد ابن الزبير اركان دولته في الحجاز والعراق وساعد التوابين
وانصار المختار والازرق . فراح هؤلاء جميعاً يلغون بذور الفتنة من أقصى
فارس الى أقصى مصر ويحرضون الناس على خلع الامويين واستئصالهم .
ولمالم يسعوا لأن يضربوا آل امية بعضهم ببعض فازهرت جهودهم وكادت
تثمر لولا سياسة الشدة التي اتبعها عبد الملك بن مروان وولاه .
تظهر سياسة الشدة الأموية حسب اعتقادنا في مظاهر أربعة لابد لنا من
تفصيلها وبيان حقيقتها . فالمظهر الأول هو بطش عبد الملك بن مروان بالزعماء
الشاميين وعلى رأسهم عمرو بن سعيد بن العاص ، اولئك الذين ارادوا
الاحتفاظ بحقوقهم السياسية وابتغوا تحطيم التاج المرواني بآية وسيلة ممكنة .
واما المظهر الثاني فهو الانتقام من الزبيريين واخرلهم انتقاماً هائلاً يريك
ان المصلحة السياسية لا ترحم صديقاً ولا تشفق على خليل بل تدبج كل من
يقف عثرة في سبيلها . واما المظهر الثالث فهو اخفات الثورات الداخلية

واشهرها ثورة ابن الاشعث بالدم والحديد . واما المظهر الرابع فهو اخلاص الولاة
 الامويين وفي طليعتهم الحجاج بن يوسف اخلاصاً تاماً في تنفيذ هذه السياسة .
 تسنم عبد الملك بن مروان عرش الخلافة سنة ٦٦ هـ (٦٨٥ م) فغول
 على البطش باعدائه حيثما كانوا وباشروا الامور بنفسه فلم يكملها الى غيره .
 وما لاريب فيه ان اعتناء عبد الملك بمراقبة كل صغيرة وكبيرة من شؤون
 دولته ايقظ النفوس الماحجة وعرفها معنى التدبير والحزم .

(١) عبد الملك وعمر بن سعيد بن العاص :

لم يكد عبد الملك يدير احكام دولته حتى قام عمرو بن سعيد بن العاص
 -- وهو من الزعماء الأمويين المعروفين الذين كانت لهم يد قوية في تثبيت دعائم
 الحكم الرواني -- يطالب بالخلافة ويدعي انها من حقه وان مروان بن الحكم
 أوصى له بها . وانقسمت الاحزاب الاموية الى فرقتين، فرقة تؤيده وتناصره،
 وفرقة تهوى هوى عبد الملك وتسعى لنشر لوائه . فدخل العقلاء بينهما قبل
 ان تشتعل نيران حرب عديدة طاحنة، وينوا لها ما يصبى الامويين من جراء
 هذه الفتنة واظهروا خطورة موقفهم تجاه الاعداء المحققين بهم . فتوصلوا
 الى عقد معاهدة بين الطرفين موادها ما يأتي :

المادة الاولى : يتفق عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد ان يكونا

مشاركين في الملك فيكون مع كل عامل لعبد الملك شريك لعمر بن سعيد .
 المادة الثانية : يتسمى عبد الملك باسم الخلافة . فإن مات عبد الملك
 فالخليفة من بعده عمرو بن سعيد .

المادة الثالثة : لا يقطع عبد الملك شيئاً دون عمرو بن سعيد ولا ينفذ امرأ

إلا بحضوره » راجع الدينوري ص ٢٩٤ ، وابن قتيبة ج ٢ ص ٢٥ «

لو درسنا هذه المعاهدة درساً دقيقاً لتحققنا ان هذه الشروط التي عقدت
 بين الطرفين لا يمكن تنفيذها اذ لم يسبق ان رأينا في التاريخ الاسلامي خليفتين
 لكل منهما عامل في الولايات . وهل من المعقول ان لا يشتبك انصار الطرفين
 في معارضة بعضهما البعض فتصبح الفوضى هي الحاكمة الناهية بدلاً من السيد
المطلقين . ثم اننا لو اضعنا هذا الى ما نعرفه من صلابة عبد الملك وجهه الشديد
 لادارة زمام الدولة بنفسه لتأكدنا ان عبد الملك لم يقدم على تصديق هذه
 المعاهدة الا ليطاول عدوه ويجد فرصة ينتهزها ^{عليه} للوثوب . قال الدينوري في
 هذا المعنى : (.....) وكان روح بن زنباع من أخص الناس بعبد الملك فقال له
 وقد خلا به يوماً يا امير المؤمنين هل من رأيك الوفاء لعمر بن سعيد ، فقال ويحك يا ابن
 زنباع ، وهل اجتمع فخلان في هجمة قط الا قتل احدهما صاحبه ، الدينوري
 (ص ٢٩٤) وكان عمرو بن سعيد رجلاً معجباً بنفسه متهاوناً في أمره مغتراً

باعدائه فساعد ذلك عبد الملك على كيدته والتدبير عليه ، (الدينوري ص ٢٩٤)

صمم عبد الملك على اغتيال عمرو بن سعيد بن العاص فأدنى مجلسه

وقربه وأحسن اليه ولم يرد له أمراً فارتاح هذا لسياسته ، فدعاه مرة الى

قصره فقدم آمناً مطمئناً فغدر به وذبحه عبد الملك بيده ذبح النعاج . ولما

قدمت فئة من انصاره لتثأر له رمى عبد الملك بيدر الأموال اليها مع رأس القتيل

فاهتموا بجمعها والتقاطها . فكان للاصفر الربيعان التأثير الكبير على نفوسهم

حتى انهم لم يخفوا بالراس . وقد وصف لنا الطبري والدينوري هذا الحادث

وصفاً دقيقاً فقال الأول : (بعث عبد الملك الى عمرو أن اثني ٥٠٠٠ ومضى

في مائة رجل من مواليه وقد بعث عبد الملك الى بني مروان فاجتمعوا عنده

فلما بلغ عبد الملك انه بالباب أمر أن يحبس من كان معه وأذن له فدخل ولم

تزل اصحابه يحبسون عند كل باب حتى دخل عمرو قاعة الدار وما معه الا

وصيف له ، فرمى عمرو ببصره نحو عبد الملك فاذا حوله بنو مروان فلما

رأى جماعتهم أحسن بالشر . . . ثم أمر بالابواب فغلقت . ودخل عمرو

فرحب به عبد الملك وقال هاهنا يا ابا أمية يرجك الله ، فأجلسه معه على السرير

وجعل يحدثه طويلاً ثم . قال يا غلام خذ السيف عنه ، فقال عمرو انا لله

يا أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك أو تطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك فأخذ

السيف عنه أمر عبد الملك بعمر و فصرع وجلس على صدره
فذبجه ... وانتفض عبد الملك رعدةً فحمل عبد الملك عن صدره فوضع على
مريه ، الطبري ٢٧٢ S ص ٧٨٣ - ٧٩١)

وقال الثاني : (..... وأحس اصحاب عمرو بذلك وهم بالباب فتنادوا
فأخذ عبد الملك خمسة صرة قد هيئت وجعل في كل صرة القادرهم فأمر
بها فأصعدت الى اعلا القصر فألقيت الى اصحاب عمرو مع رأس عمرو وفرك
أصحابه الرأس ملقى وأخذوا المال وتفرقوا . . ثم أخذ عبد الملك من اصحاب
عمرو ومواليه خمسين رجلاً فضرب اعناقهم وهرب الباكون فلاحقوا بعبد
الله ابن الزبير . الدينوري ص ٢٩٤ - ٢٩٥)

لم تفكر البتة ان يقوم عبد الملك بذاته و يصرع عمرو بن سعيد ولكن
هي سياسة الشدة والرهبة فلا تبقي على احد يقف في سبيلها . وقد اعترف
عبد الملك بذلك فصرح لابناء عمرو بن سعيد حين قدموا عليه بقوله : « ان
أباكم خيرني بين ان يقتلني أو اقتله فاخترت قتله على قتلي . واما اثم فما
ارغبني فيكم واوصلني لقرابتكم وارعاني لحقكم ، الطبري ٢٧٢ S
ص ٧٩٥ » . راجع عن عمرو بن سعيد في البيان والتبيين ج ٣
ص ٢٢٩ - ٢٣٠ » .

(٢) القضاء على الحركة الزبيرية في العراق والحجاز :

صفت الاحوال ابعد الملك في الشام واستقرت له الامور بعد مقتل عمرو بن سعيد وإعماله السيف في اتباعه، فرجه وجهه نحو العراق المضطرب بنيران الفتن والقوضى . وكان مصعب والياً عليه لأخيه عبد الله بن الزبير فبذل جهده في تهدئة الثورات وارضاء الزعماء . ولكن كان الخرق قد اتسع فأصبح العراق مقراً لاختلاف الشيع السياسية المتضاربة في آرائها ومبادئها . فتمكنت الازارقة من بث دعوتها في البصرة ، ورتع انصار المختار وفلول التوابين في الكوفة والمدائن ، وقام الأمويون بسعون لاستجلاب أحزاب تؤيدهم ، ولذلك كان 'حكم العراق على مصعب امراً عسيراً ، وقد اراد عبد الملك ان يضرب مصعباً ضربة قاسية وان يستفيد من الاضطراب السائد في بلاد الرافدين فجهر جيشاً قوياً وسار به نحو العراق ونالجز مصعباً في معركة (دير الجاثليق) على الدجيل فجاز عليه وقتله واحتز رأسه سنة ٧١ هـ « ٦٩٠ م »

وانا لنعتقد ان عبد الملك فاز على مصعب وقضى على الحركة الزبيرية في العراق للأسباب الآتية :

اولا : انتهر عبد الملك القرصة وهاجم الزبيريين في العراق قبل ان يحملوا عليه في عرينه الشام « فتعشى بهم قبل ان يتغنوا به » ويكون لهم الوقت

الكافي للاستعداد . وقد اكد لنا الدينوري ذلك فقال : ٥٠٠ . ولما صفا الأمر لعبد الله ابن الزبير ودانت له البلدان الارض الشام ، جمع عبد الملك بن مروان اخوته وعظماء أهل بيته فقال لهم : (ان مصعب بن الزبير قد قتل المختار ودانت له ارض العراق وسائر البلدان واست آمنه ان يغزوكم في عقر داركم ، وما من قوم غزوا في عقر دارهم الا ذلوا فها ترون ؟ فتكلم بشر بن مروان فقال يا امير المؤمنين أرى ان تجمع اليك اطرافك وتستجيش جنودك وتضم اليك قواصيك ، وتسير اليه وتلف الخيل بالخيول والرجال بالرجال والنصر من عند الله ، فوجه رسله الى كور الشام ، الدينوري ص ٣١٦-٣١٧)

ثانياً : استمال عبد الملك الكثيرين من اشياع مصعب فوعدهم بالصلوات الحسنة والمناصب السنية فالتحق قوم من جنسده بعبد الملك يوم معركة دير الجائلنيق . واعتزلت ربيعة عنه . ولم يثبت معه الا اهل الحفاظ ، وابراهيم بن الاشر قلد المختار المشهور ، وكان قد انضم الى مصعب بعد ان اختلف مع المختار وأسند هذا الأخير قيادة الجند المختارية لأحمد بن شميظ . ولدينا من الوثائق التاريخية ما يؤكد لنا ان ابن الاشر احب الانضمام الى عبد الملك والتخلي عن مصعب اذ وعده الامويون بالعراق . وهاك اعترافه الصريح بهذا المعنى : (رأيي اتباع اهل الشام . . . ولكن ليس قبيلة تسكن الشام الا

وقد وترتها. الطبري ص ٢٧٤٣ S 2 V 2)

ثالثاً : احب العراقيون الاخلاذ الى الراحة والسلام خصوصاً بعدما رأوا ضعف الزبيريين امام القوى الاموية ، وما حلَّ ببلادهم من الخراب والدمار حينما اصبحت ساحة للقتال . فهموا بغدر مصعب والاستسلام لعبد الملك . يدلنا على ذلك ما قاله قيس بن الهيثم يحرضهم على الثبات ويحذرهم من الشاميين بقوله : « ويحكم لاتدخلوا اهل الشام عليكم فوالله تطمعوا بعيشكم . . ليضيقتن عليكم منازلكم ، والله لقد رأيت سيد اهل الشام على باب الخليفة يفرح ان ارسله في حاجة ولقد رأيتنا في الصوائف واحدنا على الف بعير وان الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه ، الطبري S 2 V 2 ص ٨٠٦ »

رابعاً : كان مصعب بطلاً وقد شهد له بذلك عبد الملك نفسه ولسنا بحاجة الى اثبات شجاعته فقد روى الفخري ان عبد الملك قال : « يوماً جلستاه من اشجع الناس ، قالوا انت قال لا ، لكن اشجع الناس من جمع في داره بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين يعني مصعباً ، الفخري ص ١١٣ » .

ومع هذا كله فلم يستصحب معه القادة الأكفاء اصحاب البصر في الحروب والدربة في قيادة الجند كالمهلب بن ابي صفرة وغيره ، فقد ذكر لنا الطبري انه : « أخبر ابن خازم بمسير مصعب الى عبد الملك فقال أمعه عمر بن عبيد

الله بن معمر، قيل لا، استعمله على فارس، قال أفعه المهلب بن أبي صفرة، قيل لا، استعمله على الموصل. قال أفعه عباد بن الحصين، قيل لا، استخلفه على البصرة فقال وأنا بخراسان :

خذي نبي فجر نبي جعار وأبشري بلحم امريء لم يشهد اليوم ناصره
الطبري ٢٧٢ ص ٨٠٧

ولم يكن لمصعب علم بالفنون الحربية وإن ربي في بيت شجاعة وفروسية، بينما كان عبد الملك شاباً مدرباً مارس القتال وشهد المبارك وعرف ابواب الحيلة فيها على أنواعها .

خامساً : قاد عبد الملك من الشاميين كل قادرٍ على حمل السلاح . وقد أجبر في بعض الأحيان على استعمال القسوة مع الذين ارادوا التخلف عن القتال والانزواء في بيوتهم حباً بالعافية والسلامة . فكان له جيش عديد حتى انه « لما نظر اصحاب مصعب الى كثرة جموع عبد الملك توافكوا وشملهم الرعب ،الدينوري ص ٣١٧ » . اما ساعد عبد الملك القوي في تجنيد الجند وتجهيز الجيوش فكان الحجاج بن يوسف ،فاستعمل هذا الشدة مع المتقاعسين عن القتال . وقد أكد لنا ذلك العقد القريني فقال : (لما استمرت البيعة لعبد الملك اراد الخروج الى مصعب فجعل يستنفر اهل الشام فيطئون عليه فقال له

الحجاج بن يوسف سلطني عليهم فوالله لأخرجهم معك. قال له قد سلطتك عليهم فكان الحجاج لا يمر على باب رجل من اهل الشام قد تخلف عن الخروج الا أحرق عليه داره . فلما رأى ذلك اهل الشام خرجوا ، العقد القرين
(ج ٣ ص ١٥٥)

ولما تم لعبد الملك الاستيلاء على العراق بعث عماله على البلاد واكثر الحامية في مصرين وبذل للناس في العطاء . وقد أقام حفلة كبرى في الخورزق بعد استيلائه على الكوفة دعى اليها الاشراف والوجوه فجلسوا معه وتحادثوا واياهم . ثم مدت الموائد فأكلوا وشربوا ، وطاف القصر يشاهد اثاره الباقية واطلاله الدارسة ، ويمكننا ان نعد هذه الحفلة من الوجهة السياسية ، الفصل الأخير من فصول الحركة الزبيرية في العراق .

القضاء على الحركة الزبيرية في الحجاز :

خفقت الاعلام الاموية على العراق بعد ان قتل عبد الملك صديقه وعشير صباه مصعباً حباً بتوطيد ملكه وتنفيذاً لسياسة الشدة التي اتخذها غايته الاولى وهدفه الذي لاهدف بعده في ادارة احكام الدولة. نعم لم يبق امامه الا ابن الزبير في الحجاز فوضع نصب عينيه مقاومته والقضاء على حركته . وقد ساعده على ذلك عوامل ثلاثة :

العامل الاول : خضعت العراق لعبد الملك فأسقط في يد ابن الزبير
اذ حرم منها الرجال والذخيرة والمادة فأصبح جيشه في حال بائسة لاسيما وكلنا
يعلم فقر الحجاز ونضوب مواردها . وقد وصف مشاهد غنى الجند الأموي
الذي وجهه عبد الملك الى مكة فقال : (واصحابه - للحججاج قائد الحملة -
متسلحون ورأيت الطعام عندهم كثيراً ورأيت العير تأتي من الشام تحمل الطعام
والسكر والسويق والدقيق فرأيت اصحابه مخاصيب ولقد ابتعنا من بعضهم
كعكا بدرهم فكفانا الى ان بلغنا - الجحفة - وانا لثلاثة نفر ، الطبري
٧٢ ص ١٨١) .

العامل الثاني : أحب الحجازيون بحكم السابقة الاستسلام للامويين
بعد ان هدأت العراق ورضخ سكانها للحكم الاموي . فتخلوا عن ابن الزبير
وأعلموه ان مصيره للهلاك إذ من العبث مقاومة عبد الملك وهم فقراء معدمون
فوصف لنا مشاهد عياني ايضاً كيفية خذلان الحجازيين لابن الزبير فقال :
(رأيت ابن الزبير يوم قتل وقد تفرق عنه أصحابه وخذله من معه خذلاناً
شديداً وجعلوا يخرجون الى الحججاج حتى خرج اليه نحو من عشرة آلاف .
وذكر انه كان ممن فارقه وخرج الى الحججاج ابنه حمزة وخبيب فاخذاه منه
لاتقسمها آمانا . الطبري ٧٢ ص ١٨٥) وعاجل عبد الملك ابن الزبير

ليضعف قوى الحجاز بين المعنوية فارسل اليه الجيوش وقد فعل ذلك عملاً
برأي الحجاج فقال له : (انك يا امير المؤمنين متى تدع ابن الزبير يعمل فكره
ويستجيش ويجمع انصاره وتثوب اليه فلا له، كان في ذلك قوة له فأذن في
معاجلته لي فأذن له. الدينوري ص ٣١٩)

المعامل الثالث : بخل ابن الزبير على اصحابه ورجاله فنفروا عنه وتقربوا
من الأمويين الذين أسرفوا في شراء دين الناس واجتذاب قلوبهم . وقد
ذكر لنا عبد الملك انه تغلب على ابن الزبير لخصال ثلاث استحكت فيه وهي
(عجبٌ قد ملأه واستغناء برأيه وبخلٌ التزمه فلا يسود بها ابداً . ابن قتيبة
ج ٢ ص ٤٣) .

والحقيقة التي نود تقريرها ان بخل ابن الزبير جعل الاحزاب العراقية
وغيرها تتخلى عنه وتنضم الى الأمويين . وقد ذكر لنا العقد الفريد ان
الوفود السكوفية كانت تقدم عليه ولا تحظى بشيء من المال . قال : (لما قتل
المصعب بن الزبير المختار بن ابي عبيد خرج حاجاً فقدم على اخيه عبد الله بن
الزبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق فقال له يا امير المؤمنين ، جئتك بوجوه
أهل العراق ، لم ادع لهم بها نظيراً لتمعطيهم من هذا المال . قال : جئني بعبيد
أهل العراق لأعطيهم مال الله ، والله لافعلت . فلما دخلوا عليه واخذوا

مجلسهم قال لهم : يا أهل الكوفة وددت والله ان لي بكم من اهل الشام
 صرف الدينار والدرهم بل لسكل عشرة رجلا . قال عبيد الله بن طبيان أندي
 يا امير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت . قال وما ذلك : قال فان مثلنا
 ومثلك ومثل اهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل :

علمتها عرضاً وعلات رجلاً غيري وعلق أخرى ذلك الرجل
 أحبينك نحن ، وأحبت ائت أهل الشام ، وأحب اهل الشام عبد الملك .
 ثم انصرف القوم من عنده خائبين . فكتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا
 بمصعب بن الزبير . العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٩)

كانت هذه العوامل كلها تعمل للقضاء على الحركة الزبيرية فبعث عبيد
 الملك الحجاج بن يوسف قائداً للحملة الحجازية وعددها سبعة آلاف ، فسار
 من العراق حتى نزل بالطائف . وكانت رحى المعارك تدور على جبل عرفة بين
 الفريقين الى ان تم للحجاج حصر ابن الزبير في السكبة . ثم تحصن الامويون
 في جبل أبي قيس ورموا منه السكبة بالمنجنيق وجعلوا يدخلون عليه المسجد
 فيشد عليهم الى ان قُتل سنة ٥٧٣ هـ (٦٩٢ م) وكان حصر الحجاج لابن الزبير
 نحواً من ثمانية اشهر .

وأظهر عبد الله بن الزبير من ضروب الشجاعة في ثباته على القتال

ما ظل حديث العرب بعد مماته زمناً طويلاً . وأثبت المؤرخون موقفه في ساعاته
الآخيرة واجتماعه بأمه اسماء بنت أبي بكر وتحريضها إياه على الثبات في سبيل
المبادئ التي قضى لأجلها اتباعه . وتدلنا الأحاديث المؤثرة التي جرت بين
الأم ولدها على البطولة النسوية المشبعة بروح العروبة وحرارة الاسلام .
وهاك حديثهما :

« عبد الله ابن الزبير — خذلني الناس حتى ولدي وأهلي فلم يبق معي
الا اليسير ممن ليس عنده من الدفع اكثر من صبر ساعة والقوم يعطوني ما اردت
من الدنيا فما رأيك ؟

اسماء بنت أبي بكر — انت والله يا بني اعلم بنفسك ان كنت
تعلم انك على حق واليه تدعو فامضي له فتمت قتل عليه اصحابك ،
ولا تتمكن من رقبته يتلعب بها غلمان بني امية ، وان كنت ، انما اردت
الدنيا فبئس العبد انت اهلكك نفسك وأهلكك من قتل معك وان قلت
كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل
الدين . وكم خلودك في الدنيا . القتل أحسن .

عبد الله بن الزبير — هذا والله رأيي والذي قت به داعياً الى يومي
هذا ، ما ركنت الى الدنيا ولا احييت الحياة فيها وما دعاني الى الخروج
الا الغضب لله أن يستحل حرمة ، اولئك نبي الحبيب أن اعلم رأيك

فردتيني بصيرةً مع بصيرتي ، فانظري يامه فاي مقتول من يومي هذا ، فلا
يشد حزنك وسلمي لامر الله . فان ابنك لم يتعمد اتيان منكرو ولا عملاً بفاحشة ،
ولم يجره في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ولم يبلغني
ظلم عن عمالي فريضت به بل انكرته . ولم يكن شي ، آثر عندي من رضى
ربي . اللهم اني لا اقول هذا تزكيةً مني لنفسي . انت اعلم بي ولكن اقله
تعزيةً لأخي لتسلو عني .

اسماء — اني لأرجو من الله ان يكون عزائي فيك حسناً أن تقدمتني
وان تقدمتك ففي نفسي أخرج حتى انظر الى ما يصير امرك .

عبد الله — جزاك الله يامه خيراً ، فلا تدعي الدماء لي قبل وبعد .

اسماء — لا ادعه ابداً فمن قتل على باطل فقد قتل على حق . اللهم
ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك الذجيب والظأ في هواجر
المدينة ومكة وبرية بابه وبني . اللهم قد سلمته لامرك فيه ورضيت بما قضيت
فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين . الطبري ٢ : ٢٢٢ ص

١٤٦ — ٨٤٧ «

ورد عبد الله ابن الزبير في آخر ايامه هذا البيت :

لسنا على الاعقاب تدعي كلومنا

ولسكن على اقدامنا تقطر الدماء

وتمادى الحجاج في الانتقام من ابن الزبير فانه سلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه (مختصر الدول ص ١٩٣) فتخلص الامويون بموته من عدو رهيب جبار .

(٣) انقبات الثورة الاسفلية :

كان العراق مركز المعارضة ومحرك الثورات ضد الامويين . فالتجأ اليه زعماء الاحزاب الغاضبة من مختلف الجهات • ولا بد لنا من القول ان العراقيين كانوا دوماً يتوقون للاستقلال ويحنون الى استلام زمام الاحكام ويودون لو تنتقل الخلافة الى مصرهم ليصبحوا ليد العاملة في الحكومة العربية • فصادفوا من تشجيع الاحزاب المعارضة ما جعلهم ينتهزون الفرص للقيام في وجه الدولة الاموية كما كانت تسنح الايام بذلك • فعلم عبد الملك ذلك فيهم حق العلم فالتجأ الى القوة في سياستهم وعزز الحامية الاموية في بلادهم • فتك بالمعارضين المشاغبين ان هذه التدابير كلها لم تجده تفعلاً لأن للقوة تأثيراً وقتياً لا بد ان يزول حين يرتفع كابوسها • وانا لنعتقد ان الاسباب التي دعت العراقيين للثورة ودفعهم لنصرة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وغيره من الزعماء ، تنحصر في عوامل لا بد لنا من درسها وتدقيقها .

العامل الاول : الامويون يسوقون العراقيين دوماً للقتال :

جند الامويون اهل المصيرين ودفعوهم الى مجاهل البلاد الفارسية
والتركيستانية السحيقة لفتحها واعلاء كلمة الاسلام فيها ، كما يأمونوا شرهم
وقلاقلهم في بلادهم فانهم طالما التحقوا بالزعماء النافخين في بوق الاتصال عن
المركزية الاموية والداعين الى نصرة آل البيت والمطالبة بحقهم في الخلافة .
وصرح لهم الحجاج مندوب عبد الملك السامي في العراق بهذه الحقيقة علمنا
فذكر لهم ان الدواء الناجع لقتل جرثومة القوضى والثورة هو ارسالهم للفتح والغزو .
فتستثمر الدولة قواهم الكامنة في الاعمال الصالحة بدلا من تحميلها مالا قبل لها به
من الفساد فقال : (يا اهل العراق اني لم اجد لكم دواء ادوا الدائم من هذه المغازي
والبعوث لولا طيب ليلة الاياب وفرحة القفل فانها تعقب راحة ، واني لا اريد
ان ارى الفرح عندكم ولا الراحة بكم وما اراكم الا كارهين لمقاتلي . انا والله
ارؤيتكم اكره ولولا ما اريد من تنفيذ طاعة امير المؤمنين فيكم ما حملت نفسي
مقاساتكم ، والصبر على النظر اليكم . والله اسأل حسن العون عليكم ، العدا لقريد

ج ٢ ص ٣١١)

اتبع الحجاج هذه السياسة فجهز من العراقيين جيشاً قوياً يبلغ عشرين ألفاً
لفتح تركستان ومناجزة الاترك . وقد اسند قيادة هذا الجيش لعبد الرحمن
بن محمد بن الاشعث احد الزعماء الطموحين . فسار الى بلاد الترك وجعل

يفتح مدنها ويضمها اليه ويبحث اليها عمله ويضع الارصاد على الشعب والمسالخ
 في الامكنة المختلفة . وكان من رأيه ان لا يتقدم ويوغل في الفتح حتى
 يتعرف المسلمون اليها ويجترئون على طرقها . ثم يعين فيها بعد ذلك
 غزواً ويضربها ضربة قاضية . فلا يجازف بارواح المسلمين ولا يرمي
 بهم في التهلكة ولا يسوقهم الى الموت . فغضب الحجاج لهذه الخطة التي
 سلكها ابن الاشعث فضعف رأيه وكتب له (. . .) اني لم اعد رأيك الذي
 زعمت انك رأيت رأي مكيدة ولكني رأيت انه لم يملك عليه الا ضعفك
 والتيال رأيك فانضي لما امرتك به من الوغول في ارضهم والهدم لمحصونهم
 وقتل مقاتلتهم وسي ذرايرهم ، الطبري ٢٧٢ ص ١٠٥٢ - ١٠٥٣)

ولم يبعث الحجاج على الكتابة لابن الاشعث بمثل هذه اللغة القاسية
 الا السياسة التي تقول بالفتح مهما كلف هذا الفتح من الضحايا لاسيما ان كانت
 « على حساب » العراقيين الغاضبين في عرف الحجاج . فعول ابن الاشعث
 على رفع راية العصيان ورمي أوامر الحجاج عرض الحائط فاعتلى منبر الخطابة
 في جيشه وصرح لهم انه لم يدفعهم الى المجاهل السحيقة في تركستان حبا
 بالمحافظة على ارواحهم وان خطته التروي في درس احوال البلاد وجغرافيتها
 قبل الاقدام على فتحها دفعة واحدة . ثم استنفض همهم ووصف لهم ما قاساه

اسلافهم من المذلة والمهانة وما اصابوه من الجوع والبؤس فقال من خطاب له :
 (يا ايها الناس اني لكم ناصح ولصالحكم محب ، ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه
 ناظر وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي
 احلامكم واولي التجربة للحرب منكم فرضوه لكم رأيا . ورأوه لكم في العاجل
 ولاجل صلاحاً وقد كتبت الى اميركم الحجاج ثناء في منه كتاب
 يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في ارض العدو وهي البلاد
 التي هلكت اخوانكم فيها بالأمس وانما انا رجل منكم امضي اذا مضيت وآبي اذا
 ايتم . فثار اليه الناس فقالوا لا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع ولا نطيع .
 الطبري ٧ ص ١٠٥٣ - ١٠٥٤) .

وقام احد المفوهين من الزعماء المقربين لابن الاشعث وبين للجند طمع الحجاج ،
 واهتمامه بالغنائم قبل اهتمامه يارواح المسلمين ووجوب بيعتهم لقائدهم الشجاع
 وجهاد الحجاج بدلا من جهاد عدوهم . فقال : (..... ان الحجاج والله
 ما يبالي أن يخاطر بكم فيحكمكم بلاداً كثيرة اللهب والصبوب فان ظفرتم
 فغنمتم كل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه وان ظفر عدوكم
 كنتم انتم الأعداء الذي لا يبالي عنهم ولا يبقو عليهم . اخلعوا عدو الله
 الحجاج وبايعوا عبد الرحمن فاني اشهدكم اني اول خالع فنادى الناس من كل

جانب فعلنا فغلنا . قد خلعنا عدو الله ، الطبري ٧ ص ١٠٥٤
والغريب ان ابن الأشعث لم يُقدم في البدء على خلع عبد الملك بل ظل
متردداً حتى قدم فارس . ثم تم رأيه على خلعه أيضاً والمناداة بنفسه خليفة
للمسلمين يدلنا هذا ان ابن الأشعث حينما اقترب من فارس والعراق لدى
رجوعه وجد الأفكار مهيئة للثورة ولقبول زعيم نشيط يعرف كيف يقود
الامة في جهادها ضد الامويين وولاتهم العتاة . وقد بايعه الناس على كتاب
الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد الخللين .

العامل الثاني : الولاة الامويون في العراق وقسوتهم :

أسند الامويون ولاية المصريين الى رجال قساة لا يعرفون الرحمة ولا تتخلل
الشفقة الى قلوبهم فاتبعوا سياسة الشدة بحذا فيرها ، وراحوا يتهمون الناس على الظنة
فجردوا السيف على الرؤوس واعملوا السوط في الظهور وجعلوا السجن مقبرة
للزعماء المعارضين ولو تصفحنا تاريخ الولاة الامويين في العراق امثال زياد
ابن ابيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم لتحققنا ان ملك
بني أمية لم يقيم الا على سيوفهم ولم تنوط داركانه الا على اسنهم فمنعوا الشعب
ان ينتقد سياسة الحكومة أو يندد باعمال رجالها أو يسدد سهام غضبه الى
مبادئها . وكانوا يحرسون على ذلك حرصاً شديداً حتى انهم أجبروا مراراً على

ارتكاب كثير من الفظائع في سبيل تنفيذ هذه السياسة ، وقطعاً لألسنة
الناس المريرة . وسادت سياسة القسوة في الحجاز ايضاً فحرّموا على الحجازيين
ايواء العراقيين المعارضين للحكومة الأموية في بلادهم وهددوا من يخاف
هذه القوانين بالاعدام ، واني مورد لك اشهر الخطب التي عثرت عليها
لهؤلاء الولاة لتتعرف تماماً الى ما تقصد بسياسة الشدة والارهاب ولتفهم
معنى خنق الحرية الكلامية والسياسية خنقاً لا حياة لها من بعده .

اشهر خطبة لزياد بن ابيم في البصرة . وتعرف بالبراء :

(. . .) اما بعد فان الجهالة الجاهلاء ، والضلالة العمياء ، والعمى الموفى
بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم وتشتمل عليه حماؤكم من الامور العظام
ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . . . ولا تذكرون انكم
اخذتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه من ترككم هذه المواخير
المنصوبة والصفقة المساوية في النهار المبصر والعدد غير قليل . لم يكن منكم
نهاة تمنع الغواة عن دجل الليل وغارة النهار . . . ما انتم بالعلماء ، ولقد
اتبعت السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم
الاسلام . . . اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به اوله ، لين
في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، واني لا قسم بالله لا خذن الولي بالمولى ،

والقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم
 اخاه فيقول انج سعيد فقد هلك سعد، او تستقيم لي قناتكم... واي اي ودعوى
 الجاهلية فاني لا اجد احداً دعا بها الا قطعت لسانه وقد احدثتم احداثاً لم تكن
 وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً اغرقناه، ومن حرق قوماً
 احرقناه، ومن تقب بيتاً تقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً،
 فكفوا عني السستكم وايديكم اكف عنكم يدي ولساني، ولا يظهروا من احدكم
 ريبة بخلاف ما عليه عامتكم ضربت عنقه... ايها الناس انا اصبحتنا اكم
 ساسة... نيسوكم سلطان الله الذي اعطانا... وننود عنكم في الله الذي
خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولنكم علينا العدل فيما اولينا...
 واعلموا ان مهما اقصر فيه فلن اقصر عن ثلاث، لست محتجباً عن اطالب
 حاجة ولو اتاني طارقاً بليل، ولا حاسباً عطاء ولا رزقاً عن ابائه، ولا مخدماً
 لكم بعثاً فادعوا الله بالصالح لا تمتكم فانهم سياستكم المؤدبون لكم، وكهفكم
 الذي اليه تاوون ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بفضهم فيشتد
 لذلك أسفكم... وايم الله ان لي فيكم لصريع كثيرة فليحذر كل امري
 منكم ان يكون من صرعاي • العقد الفرديد ج ٢ ص ٣٧٧ - ٣٧٨ •

من خطاب الخادم بن عبد الله القسري والي مكة في عهد الواليد :

(يا ايها الناس : اذ-كم باعظم بلاد الله حرمة ، وهي التي اختار الله من البلدان
فوضع بها بيته ثم كتب علي عباده حجة من استطاع اليه سبيلا ، ايها الناس
فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة واياكم والشبهات فاني والله ما اوتي بأحد يطعن
علي امامه الا صلبته في الحرم . ان الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها
فسلموا واطيعوا ولا تقولوا كيت وكيت ، انه لا رأي فيما كتب به الخليفة او رآه
الا امضاؤه ، واعلموا انه بلغني ان قوماً من اهل الخلاف يقدمون عليكم ويقيمون
في بلادكم ، فاياكم ان تنزلوا احداً ممن تعلمون انه زائع عن الجماعة فاني لأجحد
احداً منهم في منزل احد منكم الا هدمت منزله فانظروا من تنزلون في منازلكم
وعليكم بالجماعة والطاعة فان الفرقة هو البلاء الأعظم . الطبري ٨٢٧٢ ص (١٢٣١)

من خطاب النعمان بن مباد المرعي والي الهميرة في عهد الواليد :

«ايها الناس : انا وجدناكم اهل غش لأمر المؤمنين في قديم الدهر
وحديثه ، وقد ضوى اليكم من يزيدكم خبيلاً اهل . . . (١) هم اهل الشقاق
والنفاق ، هم والله عش النفاق ويبضته التي تفلقت عنه ، والله ماجر بتهم . . . قط

(١) يقصد بهم أهل الكوفة وأهل البصرة من المخالفين

الا وجدت افضلهم عند نفسه الذي يقول في آل ابي طالب ما يقول، وما هم لهم بشيعة وانهم لا أعداء لهم ولغيرهم، ولكن لما يريد الله من سفك دماهم، فاني والله لا اوتي بأحد آوى أحداً منهم أو أكره منزلاً ولا انزله الاهدمت منزله وانزات به ما هو أهله. ثم ان البلدان لما مصرها عمر بن الخطاب وهو مجتهد على ما يصلح رعيته جعل يمر عليه من يريد الجهاد فيستشيره الشام أحب اليك أم العراق فيقول الشام أحب الي. أني رأيت العراق داءً عضالاً وبها فرخ الشيطان، والله لقد أعضلوا بي، واني لأراني سأفرقهم في البلدان ثم اقول لو فرقهم لأفسدوا من دخلوا عليه بجبل و حجاج وكيف ولم

فاذا خبروا عند السيوف لم يخبر منهم طائل، لم يصلحوا على عثمان فلقى منهم الأمرين، وكانوا أول الناس فتق هذا الفتق العظيم، وفتقوا عرى الاسلام عروة عروة وانقلوا البلدان، والله اني لأتقرب الى الله بكل ما أفعل بهم لما أعرف من رأيهم ومذاهبهم. ثم وليهم امير المؤمنين معاوية فداجمهم فلم يصلحوا عليه ووليهم رجل الناس جلدأفبسط عليهم السيف وأخافهم فاستقاموا له أحبوا أو كرهوا، وذلك انه خبرهم وعرفهم، والله ما رأينا شعراً قط مثل الأمن . . . والله ما انتم باصحاب قتال . . . فدعوا عيب الولاة فان الأمر انما ينقض شيئاً شيئاً حتى تكون الفتنة وان الفتنة من البلاء، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد. الطبري ٧ ٢ ص ١٢٥٩ - ١٢٦٠.

أشهر قطب الحجاج بن يوسف :

وجه كلمته هذه لبعض الثوار في العراق :

« اما بعد فانكم استخلصتم الفتنة ، فلا عن حق تقاتلون ولا عن منكر تنهون ، وإيم الله اني لأهم ان يكون اول ما يرد عليكم من قبلي خيل تنسف الطارف والتالد ، وتدع النساء أيامى ، والابناء يتامى ، والديار خرابا ، والسواد بياضاً . . . والسعيد من وعظ بغيره والسلام . البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٢ »

ومن قطب الحجاج في الكوفة :

انا بن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
 اما والله اني لأهل الشر محمله واحنوه بنعله واجزيه بمثله ، واني لارى
 رؤوسا قد اينعت وحن قطافها ، واني لانظر الى الدماء بين العمام والمحي
 قد شمرت عن ساقها تشميراً . . . اني والله يا أهل العراق ما اغمز كستغزاز التين
 ولا يقعق لي بالشنان ولقد فررت عن ذكاء وجزيت الى الغاية القصوى .
 ان امير المؤمنين عبد الملك نثر كنفاته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً
 وأصلبها مكسراً . فوجهني اليكم فانكم طالما أوضعتم في القين وسنتم سنن
 النبي . اما والله لألحونكم لحو العود ولا أعصبنكم عصب السامة ولا أضربنكم
 ضرب غرائب الأبل . . . اني والله لا أعد الا وفيت ولا أخلق الا فريت

فإياي وهذه الجماعات وقيلاً وقالاً وما يقول ، فيم أنتم وذاك . والله لتستقيمين
على سبيل الحق أو لا أدعن لـكل رجل منكم شغلاً في جسده . الطبري
٢٧ ص ٨٦٣ - ٨٦٥) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦٤ .

ولهجاء أيضاً :

(شاهدت الوجوه ، ان الله ضرب مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها
رزقها رَغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف
بما كانوا يصنعون . وأنتم أولئك واشباه أولئك فاستو سقوا واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم
الهموم حتى تذروا العصيان ولا أعصيتكم عصب السلطة حتى تنقادوا . أقسم
بالله لتقبلن على الانصاف ولتدعن الأرجاف وكان وكان واخبرني فلان عن
فلان والهبر وما الهبر أو لا هبرنكم بالسيف هبراً يدع النساء أياي والولدان
يتامى وحتى تذروا السهمى وتقلعوا عن هلوها . أياي وهذه الزرافات
لا يركبن الرجل منكم إلا وحده . إلا أنه لو ساء لأهل العصية معصيتهم
ما جئني فيء ولا قوتل عدو ولا عطلت الثغور ولولا أنهم يغزون كرها ما غزوا
طوعاً . الطبري ٢٧ ص ٨٦٥ - ٨٦٦) .

ومن خطب الجعاج في السكوفة :

(أما والله لا تفرع عصاً بعصا إلا جعلتها كأفس الدابر)

العقد الفريد ج ٢ ص ٣٨٠

وله ايضاً :

(يا أهل^(١) يا أهل الشقاق ، يا أهل النفاق ، والله ان كان امركم ليهمني قبل ان آتيكم ، ولقد كنت ادعو الله ان يبتليكم بي ، و يبتليني بكم فاجاب دعوتي ، ولكنني سرت البارحة فسقط سوطي مني ، فالتذت هذا — وأشار الى سيفه — مكانه ، فوالله لأجرنه فيكم جر المرأة ذيلها ولأفعلن ولأفعلن) .

وقال الحجاج بعد معركة دير الجماجم في العراق — وسنأتي على وصفها —
 (يا أهل ، ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف ، ثم أفضى الى الاسماع ، ثم ارتفع فعمش ثم باض وفرخ ، ثم دب ودرج فحشاكم ثقافا وشقاقا واسعركم خلافا ، اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائداً تطيعونه وموامراً تشاورونه ، فكيف تنفعكم تجربة او ينفعكم بيان . ألسن اصحابي بالاهواز حتى رمتم المسكر واجتمعتم على السكفر وظننتم ان الله عز وجل يخذل دينه ، وخلافته ، وانا ارمقهم بطرفي وانتم تسلون لواذاً ، وتنهزمون سراعا ، يوم الراوية ما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم

(١) يقصد أهل المصرين السكوفة والبصرة ابن عساكر ج ٤ ص ٥٢

ويراه الله فيكم وقلوص وليكم اذا وليتم كالأبل الشاردة على اوطنها النوازع ،
لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ على بنيه حين عضكم السلاح ونخستكم
الرماح ، يوم دير الجماجم ، وما يوم الجماجم ، به كانت المغارك والملاحم .

ضرب يزيل الهمام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
يا أهل اللذات بعد الفجرات ، والعقالات بعد الحزات ، والنزوة
بعد النزوات ، ان بعثناكم الى نفوركم علامت وجبتكم ، وان امنتم أرفقتكم ،
وان خفتم نافقتكم ، لا تتذكرون نعمة ولا تشكرون معروفًا . هل استخفكم
ناكث أو استغفواكم غاو أو استغفركم عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعصمكم
خالع الا ليقيم دعوته واجتنب صيحته وتقرتم اليه خفائًا وثقالًا وفسانًا ورجالًا .
يا أهل هل شغب شاعب أو نغب ناغب أو زفر زافر الا كنتم
اتباعه وأنصاره . يا أهل ألم تنفعكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ ألم
يشدد الله عليكم وطأته ويدققكم حرَّ سيفه وأليم بأسه ومثلاته ؟ ! ! »

« ابن عساكر ج ٤ ص ٥٥ - ٥٦ »

وله أيضًا :

يا أهل وأهل الشقاق والنفاق ومساويء الاخلاق وعبيد
العطاء وأولاد الاماء ، الا يرفأ الرجل منكم صلعة ، ويخسر حمل رأسه ويحقن

دمه ، وينصر موضع قدمه ، والله ما أرى الأمور تمضي حتى أوقع بكم وقعةً
تكون نكالا لما قبلها وتأدياً لما بعدها ، ابن عساكر ج ٤ ص ٥٩ - ٦٠
أما وقد اثبتنا لك هذه الخطب فيمكننا ان نقول انها لا تخلوا من
التهديد والوعيد والاهانة والتنديد . ثم اننا نشتم منها رائحة الدعوة المنظمة
ضد العراقيين ، فأحب الامويون ان يظهروا ثورتهم بمظهر الحركات الداعية
الى التدمير والتقتيل والتخريب . ولطالما استمسك بنو أمية بعروة الخلافة
وبينوا جلالها واهميتها الدينية فادعوا ان الله ناصرها ومثل اعدائها وان الذين
يسعون في الخلاف عليها هم الكفرة القجرة . ولا غرابة في ذلك فالعامل
الأموي كان خليفة رسول الله ، ومن يخرج على الخليفة فانما يخرج على رسول
الله ، ومن يخرج على رسول الله فانما يخرج على الله ومقره جهنم وساءت مصيرا .
ذاسكهو تعلقهم بالحق الألهي في حكم الأمم *Divine Right Theory*
فترى ان سياسة الشدة والارهاب كانت عاملاً كبيراً في اشغال نيران
الثورات ضد الامويين في العراق .

العامل الثالث : ابن الأشعث طموحٌ يسعى للاستقلال :

لم يركب ابن الأشعث مركب الثورة الخشن ، ولم يقدم على العصيان الا
لما كان يجول في صدره من الاطماع ، فوجد الاتصال عن الامويين والسيطرة على

العراق وغيره من الاقطار ان بسم له الزمن وساعده الايام . وقد عرف ذلك فيه الحجاج بن يوسف فبعثه الى فتح تركستان ، وكانت قد انهكت جيوش الامويين عله لا يؤوب منها . وروى لنا كل من الطبري والدينوري ان الحجاج كان بضمير لابن الاشعث حقدًا هائلًا ويرى اعداءه . والظاهر ايضًا ان ابن الاشعث بادله هذا البغض فاستلم قيادة الجند وفي نفسه ما في نفسه من الايقاع بالحجاج والثورة عليه . قل الطبري : وكان الحجاج وليس بالعراق رَجُلٌ ابغض اليه من عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ، وكان يقول ما رأيته قط الا اردت قتله . الطبري S2 V2 ص ١٠٤٣) وذكر عن لسان ابن الاشعث انه قال : (وانا . . . ان لم احاول ان ازيله عن سلطانه فأجهد الجهد اذ طال بي وبه بقاء . الطبري S2 V2 ص ١٠٤٣ وقال الدينوري :) كان الحجاج يقول ما نظرت الى عبد الرحمن قط الا اشتيت ان اضرب عنقه . الدينوري ص ٣٢٢)

فقرت الناس الى ابن الاشعث حينما اقترب من العراق وهب الغاضبون من كل صوب الى اللحاق به فكثرت جوعه حتى قارب الموت . انه مهما يكن من المبالغه في هذا العدد فلا شبهة ان مركز الحجاج اصبح مزعزع الاركان ضعيفًا لا يلبث ان يسقط ان لم يتداركه الامويون بالنجدة المتوالية . فعمد

عبد الملك الى مخابرة ابن الاشعث وسماع مطالبه ، وعرض عليه اولاً نزع الحجاج عن العراق واجراء الدولة العطاء على العراقيين كما تجر به على اهل الشام . ثانياً اختيار لابن الاشعث في حكم اي مصر شاء من العراق مادام حياً .

وقد ارسل عبد الملك ابنه عبد الله واخاه محمد بن مروان الى ابن الاشعث ليتفقا معه ، نتخلص له طاعته ويحقق ذملاء المسلمين . وكان من رأي ابن الاشعث ان يعقد الصلح مع الامويين وينزل عند مطالبهم لسكن عاملان اعترضا سبيله وجهلاه يرجع خائب الآمال . الأول : نشاط الحجاج الى اقناع عبد الملك ان العراقيين لا يلبثوا ان يخالفوه وبسيروا اليه ويجدوا في حربه ان خلعه عنهم وأعطاهم ما شاؤوا ولا يزيدهم ذلك في عرفه الاجرة وعداء . وذكر له ان الحديد بالحديد يفلح . وقد وقف الحجاج هذا الموقف لأن منصبه أصبح على شفا جرف هار . فكان له ما اراد . والثاني : اعتقاد العراقيين انه بوسعهم طرد بني أمية من العراق خصوصاً بعد ان تغلبوا على جيوش الحجاج في المناوشات الاولى وفازوا باخلال البصرة والكوفة فقلوا : (ان الله قد اهلكهم — جند الحجاج — فاصبحوا في ٥٠٠٠ والضعك والمجاعة والقلة والثلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الزفيق والمادة القرية ، لا والله لا تقبل فاعادوا خلعه — لعبد الملك — ثانية . الطبري ٢٧٢ ص ١٠٨٥)

انسحب الحجاج من البصرة الى الشمال بعد ان جعلها مقراً لاعماله الحربية وذلك حينما وجد جوعه قليلة نسبة للجموع الاشعثية . ولم تكد البصرة تسقط بايدي الثوار حتى وثبت الكوفة وطردت عامل الحجاج عنها فاحتلها ابن الاشعث . وقد طال الحجاج ابن الاشعث الى ان انته النجيدات المتواصلة من الشام . ثم التقى به في « دير الجاجم » - موضع قريب من الكوفة - واخذوا يتزاحفون في كل يوم ويقتتلون وقد دامت المعركة نحواً من مئة يوم (٢ ربيع الاول الى ١٥ جمادى الاخرى سنة ٨٣ هـ ٧٠٢ م حتى تم الفوز للحجاج . فهرب ابن الاشعث الى القلوجة ومنها للبصرة وبدأت فلوله تأتيه من الاطراف وتجتمع اليه من الجهات وراح يستعد لمناجزة الحجاج الواقعة فاشتبك الفريقان في « مسكن » على دجيل فانهمز العراقيون ومضى ابن الاشعث الى سجنستان حيث قضى مسلولاً ويقال ان رتبيل ملك تركستان احتجز رأسه وارسله الى الحجاج بشرط ان لا يغزى بلاده مدة عشر سنين . وان يؤدي بعد العشر سنين في كل سنة تسع مائة الف . والمهم ان حركة ابن الاشعث التي أيدت لنا قور العراقيين من الحكم الاموي أخذت بالسيف وتبع الحجاج الزعماء الذين نأوؤه وجهدوا عليه الجهد كله ، فأءم معظمهم . وكسب الى عماله في الجهات ان لا يبقوا على احد منهم .

(٤) **أهمصره الولاة الأمويين في العراق ونفايهم في تنفيذ سياسة السيرة:**

إذا اردنا ان يكون لنا صورة حية تمثل خضوع الولاة الأمويين في العراق لسادتهم الأمويين واخلاصهم لهم الاخلاص التام في السر والعلن ومحافظتهم على طاعتهم مهما كلفهم ذلك من التضحية ، فلنأخذ الحجاج بن يوسف مثلاً صادقاً .

ولد الحجاج بن سني تسعة وثلاثين واحدى واربعين هجرية و ٦٥٩ و ٦٦١ م في قرية الكوثر من أعمال الطائف ، وأمه الفارغة بنت همام . وكانت عند المغيرة بن شعبه فطمعها فتنز وجها بعده يوسف ابو الحجاج . المحاسن والاضداد ص ١٥٨ } وكان في صباه معلماً يقرئ صبيان قريته القرآن الكريم . نستشهد على ذلك بقول الشاعر :

أينسى مكليب زمان الهزال وتعليمه صبية الكوثر

وغلبت عليه الفصاحة واشتهر بالخطابة والادب فقد (معجم البلدان ص ٣١٦ - ٣١٧ ج ٢) من اشهر الخطباء والادباء في العصر الأموي . وقد روى لنا الجاحظ انه « قال عبد الملك خالد بن سلمة الخزومي : « من أخطب الناس ، قال « أنا » قال ثم من قال « سيد جنام يعني روح بن زنباع قال ثم من قال « أخيفش ثقيف ، يعني الحجاج » قال ثم من قال « امير المؤمنين »

قال « ويحك جعلتني رابع اربعة » قال « نعم هو ماسمت » . (البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٧) وقال ابو العلاء : « مارأيت احداً أفصح من الحسن ومن الحجاج » وقال عتبة بن عمرو « رأيت عقول الناس يقرب بعضها من بعض الا الحجاج وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس » ابن عساكر ج ٤ ص ٤٩ « وكن متين الاخلاق شريفاً فلم يتعاطى الخمرة ولم يسكر حتى انه رفض ان يحتسيها مع الخليفة الوليد الاول . قال ابن عساكر : تغدى الحجاج يوماً مع الوليد فلما انقضى غذاؤهما دعاه الوليد الى شرب النبيذ فقال يا امير المؤمنين الحلال ما حلت ولكني انهي عنه أهل عملي واكره ان اخاف قول العبد الصالح — وما اريد ان اخالفكم لما انها كم عنه — ابن عساكر ج ٤ ص ٦٧) . واشتهر باستحسانه للجرأة الادبية وبغضه للنفاق فيروى انه خطب الحجاج يوماً فقال (ايها الناس الصبر على محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام اليه رجلٌ فقال له ويحك ما اصفق وجهك وأقلّ حياءك ، تفعل ما تفعل ثم تقول مثل هذا فأمر به فأخذ فلما نزل عن المنبر دعا به فقال له لقد اجتأت عليّ فقال له يا حجاج انت تجتري على الله تعالى ولا تنكره على نفسك ، واجتأت عليك فانسكرت علي فخلى سبيله . ابن عساكر ج ٤ ص ٦٠) .

وقال المدائني : (أتى الحجاج بأسيرين ممن كان مع ابن الأشعث فأمر بضرب اعناقهما . فقال أحدهما أصلى الله الأمير أن لي عندك يداً قال وماهي فقال ذكر ابن الأشعث أمك يوما بسوء فنهيته قال من يعلم ذلك قال هذا الأسير الآخر فسأله الحجاج فقال قد كان ذلك فقال له لم لم تفعل مثل ما فعل قال أينفعني الصدق عندك قال نعم قال : لبغضك وبغض قومك ، فقال الحجاج خلوا عن هذا لصدقه وعن هذا لفعله . ابن عساكر ج ٢ ص ٦٢) . وبلغت به الصراحة جداً أنه عدد عيوبه ، فقال : (أنا لجوج حقود حسود . ابن عساكر ج ٤ ص ٧٢) . وأولع الحجاج بتزيين نفسه وترتيب هندامه حتى لقد قال فيه ابن بردة أحد أشراف العراق : (كان عدو الله يتزين بتزين المومسة ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار فإذا نزل على عمل الفراعنة . واكذب في حديثه من الدجال . البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٢) .

أما فلسفته في الحياة فترمي إلى الخش على الأعمال الصالحة لأن هذه الدنيا ليست بدار قرار . وكانت مواعظه كلها تحض على التقوى ومخافة الله واليوم الآخر . وهاك أشهرها :

١ - « ألا أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، وجل خطم نفسه وزمها فقارها بخطامها إلى طاعة الله ، وكبحها بزمامها عن معصية الله » .

٢- (امرءٌ زود نفسه ، امرءٌ اتهم نفسه على نفسه ، امرءٌ اتخذ نفسه عدوةً ، امرءٌ حاسب نفسه قبل أن يكون الحسابُ الى غيره ، امرءٌ نظر الى ميزانه ، امرءٌ نظر الى حسابه) .

٣- (أما بعدُ فإن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغترنكم شاهد الدنيا على غائب الآخرة ، واقهرراه ، واطول الأمل بقصر الأجل) .

٤- (امرءٌ غفل عن الله تعالى ، امرءٌ أفاق وأستفاق فأبغض المعاصي والنفاق وكان الى ما عند الله بالأشواق ، امرءٌ ذهبت ساعةٌ من عمره لتغير ما خلق لحري أن تطول عليها حسرتة الى يوم القيامة) .

(ابن عساكر ج ٤ ص ٦٠)

٥- (امرءٌ زود عمله ، امرءٌ حاسب نفسه ، امرءٌ فكر فيما يقرؤه في صحيفته ويراه في ميزانه ، امرءٌ كان عند قلبه زاجراً وعند همه ذاكراً ، امرءٌ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجلُ بخطام جملةٍ فان قاده الى طاعة الله قبله وتبعه وان قاده الى معصية الله كفه . البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٨٨) .

وغالى بعض الناس في قولهم انه لم يعتقد بالله ولا بالأسلام . ولعل ذلك ناتج عن اسرافه في سفك الدماء حباً بتوطيد نفوذ الأمويين . والحقيقة انه

كان يرى في الإسلام بلسماً وملجأ . نستشهد على رأينا هذا ببيتين من
الشعر قالهما في أخيه محمد بن يوسف لما أتااه نعيه :

حسبي ثواب الله من كل ميت وحسبي بقاء الله من كل هالك
إذا ما لقيت الله عني راضياً فإن شفا النفس فيما هنالك
(اليمان والتبيين ج ٣ ص ٢١٥)

وقال عمر بن عبدالعزیز وكان يبغض الحجاج : ١ ما حسدتُ الحجاج
عبد الله على شيء حسدي إياه على حبه للقرآن واعطائه اهله وقوله حين حضرته
الوفاة اللهم اغفولي فإن الناس يقولون انك لا تفعل وقال حين
حضرته الوفاة :

يارب قد حلف الاعداء واجتهدوا بانني رجل من ساكني النار
أجلفون على عمياء وبهم ما علمهم بكثير العفو غفار
ابن عساكر ج ٢ ص ٨٢)

وكان بدء حياته السياسية الخراطة في سلك الشرطة وترقى فيها لنشاطه
وجلادته حتى أصبح رئيساً لشرطة عبدالملك حينما خرج لقتال مصعب بن الزبير
في العراق . وقد أبدى من المهارة والاخلاص والتضحية في خدمة الأمويين
مادما عبدالملك الى اسناد قيادة الحملة الحجازية لتأديب ابن الزبير اليه . ففرى

على سياسة الشدة والإرهاب فاعدم المتخلفين من الجند والزعماء فهابوه وتقهروا
 أوامره بتمامها. وكان يقدم الشجعان والمخلصين ويغمرهم بعطاياه فصار له
 حزبٌ من الجند يأتمر بأمره ويسعى لأكتساب رضاه. ووُلِّي بعد ذلك
 مندوباً سامياً للخليفة على الحجاز واليمامة. ثم انتقل لمثل منصبه في العراق
 وبقي فيه نحواً من عشرين عاماً ساس خلالها البلاد بيد من حديد فاخفت الثورات
 وأرسل الجيوش لفتح تركستان والهند = ومنصف القتوح في حينها —
 وقد مات الحجاج سنة ٩٥ هـ (٧١٣ م) وله من العمر أربع وخمسون عاماً.
 جاهد الحجاج في اعداء الأمويين جهاداً عظيماً فقتل وأسرف في القتل
 حتى ليقال انه قتل صبراً مائة وعشرين ألفاً أو مائة وثلاثين ألفاً. (الطبري
 82 V2 ص ١١٢٣ ومعجم البلدان ج ٤ ص ٨٨٢). وأحضي بمحبس
 الحجاج في واسط ثلاثة وثلاثون ألف إنسان لم يحبسوا في دم ولا تبعه ولا دين
 (معجم البلدان ج ٤ ص ٨٨٢). لسنا لنحاسب المؤرخين على هذه الأرقام
 الضخمة لكننا نعتقد اعتقاداً أكيداً ان الحجاج لم يتأخر عن اعدام
 المعارضين للأمويين وتقيهم وسجنهم. وصرح مرة انه مستعد للتنكيل بكل
 من لا يطيع عبد الملك فقال من خطاب له في البصرة: اتقوا الله ما استطعتم
 فهذه لله وفيها مثوبة. واسمعوا واطيعوا فهذه لعبد الله وخليفة الله وحيد الله

عبد الملك بن مروان ، والله لو امرت الناس ان يأخذوا في باب واحد ،
وأخذوا في باب غيره لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، العقد الفريد ج ٢
ص ٣٨٠ — ٣٨١) . ويذكر الطبري : (لما قرأ عليهم — أهل الكوفة —
كتاب عبد الملك قل القاريء اما بعد سلامٌ عليكم فاني احمد اليكم الله فقال
له — أي قال الحجاج للقاريء — « اقطع يا عبيد العصا » أسلم عليكم
أمير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام . هذا ادب ابن نهيمة ، اما والله لأؤدبنكم
غير هذا الأدب . ابدأ بالكتاب فلما بلغ الى قوله اما بعد سلام عليكم
لم يبق منهم احد الا قال وعلى امير المؤمنين السلام ورحمة الله . الطبري
S 2 V 2 ص ١٧٠) .

لم يخدم الحجاج الأمويين حجاباً بالثروة التي قد يجمعها من ورائهم بل
طاعة لهم ومحبة بهم . فقد مات ولم يترك الا ثلاثمائة درهم ومضجعاً وسيفاً
وسرجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة . اهـ .

الفصل الخامس

الفتوح الأموية

١ - الفتوح في الشام البيزنطية:

ملطية، طرندة، الثغور السامية، أو العواصم، معاهدة الفاتحين لسلطانهم - سورية،
الجراجمة، اللابنانيون، الحمد إلى الفسطاطية،

٢ - الفتوح في الشام الشرقية

فتح طبرستان وجرمان، يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، فتح سجستان،
فتح فرامان، فتح ماوراء النهر، المهلب بن أبي صفرة، قتيبة بن مسلم،
الفتوح الصينية، اسباب نجاح قتيبة بن مسلم، اغتباط القادة العرب،
مأساة قتيبة بن مسلم، فتح الهند والسند، محمد بن القاسم،

٣ - الفتوح في الشام الأفريقية والاورية

انصاع القبائل البربرية، القبروان، فتح تونس وطنجة، موسى بن نصير
فتوح اسبانية،

قام الامويون بفتحهم العظيمة حينما استتبّت لهم الامور في البلاد،
وهدأت نيران الثورات، واستظل الناس في بحبوحة العيش الرغيد . فاقدموا
على توسيع رقعة المملكة الأموية في ساحات ثلاث هي الساحة البيزنطية
والساحة الشرقية والساحة الافريقية الاوربية .

١ المتروخ في الشام البيزنطية :

اطلقنا على الساحة الاناضولية اسم الساحة البيزنطية لأنها كانت تخضع
للبيزنطيين في القسطنطينية ، ويدعوهم العرب في مصنفاتهم بالروم ، ولأن
الامويين اشعلوا لهم في هذه الديار حرباً ضروساً بقيت زمناً طويلاً . ويمكننا
ان نقول ان هذه الحرب هي عبارة عن سلسلة من الغزوات المتقطعة امتدت
من عهد معاوية الأول الى سقوط الدولة الأموية في الشام . وقد تتابعت هذه
السلسلة من الغزوات ايضاً على عهد العباسيين .

فلما ولي معاوية الاول الشام فتح « ملطية » عنوة ورتب فيها رابطة من
المسلمين وشحنها بالجنود الشامية والجزرية واكثر فيها العدة والسلاح .
وكل همهم من ذلك ان يجعلها محطة يضرب بها المسلمون الروم دائماً فتبقى
طريقاً للصوائف العربية . وقد انتهز البيزنطيون القرصة ايام الجرركة التي بيرية
فاغاروا عليها وشعثها قواهم وانزلوها قوماً من الارمن والنبط وغيرهم من

النصارى ، فبذلت الجيوش الاموية جهدها في تثبيت اقدامها في الاتاضول
 فخصنت (طرندة) سنة ٨٣ هـ و (٧٠٢ م) وبنت بها المساكن وهي على
 بعد ثلاث مراحل من ملطية . وكانت الطوالع من جند الجزيره والشام
 تقيم بها في الصيف فنزل الشتاء ، وتساقت الثلوج قفلوا عنها . ورحل
 عمر بن عبد العزيز اهل طرندة عنها واباح لهم السكنى في ملطية وحصنها
 وجعلها بالجند لاعتقاده انها اكثر ثباتا على مقومة العدو وذلك لمناعة قوما
 الحربي . ولم يتهاون البيزنطيون في امر ملطية فخرج اليها منهم عشرون الفا
 سنة ١٢٣ هـ و (٧٤٠ م) فبنت العرب فيها واستقتلت النساء العربيات
 فروى لنا البلاذري انهن ظهرن على السور وعليهن الهائم ققاتلن .

وكانت لمسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد اليد الطولى في هذه الفتوح
 فسقطت امام جهودهما حصون طوانة وقسطنطين وغزاة والانخرم واذرولية
 وغيرها كسمسطية وماسة والحديد وكلها من ناحية ملطية . وفتح كذلك
 حصني سوسة وبولس من اعمال المصيصة وهي مدينة على شاطئ جيحان
 تقارب طرسوس ويقول عنها معجم البلدان انها (من مشهور ثغور الاسلام
 وقد رابط بها الصالحون قديماً وبها بساتين كثيرة يسقيها نهر جيحان وكانت
 ذات سمور وخمسة ابواب ، ومن مصنوعات القراء تحمل الى الافاق وربما بلغ

القرى منها ثلاثين ديناراً ، معجم البلدان ج ٤ ص ٥٥٨) .

وبنى المصيصة على أساسها القديم عبدالله بن عبد الملك بن مروان ووضع بها سكانا من الجند فيهم ثلثمائة رجل انتخبهم من ذوي البأس والنجدة المعروفين ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك وبني فيها مسجداً فوق تل الحصن (البلاذري ص ١٧٢) .

والمهم من كل ما قدمناه انه كان للمسلمين على الحدود الاناضولية السورية ثغور تعرف بالثغور الشامية وقد سماها الرشيد العباسي فيما بعد « بالعواصم » وهي انطاكية وما جاورها فكانت الجيوش الأموية تسير منها الى الحصون والمسالخ البيزنطية فتنهبها وتعمل فيها الدمار والنار خصوصا في المنطقة الواقعة ما بين الاسكندرونة وطرسوس اليوم . وكان اهلها يخلونها ايام الصوائف أو يصمدون للامويين ان عاونتهم حكومة القسطنطينية وشحنها بالمقاتلة والذخيرة . وطالما كمن أهل هذه الديار للكتائب الأموية فأصابوا غرة المتخلفين والمتقطعين عنها فخلع لذلك الولاة فيها الجند الكشيف الى حين خروجهم .

ولا يغرب عن بالنا ان المسلمين لدى فتحهم البلاد السورية عاملوا اهلها معاملة طيبة واسندوا اليهم المناصب الجليلة ولم يتدخلوا في شرائعهم فابقوا

لهم محاكمهم وقضاتهم فاستندت بعض العناصر المغلوبة على أمرها من هذا التساهل وراحت تتواطئ مع الروم على المسلمين كالجراحة واللبنايين . اما الجراحة فهم من الجرجومة وهي مدينة على جبل الاسكام بين يباس وبوقا ، فلما فتح ابو عبيدة ابن الجراح انطاكية ثانية بعد غدرها وتفضها عهد الاولي غزا الجرجومة فبدء اهلها بطلب الصلح والامان ولم يقاتلوه فعقد معهم صلحا تضمن الشروط الآتية :
 اولاً : يصاح المسلمون الجراحة على ان يكونوا اعداء للمسلمين وعيوناً ومسالخ في جبل الاسكام .

ثانياً لا يأخذ المسلمون الجزية من الجراحة .

ثالثاً : ينقل الجراحة اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم .

رابعاً : يدخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم واهل القرى في هذا الصلح . وقد سمي هؤلاء بالرواديف لانهم تلوم وليسوا منهم . (البلاذري ص ١٦٦ - ١٦٧ -)

فترى ان هذا الصلح لا يعقده غالب مع مغلوب لما هو عليه من التساهل وحسن المعاملة ، ولا شبهة ان الجراحة كانوا اقوياء الشكيمة شديدي المراس فأحب ابو عبيدة ان يستفيد من دأقهم فعقد معهم هذا الصلح الشريف

الضامن نوعاً لاستقلالهم . غير أنهم كانوا لا يستقيمون للولاية الأمويين ، فيشورون
 المرة تلو المرة ويكتبون البيزنطيين ويمالئونهم . وإذا غزت الصوائف قطعوا
 على اللاحق والمتخلف من المسلمين وأعملوا فيه السيف فأجبر معاوية الأول
 اتقاء لشركهم ان ينقل الى السواحل السورية قوماً من زط البصرة سنة
 ٤٩ - ٥٥ هـ (٦٦٩ - ٦٧٠ م) وقد وهب لهم الارضين وبذل لهم في
 العطاء كما يكونوا شوكة في عيون الجراحة .

فلما استفحل امر ابن الزبير ودانت له الحجاز والعراق وقام عمرو بن سعيد
 يطلب الخلافة هاجم البيزنطيون جبل الاسك فحاقهم الجراحة وراحوا
 يساعدونهم ويثيرون دعوتهم وقد تم لهم القوز والغلبة حتى اخضعوا لبنان
 لسلطانهم وكادوا يستولون على دمشق فاضطر عبد الملك بن مروان يومئذ الى
 ان يؤدي للجراحة الف دينار في كل جمعة ، وان يصالح البيزنطيين على مال
 يؤديه لهم مخافة ان يخرجوا الى عاصمته فيغلبون عليها .

عرف الأمويون انه لامناص لهم من التغاب على الجراحة حفظاً للتخوم
 الشامية الشمالية واستبقاءً للثغور التي افتتحوها في الساحة البيزنطية . فوجه
 اليهم الوليد بن عبد الملك اخاه مساهمة بن عبد الملك سنة ٨٩ هـ (٧٠٧ م) فاناخ
 عليهم وخرب مدنهم وقراهم وأجبرهم على قبول الشروط الآتية :

اولاً : ينزل الجراجمة بحيث أحبوا من الشام ويجري على كل امري منهم ثمانية دنانير وعلى عيالهم القوت من القمح والزيت وهو مديان من قمح وقسطان من زيت .

ثانياً : لا يكره الجراجمة ولا احد من اولادهم ونسائهم على ترك النصرانية .
ثالثاً : يلبس الجراجمة لباس المسلمين .

رابعاً : لا يؤخذ منهم ولا من اولادهم ونسائهم جزية .

خامساً : يغزون مع المسلمين فيقتلون اسلاب من يقتلونه مبارزة .

سادساً : يؤخذ من تجاراتهم واموال مرسريهم مايؤخذ من اموال المسلمين .
(البلاذري ص ١٦٨) فسكن بعضهم حصص وغيرها من الامكنة المجاورة لها .
واستجلب الوليد بن عبد الملك ايضاً بعض الزط فبعث بهم الحجاج اليه ومعظمهم من الاسرى الذين قبض عليهم محمد بن القاسم في السند . فسان بذلك على خطة معاوية الاول . ولا ريب عندنا ان جماعات النصرانية في بلاد العلويين من اعمال سورية قد ورثوا كثيراً من العقائد النصرانية والهندية لاختلاط الجراجمة والزط بهم . وانا لنوجه انظار من يدرسون العقائد النصرانية الى هذه النقطة في ابحاثهم .

وكان اللبنانيون يحالفون الجراجمة ويكتبون البيزنطيين ويرجع ذلك

في اعتقادنا للرابطة الدينية التي تربط هذه الجماعات بعضها ببعض ، فعاملهم
الامويون بالرحمة والعدل فأخلدوا للسكينة . فلما قامت الدولة العباسية أجلت
الهيئة الثائرة منهم عن بلادها وكادت تبطش بالبقية الباقية لولا نصيحة الامام
الاوراعي ووساطته في حمايتهم . والاوراعي مدفون في ضاحية بيروت .
قال البلاذري في هذا الصدد ما يأتي : (خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل
خراج بعلمك فوجه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلتهم
وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم الى قراهم وأجلى قوماً من أهل لبنان . . .
فكتب الاوراعي الى صالح رسالة طويلة حفظ منها :) (وقد كان من اجلاء
أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت
بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت ، فكيف يؤخذ عامة بدنوب
خاصة حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم وحكم الله تعالى) (ان لا تزرؤوا زرة
وزر اخرى) وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به واحق الوصايا ان تحفظ
وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قال : من ظلم معاهداً وكلفه فوق
طاقته فأنا حجيـره . (البلاذري ص ١٦٩)

صمم الامويون مراراً على مهاجمة البيزنطيين في عقر دارهم فيستولون على
الاناضول والقسطنطينية وينشرون لواء الاسلام في اوربة ويقطعون كل أمل

للعناصر الثائرة في سورية كالجراحة وغيرهم من التطلع الى الحماية الاجنبية فيحبطون بذلك كل المؤامرات والدسائس الداعية لقتل قوذهم في الشام . فجرد معاوية الأول حملته المشهورة بقيادة سفيان بن عوف فكان نصيبها القتل وقد اسهبنا في وصفها في كتابنا (معاوية ابن ابي سفيان) . فعزم سليمان بن عبد الملك الخليفة الشاب على افتتاحها مهما كلفه الامر فجهز جيشاً بلغ مائة وعشرين الفا سنة ٩٨ هـ و (٧١٦ م) بقيادة اخيه مسلمة بن عبد الملك . فعبر الخليج وحاصر المدينة وضيق على أهلها كل التضييق حتى انهم قبلوا أن يعطوه عن كل رأس ديناراً أن رجع عنها فأبى الافتتحها عنوة . فانتجأ احد زعمائهم البطريق لاوون الى الحيلة فوعد مسلمة ان يفتح له ابواب المدينة ان تمنح عنهم بجيشه وأمدهم بالطعام واستوثق منه الامان لنفسه ولنويه فأمدهم وتمنح عنهم جانباً الى بعض الساتيق ليطمئنوا ، وأعد البطريق لاوون السفن والرجال فنقلوا في ليلة ذلك الطعام ولم يتركوا منه الا ما لم يذكر حسب رواية ابن العبري (ص ١٩٦ - ١٩٧) . واصبح لاوون محارباً وقد ذكر المؤرخون ان لاوون خدع مسلمة خديعة يعاب عليها .

ومهما بلغ المؤرخون العرب في أمر هذه الحيلة فالحقيقة كل الحقيقة ان البرد الشديد والثلوج السكيفة والجوع وصعوبة المواصلات بين القيادة العامة

للجيش والعاصمة دمشق والعصابات البلغارية التي استجاشها لاوون للفتك بالجند من وراءه والاسطول الذي سد دونهم اسبل البحار، كل هذه العوامل سببت فشل الحملة وانهمكت قواها. وقد نزل مسلميه بفناء القسطنطينية ثلاثين شهراً فشتا وصاف. ووصف لنا ابن العبري والطبري ما اصاب هذه الحملة من الآلام والشدائد فقال الأول: (ولقي جنده ما لم يلقه جيش آخر حتى كان الرجل يخاف ان يخرج من العسكر وحده من البلغاريين الذين استجاشهم لاوون ومن الافرنج الذين في السفن ومن الروم الذين يحاربونهم من داخل. وأكلوا الدواب والجلود واصلوا الشجر والورق. ابن العبري ص ١٩٦-١٩٧) وقال الثاني (وأكلوا الدواب والجلود واصلوا الشجر واورق وكل شيء غير التراب. الطبري ص ٨٢٧) ولم يفكر الامويون بعد هذا الفشل بغزو القسطنطينية لما اصاب البلاد من الأحن الداخلية التي سببت سقوطهم وأدت الى زوال ملكهم. وظلوا محافظين على ثغورهم في الساحة البيزنطية الى ايامهم الاخيرة.

(٢) الفتوح في السامرة الشرقية :

كان للامويين القدح المعلى في الفتوح شرقاً فهم الذين مهدوا السبل لشمر المدينه العربيه والتعاليم الاسلاميه بين الأمم الفارسيه والتركيستانيه

والهندية والصينية • فسيروا جيوشهم الى الشرق الأوسط والشرق الأقصى
وبذلوا الضحايا الجسيمة في سبيل الاستيلاء على هذه الاقطار • وقد نجحوا
في استجلابهم قسماً كبيراً من هذه الأمم الى الخطيرة الإسلامية نجاحاً باهراً
غير انهم لم يتمكنوا من التغلب على لغاتها المختلفة المتباينة تغلباً عظيماً فلم تمتصها
اللغة العربية كلياً ولعل هذا ناشئ عن كثرة عددهم وارتحال قبائلهم وراء الماء
والكلأ ، وقام الدولة العباسية على سيوف الاعاجم اخيراً فانها اهتمت
بنشر الإسلام أكثر من اهتمامها بنشر العربية وتعميمها ولم يقيم الامويون هذه
الفتوح إلا حياً بالموارد الاقتصادية ودفعاً لخطر التأثير العراقيين ، واعلاء
لكلمة الله •

فتح طبرستان وهرمان :

اما العراق فكان المركز العام للجيوش الفاتحة والخطوة الحصينة لتسيير
الحملات الواسعة الواحدة اثر الاخرى الى الشرق • وكان بدء المغازي في هذه الساحة
على عهد عثمان بن عفان فانه ارسل سعيد بن العاص والي الكوفة سنة ٢٩ هـ
(٦٤٩ م) الى طبرستان فغزاها وصالح اهلها على مائتي الف درهم فكانوا
يؤدونها الى غزاة المسلمين ، وكانت الجيوش الاسلامية لاتنفك عن غزوها وربما
أعطوا الاتاوة غفواً وربما أعطوها بعد قتال • وامتاز أهل طبرستان بالشجاعة

وشدة البأس وممارسة القتال فكانوا دائماً يتمتعون من اداء الصلح فظلو ايجار بنون
ويسالمون الى ايام الدولة العباسية ، البلاذري (ص ٣٤٦) • فلما ولي معاوية
بن ابي سفيان اراد تأديبهم فأرسل مصقلة بن هبيرة على رأس جيش يبلغ
عدده عشرة آلاف فتوغل مصقلة بجيشه في بلادهم فأخذ العدو عليه المضايق
ورموا جنده بالصخور من اعالي الجبال فهلكت الحملة عن بكرة ابيها وهلك
مصقلة ف ضرب الناس به المثل فقالوا حتى يرجع (مصقلة من طبرستان)
(البلاذري ص ٣٤٢ - ٣٤٤) فحذر قادة العرب من التوغل في البلاد
الجبليّة ذات الجاهل قبل التأكد من دراستها ومعرفة احوالها معرفة تضمن
لهم السلامة •

ولم تزل طبرستان ثائرة حتى قدمها يزيد بن المهلب في جند كشيّف من
اهل المصريين واهل الشام فأقام عليها وحاصر اهلها حصاراً شديداً وقطع عنهم
المادة والذخيرة فكانوا يخرجون الى يزيد ويقاتلونه قتال المستميت الى ان عيل
صبرهم فخضع دهقانهم المعروف (بصول) على ان يؤمنه على نفسه واهل بيته وماله
ويدفع اليه المدينة وما فيها واهلها فصالحه وقبل منه ووفى له • وقد اراد يزيد
ان لا يقوم لسكانها الانراك بعد هذا اليوم قائمة فقتل منهم اربعة عشر الها
دفعه واحدة • (البلاذري ص ٣٤٢ - ٣٤٤ والطبري ٧ ص ١٣٢٠)
وعنم جميع اموالها وكنوزها وسبيلها •

ثم أتى جرجان فاستقبله سكانها بالإنابة التي كان سعيد بن العاص صالحهم عليها فقبلها وهابوه واطهروا له الطاعة والخضوع . وكان من رأي يزيد أن يضرب أهل طبرستان وجرجان ضربة قاضية فجعل يمهّد فيها الطرق ويصلحها ويقطع الأدغال التي تعيق سير جنده ويتوغّل في داخلها فوثب به الجرجانيون وبقضاهم غدروا به واستجاشوا بالديلم وحالفوا طبرستان فقتلوا عليه جميعهم مائة وطريق المواضع بينه وبين العرب فخرج منها وأصحابه كلهم قتل .
 حسبما يذكر الطبري . (الطبري ٢٧٢ ص ١٣١٧ - ١٣٢٢) ولا ريب أن هذه الحملة شتت شمل أهل طبرستان وجرجان ولكنهم لم تخضعهم إلى السلطة الأموية تمام الخضوع .

وكان أول من جدد البناء بجرجان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ونبغ بها رجالٌ اشتهروا بالعلم والأدب وكتب الحديث والفقه . ويقول ياقوت الحموي أنه يرتفع منها الأبريسم وثياب الأبريسم ويحمل إلى جميع الأفاق . كذلك الأحجار النكريمة . « معجم البلدان ج ٢ ص ٤٨ - ٥٤ »

أما يزيد بن المهلب بن أبي صفرة صاحب هذه الفتوح فكان والياً لخراسان بعد أبيه المهلب . وقد مكث فيها نحواً من ست سنين فمزلّه عبد الملك بن مروان برأي الحجاج لمنافسة بين القائدين . وطالما خشي الحجاج

من يزيد لما كان يرى فيه من النجاسة والذكاء وعلو الهمة والكرم . وكيف
لا يخافه واهل العراق تميل الى يزيد وترغب فيه وتوده لو يكون حاكمها
وسيدها . فترصده بالمكره فحبسه وعذبه فتمكن . من الهرب الى الشام
واستجار بسليمان بن عبد الملك فأجاره وشفع له عند اخيه الوليد فأمنه وكف
عنه . ولا ريب عندنا ان اهل العراق كانوا ينضمون دائماً الى صفوف يزيد
بن المهلب لأنه كان يكره سيطرة اهل الشام على العراق ويرى وجوب الاتصال
عن الشام أو التغلب على الامويين ورفع الاحن والمظالم التي ساءلها الحجاج
للناس . فحث اهل المصريين مرة على مناصبة الشاميين العداء والترصص لهم
فقال من خطاب له بواسط : « . . . يا اهل العراق يا اهل السبق والسباق
ومكارم الاخلاق ، ان اهل الشام في افواههم لقمة دسمة قد رتبت لها الاشداق
وقاموا لها على ساق وهم غير تاركها لهم بالمرء والجدال فالبسوا لهم جلود النمر .
البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٨ » . فيمكنك اذن ان تميز بين هذه الخطبة
وخطب الحجاج في العراقيين وما لهما من التأثير في النفوس ان سيئاً وان حسناً .
قال ابن خلدون كان يصف المهلب : « وكان كريماً جواداً فقال فيه
الاخطل الشاعر ٢ :

فما لسرير الملك بعدك بهجة
ولا لجواد بعد جودك جود
وأجمع علماء التاريخ على انه لم يكن في دولة بني أمية اكرم من بني المهلب

كما لم يكن في بني العباس اكرم من البرامكة. وكان لهم في الشجاعة مواقف مشهورة. ابن خلـكان ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٧٦ هـ وظل يزيد والياً لخراسان الى ان افضت الخلافة لعمر بن عبد العزيز. وكان عمر يعتقد ان يزيداً اصاب اموالاً كثيرة في فتوحه لجرجان وطبرستان ضمه لنفسه ولم يسلمها لبيت مال المسلمين. وقد مال الى هذا الاعتقاد من قراءته للرسائل التي بعث بها يزيد الى سليمان. قال في بعضها: (قد فتحت طبرستان وجرجان ولم يفتحهما احدٌ من الاكاسرة ولا احدٌ من كان بعدهم غيري واني باعث اليك بقطارات عليها احمال الاموال والهدايا. ابن خلـكان ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٧٦) ويظهر ان الخليفة عمر كان يكره آل المهلب ويقول « هؤلاء جبابرة ولا احب مثلهم. الطبري ٧ ص ٢٧٠ ص ١٣٥٠ هـ. وكان يزيدٌ ايضاً يبغض عمر ويظنه مرائياً. فترى ان البغضاء كانت متبادلة بين الطرفين. فحبسه الخليفة واستمر يزيد في سجنه الى سنة ١٠١ هـ و (٧١٩ م) - اي الى ايام عمر الاخيرة - ثم هرب مخافة ان يقع بين يدي يزيد بن عبد الملك المتزوج من آل ابي عقيل رهط الحجاج حالماً يتسكن عرش الخلافة بعد وفاة عمر العادل. والحقيقة ان يزيداً غالى في وصفه للغنائم واسرف في ذلك كل الاسراف حباً باعلاء كلمة سليمان بن عبد الملك سيده وصديقه واكتساباً للشهرة فعاد هذا عليه بالوبال. وقد دافع

يزيد عن نفسه بهذا المعنى دفاعاً مجيداً قال منه : (. . . كنت من سليمان
بالمكان الذي قد رأيت وانما كتبت الى سليمان لأسمع الناس به . وقد علمت
ان سليمان لم يكن ليأخذني بشيء سمعت ولا بأمر أكرهه . الطبري ٢٧٥ ص
ص ١٣٥٠)

ولحق يزيد بن المهلب بالبصرة فالتف حوله العراقيون وطلب الخلافة
وخلع يزيد بن عبد الملك وأطاعه أهل الأهواز وفارس فخرج في مائة وعشرين
الفا ، فندبت له الحكومة الأموية مسلمة بن عبد الملك فناجزه الواقعة في عقر
بابل وهي قرية تقع بالقرب من كربلاء (معجم البلدان ص ٦٩٥ - ٦٩٦)
فكسره وقتله وشتت شمل جيشه . وقال يزيد بن عبد الملك لما حمل اليه رأس
يزيد بن المهلب : ان يزيداً طلب جسيماً وركب عظيماً ومات كريماً (ابن خلكان
ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٦) . وهكذا قضى فاتح جرجان وطبرستان صريعاً
في العقر وهو يطلب الاستقلال للعراق والسلمطان لذاته . وكان الحسن
البصري امام البصرة يومئذ يثبط الناس عن يزيد بن المهلب ويدعوهم الى
السلام والطاعة لخليفه والسكر عن سنك الدماء وينهدهم في النزاع والفتنة .
وقد كان لأقواله تأثير كبير على الناس فلم ينجدوا يزيداً النجدة المطاوعة بل
أخذوا في إهمال أمره أخيراً . ومن أقوال الحسن البصري بهذا الصدد : (ايها الناس

الزقوا رجالكم ، وكتموا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً
 على دنيا زائلة وطمع منها يسير ليس لأهلها بباقي وليس الله عنهم فيما
 اكتسبوا براص . أنه لم يكن فتنة الا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء
 والمنفهاء وأهل التوبة والخلاء ، وليس يسلم منه الا الجاهول الخفي والمعروف
 النقي ، فمن كان منكم خفياً فليعلم الحق وليجس نفسه عما يتنازع الناس فيه
 من الدنيا فكفاه والله بمعرفة الله آياه بالخير شرفاً . وكفى له به من الدنيا خلقاً .
 ومن كان منكم معروفاً شريفاً فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا . اذ الله
 بذلك فواها لهذا ما أسعده وما أرشده وأعظم أجره وأهدى سبيله فهذا غداً
 يعني يوم القيامة الزير عيناً الكريم عند الله مآباً ، الطبري ١٤٠٠ : ١٤٠١ .

فتح سجستان :

وجه معاوية الأول ابن عامر والياً على البصرة فأرسل هذا عبد الرحمن
 بن سمرة الى سجستان فافتتح بعض مدنها عنوة والبعض الآخر صلحاً حتى
 بلغ كابل فحاصرها شهراً ورمى حصارها بالنجنيق فخضع أهلها . (البلاذري
 ص ٢٠٣ : ٢٠٤) وتشهر سجستان برياحها الشديدة وطبيعتها الجبلية
 وجوها القاسي . ويمتاز أهلها بكبر الجثة والجلادة ومعظمهم من الفرس .

وقد امتنعوا على بنى أمية فلم يشتموا علياً على منابرهم ولم يلعنوه ويقول معجم البلدان ان « أهلها يعتمون بثلاث عمام وأربع كل واحدة لون ما بين احمر وأصفر وأخضر وأبيض وغير ذلك من الألوان على قلانس لهم شبيهة بالمسكوك ويلفونها لثاً يظهر الوان كل واحدة منها ، واكثر ما تكون هذه العمام ابريسم طولها ثلاثة أو اربعة اذرع . ولا تخرج لهم امرأة من منزل أبداً وان أرادت زيارة أهلها فبالليل . وبها كثير من الخوارج يظهر من مذهبهم ولا يتحاشون منه ويفتخرون به عند المعاملة . ج ٣ ص ٤١ - ٤٥ .

فتح خراسان :

تشتمل خراسان على امهات من البلاد اشهرها نيسابور وهراة ومرو - وكانت عاصمتها - وبلخ وطالقان و نسا و اييورد و سرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي هي دون نهر جيحون . فلما انتشر الاسلام فيها رغب الناس في تعاليمه ومبادئه فاسرعوا اليه ودخلوا في حظيرته وصالحوا عن بلادهم فلم يفتحها العرب عنوة ولم يتكبد سكانها الخسائر الجمة التي تأتي بها الحروب عادة ، ولم يصابوا بالويلات التي أصيب بها أهل جرجان وطبرستان فخفف خراجهم ولم تسفك دماؤهم .

دخل المسلمون خراسان سنة ١٨ هـ و (٦٣٩ م) في أيام الخليفة عمر
ابن الخطاب وقد تملك الأحنف بن قيس مدنها في مدة يسيرة غير ان
السيطرة الاسلامية لم يرسخ سلطانها في هذه الاصقاع الا حينما وجه عثمان بن
عفان والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز اليها سنة ٣٠ هـ و (٦٥٠ م)
ففتح بن عامر (ابر شهر) عاصمة نيسابور صلحاً بعد أن أمن أهلها وأكثروا
له ان يؤدوا للخرزينة كل سنة الف الف درهم (١٠٠٠٠٠٠) ثم احتل
هراة وبادغيس وبوشنج وصالح أهلها . وحفظ لنا التاريخ نسخة من كتاب
الصلح الذي عقده ابن عامر معهم وهو : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أمر
به عبد الله بن عامر عظيم هراة وبوشنج وبادغيس ، أمره بتقوى الله ومناصحة
المسلمين واصلاح ما تحت يديه من الأرضين وصالحه عن هراة سهلها وجبلها
على ان يؤدي من الجزية ما صالحه عليه وان يقسم ذلك على الأرضين
عدلاً بينهم فمن منع ماعليه فلا عهد له ولا ذمة . البلاذري ص ٤١٢ - ٤١٣) .
وكان الصلح على وصائف ووصفاء ودواب ومتاع وان يوسعوا للمسلمين في
منازلهم . . . ولم يكن عند القوم يومئذ عين . ومضى بعد ذلك الى طخارستان
ومدينتها بلخ ، ومروالروذ فاحتلها بعد قتال شديد ثم رمت الطالقان والقارياب
والمجورجان سلاحيها وخضعت جميعها للمسلمين .

فلما كانت الحرب الاهلية المشهورة بين علي ، معاوية الثالث امير خراسان وانتقضت على العرب وغدر اهلها بالحامية العربية في مختلف الحصون . ولم تنزل كذلك حتى تم الامر لمعاوية فحارب ارباب النكث وأخضعهم وعمد الى ارسال العيالات العربية اليها فأمر زياد بن ابي سفيان ان يحول من المصريين زهاء خمسين الفا الى خراسان فهدأت البلاد واصبحت المقر العام للفتوح الاسلامية في الهند والسند والصين . وانتشرت المدنية العربية بين ظهراي سكانها فكان منهم البرامكة والقحاطبة والطاهرية والساسانية وغيرهم من الجماعات المعروفة بالسخاء والجود . وقد نبغ منهم رجال رفعوا للحديث والفقه والشريعة والادب مناراً عالياً كمحمد بن اسماعيل البخاري ، ومسلم بن الحجاج القشيري ، واحمد بن حنبل ، وأبي حامد الغزالي ، والقارابي ، والزمخشري وغيرهم من ارباب العلم والفضل (معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٤)

فتح ما وراء النهر :

أسهب الجغرافيون العرب في وصف بلاد ماوراء النهر وذكروا شيئاً كثيراً من مجلسها وجمالها واخلاق سكانها وطرق معاشهم وفصلوا لتبصيرها تماماً عن عمارة بلدانها وصادراتها ، ولم اربوصفاً دقيقاً لهذه البلاد . كوصف ياقوت لها قال : (ما وراء النهر من انزه الاقاليم واخصها واكثرها خيراً ،

واهلها يرجعون الى رغبة في الخير والسخاء واستجابة من دعاهم اليه . . . مع شدة
شوكة ومنعة وبأس وعدة وآلة وكراع وسلاح .

فاما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ويتعاضد عن ان يكون في جميع
بلاد الاسلام وغيرها مثله . وليس في الدنيا اقليم او ناحية الا ويتحط اهلها
مراراً قبل ان يتحط ما وراء النهر . ثم ان اصابوا في حر او برد او آفة تأتي على
زرعهم بقي فضل ما يسلم في عرض بلادهم ما يقوم بأودهم حتى يستقوا عن
ثقل شيء اليهم من بلد آخر . وليس بما وراء النهر موضع يحلو من العمارة من
مدينة أو قري أو مياه أو زرع أو مراعي لسواهم . وليس شيء لا بد للناس منه
الا وعندهم منه ما يقوم بأودهم ويفضل عنهم لغيرهم .

واما مياههم فانها اعذب المياه واخفها فقد عمّت المياه العذبة جبالها ونواحيها
ومدنّها ، واما الدواب ففيها من المباح ما فيه كفاية على كثرة ارتباطهم لها
وكذلك الحمير والبغال ، واما لحومهم فان بها من الغنم ما يجلب من زراحي
التركان الغربية .

واما الملبوس ففيها من الثياب القطن ما يفضل عنهم فينقل الى الافاق .
ولهم القز والصوف والوبر والابر يسم . وفي البلاد من معادن الحديد ما يفضل
عن حاجتهم في الاسلحة والادوات ، وبها معادن الذهب والفضة والزئبق .
واما فواكههم فانك اذا تبظنت الصغد واشروسنة وفرغانة والشاش رأيت

من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق .
 واما الرقيق فانه يقع عليه من الاتراك المحيطة بهم ، ما يفضل عن
 كفايتهم وينقل الى الآفاق وهو خير رقيق بالشرق كله .
 وبها من المسك والزعفران ما ينقل الى الامصار الاسلامية وكذلك
 الاوبار من السمور والسنباب والثعالب وغيرها .
 واما سماحتهم فان الناس في اكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة ،
 ما ينزل احدٌ بأحد الا كأنه دخل دار صديقه . لا يجد المضيف من طارق
 في نفسه كراهة بل يستفرغ مجهوده في غاية من اقامة أوده من غير معرفة
 تقدمت ولا توقع مكافأة بل اعتقاداً للجد والسماحة في اموالهم .
 والغالب على اهل ما وراء النهر صرف تعلقهم الى الرباطات وعمارة
 الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخيرات . وبما وراء النهر زيادة على
 عشرة آلاف رباط في كثير منها اذا نزل الناس أقيم لهم علف دوابهم
 وطعام انفسهم .

واما بأسهم وشوكتهم فليس في الاسلام ناحية اكبر حظاً في الجهاد منهم
 وذلك ان جميع حدود ما وراء النهر دار حرب فمن خوارزم الى اقصى فرغانة
 هم القاهرون للاعداء بمنعونهم من دار الاسلام .

وهم أحسن الناس طاعة لكبرائهم والطفهم خدمة لعظماهم حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا من وراء النهر رجلاً . وكانت الأتراك جيوشاً ذات بأس واقدام وحسن طاعة فقدم الى الخلفاء (العباسيين) منهم جماعة صاروا قواداً وحاشية للخلفاء . ثم قوي امرهم وتوالدوا وتغيرت طاعتهم حتى غلبوا على الخلفاء مثل الافشين وآل ابي الساج وهم من اشروسنة والاشخيد من سمرقند ج ٤ ص ٢٠١ - ٢٠٣ »

ويراد بكلمة ماوراء النهر في عرف العرب كل المقاطعة الواقعة شرقي نهر جيحون فهي تشمل على بلاد الصغد واشروسنة وفرغانة والشاش وبخارا وغيرها . وكان معاوية اول من وجه وجهه نحو بلاد ماوراء النهر فاستعمل عبيد الله بن زياد على خراسان وأوصاه بفزوها ، فعبر النهر وعمره خمس وعشرون سنة ومعه جيش يتألف من اربعة وعشرين ألفاً ففتح بخارا وصالح اهلها على الف الف درهم (١٠٠٠٠٠٠) ثم دخل ييكند - مدينة التجار - وتقع بين بخارا وجيحون ولها ذكرٌ عظيمٌ في الفتوح . قال صاحب كتاب الاقاليم : « . . . ان بها من الرباطات مالا اعلم ببلدٍ من البلدان من وراء النهر اكثر منها . بلغني ان عددها نحو الف رباط ، ولها سورٌ عظيمٌ ، ومسجدٌ إجماع به محراب ليس أحسن زخرفة منه . معجم البلدان ج ١ ص ٧٩٧ »

وولي معاوية سعيد بن عثمان بن عثمان خراسان فقطع الزهر سنة ٥٥ هـ

(٦٧٤م) وأقبل اليه اهل الصغد وكس ونسف في مائة وعشرين ألفاً فنهزمهم وأفشى فيهم الجراح بمعركة بخارا ودخل مدينة بخارا ففسها ظافراً كما دخلها عبيد الله بن زياد من قبله، وصالح اهلها على سبع مائة ألف درهم وأخذ رهناً من ابناه عظيمهم ثلثاً ينتقضوا عهودهم.

ثم انه لما تولى الحجاج العراقين وخراسان بئل جهداً عظيماً في اتمام الفتوح المشرقية . وكان المهلب بن ابي صفرة ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم الباهلي قواده السكبار وسيوفه البتارة ، فهم الذين نشروا لواء بني امية حتى الصين . فغزا المهلب سنة ٩٩ هـ و (٧١٧ م) مغازي كثيرة فأدت اليه الصغد الاتاة وخضعت له كس ونسف وخجدة . وقدمات براغول من اعمال مرو الروذ حزناً على وفاة ابنه المغيرة . ولا تعلم تماماً السنة التي ولد فيها انما يمكننا ان ندعي ان مولده كان قبل وفاة النبي بسنين . ولا شبهة انك تذكر وقائعهم مع الخوارج في البصرة والاهواز وما قام به من جليل الاعمال في الحركة الزبيرية . واسندت اليه ولاية خراسان قبل وفاته ولم يزل والياً بها الى سنة ٨٣ هـ (٧٠٢ م) . وهو من القادة المجرىين في الحرب حتى ان ابن قتيبة في كتابه المعارف عابه بالسكذب ، ولكن لنذكر ان الحرب خدعة كما

قال الرسول (ص)، وعرف بكلمات ووصايا تناقلها الاديان من بعده أشهرها:
 • اوصى المهلب ابنه يزيداً بقوله: - يا بني استعقل الحاجب واستظرف الكاتب
 فان حجب الرجل وجهه، وكاتبه لسانه - وله في حسن السمعة والثناء الجميل:-
 الحياة خير من الموت والثناء الحسن خير من الحياة ولو اعطيت مالم يعطه احد
 لأحييت إن تسكون لي اذن اسمع بها ما يقال في غداً اذا مت - . ابن خلد كان
 ج ٢ ص ١٢٦ - ١٤٧ .

ورثاه نهار بن توسعة الشاعر بقوله :

الا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب
 لمع نجم قتبية بن مسلم الباهلي بعد وفاة المهلب فولاه الججاج خراسان
 فأتى بخارا ويكنى دغزاهما مع انهما صالحا قبل ذلك فأصاب فيهما كثيراً
 من آنية الذهب والفضة ففوي جيشه واغتنى جنده وتنافسوا بشراء الخيل
 وحسن الهيئة والعدة وغالوا بالسلاح فقال الحكيمت :
 ويوم يكن لا تحصى عجائبه وما بخارا مما أخطأ العدد

الطبري ٧٢ ص ١١٨٥ - ١١٨٩

ثم ارسل جيشاً يتألف من عشرين ألفاً بقيادة أخيه عبد الرحمن بن مسلم
 الى الصفد واتاه بعد ذلك بنفسه مدداً فتحالقت الشاش وفرغانة مع الصفد على

العرب قتلهم فتكا ذريعاً . ورمى عاصمة الصفد سمرقند — مدينة
القيس — بالمجانيق فرضخت وقبلت التسليم حسب الشروط الآتية :

(١) — يقبض مسلم الهي الف ومائتي الف في كل عام (مليونان

ومائتي الف) .

(٢) — يعطى مسلم تلك السنة ثلاثون الف رأس ليس فيهم صبي

ولا شيخ ولا عيب .

(٣) يخلي الصفد مدينة سمرقند لقتيبة فلا يكون لهم فيها مقاتل

ويخلف فيها حامية من المسلمين .

(٤) — يتخذ المسلمون بسمرقند مسجداً .

(٥) - يقبض قتيبة على بيوت النيران وحلية الاصنام (الطبري ٢٧٤ ص ٤٢٧)

ص ١٢٤٦ ، البلاذري ص ٤٢٧ — ٤٢٨) وحرقت المسلمون معظم الاصنام

وبيوت النيران وسلبوا حليها ، ويقال انهم وجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير

الذهب والفضة خمسين الف منتقل ، الطبري ٢٧٤ ص ١٢٤٦) والمهم

ان قتيبة كان لا يطعم من الغزو بالغنيمة فقط كما فعل اسلافه بل جعل يشحن

المدن التي يفتتحها بالعدة والرجال ويستخلف فيها آلات الحرب ويعلن بها

الاحكام العرفية حتى انه اوصى اخاه عبد الله بن مسلم حينما ولاه سمرقند

يقوله: « لا تدعن مشركاً يدخل باباً من ابواب سمرقند الا مختوم اليد . . . وان وجدت معه حديدة سكيناً فما سواه فاقتله وان اغلقت الباب ليلاً فوجدت فيها احداً منهم فاقتله ، الطبري ٧ ص ٢٥٢ »

ووصف الشعراء فتح سمرقندوما ناله المسلمون من الفوز فقال نهار الشاعر :
وما كان مذكنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كان مسلم
أعم لأهل الترك قتلا بسيفه واكثر فينا مقسماً بعد مقسم

وقال كعب بن الاشعري وينسب بعضهم هذه الايات لغيره وهي :

كل يوم يحوي قتية نهياً ويزيد الاموال مالا جديداً
باهلي قد البس التاج حتى شاب منه مفارق كن سودا
دوخ السغد بالقبائل حتى ترك السغد بالعراء قعودا
فوليد ييكي لفقدايه وأب مومع ييكي الوليدا
كلما حل بلدة أو اتها تركت خيله بها أخسودا

اما بلاد الصغد فقصبتهاسمرقندوهي مشهورة ببساتينها ومزارعها وارجائها، ويحيط بها سور له اثنا عشر باباً ، من الباب الى الباب فرسخ وفي اعلاه الابرجة للحرب (معجم البلدان ج ٣ / ص ١٣٣ - ١٣٨) واعجب الجغرافيون بجمال الصغد فضللها الاصطخري على الغوطة فقال: « إن صغد سمرقند انزه البلدان

وتُشْبِكُ في أوديتها الخطرة والبساتين وقد خفت بالأنهار الدائم جريها والحياض
في صدور دياضها وميادينها . وهي ازكى بلاد الله واحسنها اشجاراً وثماراً ، وفي
عامة مساكن أهلها المياه الحارة والبساتين والحياض . قل ماتخلو سكة أو دار
من نهر جار . معجم البلدان ج ٣ / ص ٢٩٤ - ٢٩٦ .

ومن مدن الصغد مدينة كس . (أو كش) ، تقع بالقرب من سمرقند
وهي نحو ثلاثة فراسخ في مثلها حصينة وتكثر فيها الأوبئة القتالة والحميات
الخيفة لانخفاضها . (معجم البلدان ج ٤ / ص ٢٧٤)

وأما بقية بلاد ماوراء النهر فأشهرها أشروسنه . تقع بين نهر سيحون
وسمرقند وهي طيبة الهواء غلبة المياه كثيرة الجبال . معجم البلدان ج ١ / ص ٢٧٨
ومنها فرغانة وهي كورة واسعة كثيرة الخيرات عظيمة الرقعة تضم
الساتيق الكبيرة والبساتين الجمّة . أكبر مدنها حنّدة ومنها الاعناب والجوز
والتنّاح والورد والبنفسج وأنواع الراحين والفسق . وليس بما وراء النهر
أكثر من قرى فرغانة وربما بلغ حد القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار
مواشيهم ورزوغهم (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٧٨ - ٨٧٩)

ومنها الشاش وهي الثغر الكبير في وجه الترك . وبها الرباطات القوية
وتمتاز بعمران قراها ووفرة مساجدها .

وقد افتتح قتيبة كل هذه المدن التي وصفناها بعد غنا شديد وكان ذلك سنة ٩٤ هـ « ٧١٢ م » . ولم يتمكن المسلمون من بلاد الصغد أو خوارزم إلا حينما اشتدت الحرب الأهلية بين سكانها قد ذكر لنا كل من البلاذري والطبري أن شاباً من العائلة المالكة يعرف بـ « خرواذ » أو « خرزاد » أسس حزناً قوياً في البلاد وراح يظلم الشعب ويغتصب أمواله وأعراضه حتى ضاق المليك به ذرعاً فأرسل إلى قتيبة يدعوه وبعث في ذلك رسلاً . وقد هباً له أسباب الفتح فتمكن من الانتصار وانتقم من الأحزاب المعارضة ورفع لواء الأمويين في تلك الجهات . والظاهر أن قبائل الصغد كانوا ينزلون خوارزم فعرفت خوارزم ببلاد الصغد . وتجد المؤرخين العرب لا يفرقون بين البلاذري فيقولون إن سمرقند هي عاصمة خوارزم ويؤكدون أن الصغد كانوا نازلين بها . البلاذري ص ٤٢٧ = ٤٢٨ ، الطبري ج ٧ ص ١٠٣٩ .

فتح الصين : غزم قتيبة بن مسلم بعد أن وطد نفوذه في بلاد ماوراء النهر على افتتاح الصين فهباً لذلك الأسباب وأرسل كتابه الكشفة ليمهد له الطرق لاحتلال كاشغر فقم له فتحها وسببها سنة ٩٦ هـ و « ٧٤ م » ، ثم حالت الاضطرابات الداخلية في العاصمة دمشق — وستفصل لك ذلك — دون التوغل في الصين . فرضي ابن مسلم بعد المفاوضة مع ملوكها على قبول ما قدموه

له من الاموال والهدايا. وكان من نتائج احتكاك الجيوش الاسلامية بمجاعات
الصينيين انتشار الاسلام في ربوعهم. واني مورد^١ لك ما يرويه الطبري بخصوص
المفاوضات التي دارت بين قتيبة والصينيين وهي كلها تؤكد لنا ان العرب لم
يتقدموا في فتوحهم الى اقاصي الصين كما يقول بعض الغلاة من المؤرخين. قال الطبري:
«... وغل قتيبة حتى قرب من الصين فكتب اليه ملك الصين ان ابعث
الينا رجلا من اشراف من معكم يخبرنا عنكم ونسأله عن دينكم فانتخب قتيبة
من عسكره اثني عشر رجلا لهم جمال^٢ وأجسام^٣ والسن وشعور وبأس...
فكلهم قتيبة وفاضهم فرأى عتولا^٤ وجمالا^٥ فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح
والمناجيد من الخنز والوشي واللين من البياض والرقيق والبغال والعطير
وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم ودواب يركبونها وأمرهم بقوله — فاذا
دخلتم عليه فأعلموه اني قد حلقت ان لا أنصرف حتى اطأ بلادهم واختم ملوكهم
واجبي خراجهم — فدعا ملك الصين بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث
بجوير وذهب واربعة غلمان من ابناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا
فقدّموا بما بعث به فقبل قتيبة الجزية وختم الغلّة ووردهم ووطئ^٦ التراب، الطبري

(S2 V2 ص ١٢٧٧ — ١٢٨٠)

ومهما يكن من امر هذه الرواية فان فتوح قتيبة بن مسلم تسكلت بأكاليل

النجاح للأسباب الآتية :

السبب الأول : القادة يبذلون الأموال :

كان قتيبة يبذل الأموال عن سعة لجنده فلا يبخل ابداً . ويرجع الفضل في ذلك للحجاج ، فإنه لم يتأخر يوماً عن امداد المسلمين في دار الحرب بكل ماله من الوسائل الفعالة . ويعتقد الترك ان هذا هو السبب الاول في انتصاره عليهم . نستنتج ذلك من كلام احد ملوكهم المعروف برتبيل لقومه فقال لهم مرة « كان الحجاج رجلاً لا ينظر فيما اتفق اذا ظفر بيغيته ولولم يرجع اليه درهم وانتم لاتتفقون درهماً الا اذا طمعت في ان يرجع اليكم مكانه عشرة . البلاذري ص ٢٠٨ »

السبب الثاني : الطلائع الكشافة تعينه حرياً :

بعث قتيبة الطلائع الكشافة من اهل البلاد المعجم والترك ممن يستنصح لدراس احوال اعدائه درساً مفصلاً ، فكانت تأتيه التقارير عن جغرافية الاصقاع التي سعى لفتحها مع وصف شعابها ونجاده وطرقها ومدنها وادغالها كيما لا يتوغل المسلمون فيقعون في اغلاط يمكنهم اجتنابها . وامتحن طلائعه هذه ليعرف درجة اخلاصها له في اعمالها فذكر الطبري انه اذا « بعث بطليعة امر بدوح فنقش ثم يشقه شقتين فأعطاه شقة واحتبس

شقة لثلا يمثل مثلها ويأمره ان يدفنها في موضع يصفه له من مخاضية معروفة
او تحت شجرة معلومة أو خربة ثم يعث بعده من يستبريها ليعلم أصادق طليعته
ام لا . الظهري ٧٢٧ ص ١٢٨٠ - ١٢٨١)

المبحث الثالث : الحث على الجهاد :

اعتمد قتبية في فتوحه على اشغال ثيران الخمية الاسلامية وابتعادها
فاشار لجنده في خطبه عما يجده المجاهد في اليوم الآخر من الثواب
الطيب والقوز العظيم وما يلاقي عند ربه من العفو والرحمة والأجر . وما الجنات
التي تجري تحيها الا نهار الا مقرأ للشهداء الابرار . فكان يستنهض همهم
ويستثير عزيمتهم بمثل هذه الوعود . قال يحثهم على الجهاد : (ان الله احل لكم
هذا الحبل ليعز دينه ويدب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو
وقاء ، ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال -
هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون -
ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب واعظم الذخر عنده فقال - ذلك
بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا تحمصة في سبيل الله - الى قوله -
أحسن ما كانوا يعملون - ثم اخبر عن قتل في سبيله انه حي مرزوق فقال -
ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون -

فنتجزوا موعد ربكم . ووطنوا انفسكم على اقصى اثر واطفى ألمواياي والهوى فناء
الطبري ٧٢ ص ١١٧٩

السبب الرابع : دربة قتبية والقادة الذين سلفوه في الساحة الشرقية :
كان قتبية والقادة الذين سلفوه في الفتوح الشرقية من الرجال العاملين فاذا
وجدوا فرصة سانحة تمكنهم من اعدائهم اشتهروا . وطالما وعدوا وتقضوا
وعودهم حينما رأوا القدرة في جانبهم والقوة في صفوفهم فكان العجم يعجزون
قتبية بالقدرة فيذكرون انه وعد باخلاء سمرقند ولم يوف بوعده . ووصف احدى
المهلب بن ابي صفرة وهو كسنتبية بهذا المعنى ، بقوله : (كان اذا وجد الفرصة
سار كما يسور الايث ، واذا دهمته الطخمة رانغ كما يروغ الثعلب ، واذا مادته القوم
صبر صبر الدهر . كتاب الامالي للقالي ج ١ ص ٢٦٨)

اما الاعلاط التي وقع بها القادة العرب فاشدها فظاعة تشجيعهم روح
العصبية بين القبائل . فطمع بهم أهل البلاد المغلوبة على امرها ، وجعلوا يفرقون
بين العرب ويوغرون صدور بعضهم على بعض بالاحقاد . فتمكنوا بهذا من
التضييق عليهم عندما تضعفت قواهم وتفرقت صفوفهم . ولو فرق القادة
يوم افتتحوا هذه البلاد بطون القبائل في مختلف الانحاء ، وشجعوها على
الاختلاط لما اصاب العرب بما اصابوا به من التشتيت في اواخر الدولة الاموية

في خراسان وما وراء النهر .

كان قتيبة سيفاً من سيوف الأمويين البتارة فقتل عمره خواصاً للمعارك
رافعاً راية الجهاد، حاملاً بذور المدينة الإسلامية شرقاً إلى الصين . فعنه جنده
أخيراً وقتلوه واليك تفصيل الحادث :

سعى الوليد بن عبد الملك في بيعه ابنه عبد العزيز من بعده ودفع الخلافة
عن أخيه سليمان بن عبد الملك . فدخل إلى القواد والشعراء وكبار الدولة لينشروا
لعبد العزيز ذكراً وليصفوا مناقبه، وما تحلى به من جميل الخصال فأجابه الحاج
وقتيبة وغيرهما وجعلوا يشنون له الدعوة في البلاد . وقد طمع جرير بالجوائز
والهبات عندذاك فقال يمدح عبد العزيز :

إذا قيل أيُّ الناس خير خليفة أشارت إلى عبد العزيز الأصابعُ
رأوه أحقَّ الناس كلهم بها وما ظلموا فبايعوه وسارعوا
وقال يحضُّ الوليد على بيعه عبد العزيز :

إلى عبد العزيز سمت عيون الرعية إذ تحيرت الرعاءُ
إليه دعت دواعيه إذا ما عمادُ الملك خرت والسماءُ
وقال أولو الحكومة من قریش علينا البيعُ إن بلغ الغلاءُ
رأوا عبد العزيز ولي عهد وما ظلموا بذلك ولا أساءوا

فما ذا تنظرون بها وفيكم جسورٌ بالعظماء واعتلاء
 فزحمةً بها بأزملمها إليه أمير المؤمنين إذ تشاء
 فإن الناس قد مدوا إليه أكنفهم وقد برح الخفاء
 ولو قد بايعوك ولي عهد لقام الوزن واعتدل البناء
 (الطبري ٢٧ ص ١٢٨٣ - ١٢٨٤)

فتألم سليمان من هذه القصة وحقد عليها وود لو يوقع بها إذا أتاحت له
 الأيام ذلك، فلما قضى الوليد الأول، اعتلى عرش الخلافة فخافه قتيبة وأعلن
 خلعه وجعل يذمه ويشير ضغائن العراقيين ضد بني أمية والشاميين، ودعاهم إلى
 الاستقلال والاتصال كما دعاهم يزيد بن المهلب من قبله . فلقب سليمان
 (بهبقة العائشي) وذلك لأنه كذبه على ويصطنع أهل النعم واليسار ويدع من
 سواهم، وكان هبقة وهو يزيد بن ثروان يؤثر سمان ابنه بالعلف والرعى ويقول
 أنا لا أصلح ما أفسد الله . (البلاذري ص ٤٢٨) . وخطب مرة في أهل
 العراق بخراسان فقال : « ان الشام أب مبرور وان العراق أب
 مكفور . حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتم وظلال دياركم ، يا أهل خراسان
 انسبونني تجدونني عراقي الأم ، عراقي الأب ، عراقي المولد ، عراقي الهوي والرأي
 والدين وقد أصبحتم اليوم فيما ترون من الأمن والعافية . قد فتح الله

لكم البلاد وآمن سبلكم ، فالغلبة تخرج من مرو الى بلخ بغير جواز فاحتوا
الله على النعمة . الطبري ٢٧٢ ص ١٢٨٨ . فأصدرت الحكومة
الأرمينية أوامرها جالا للجيش في الساحة الشرقية بالقبول واعطاء الجند
أعطيتهم والعفو التام عن المجرمين الذين كانوا في سجن قتيبة . وكان الناس
قد سئموا القتال وودعوا الرجوع الى الأوطان وتطلعوا الى السلام فلم يجبه أحد
الى خلع سليمان ، فقسم كبار الزعماء ونسبهم الى الغدر والمكر فثاروا به بقيادة
وكيع بن حسان بن قيس التميمي وهو اعراقي جاف . واتحدت العجم معهم
عليه لبلائه فيهم فقتلوه مع أهله وأحزوا رأسه وهو لا يتجاوز الخامسة
والخمسين . فارتاح سليمان لمقتله لكنه قدت به بنو أمية بطلها المغوار فيكاه
الشعراء وأسف لمقتله الناس . فقال عبد الرحمن بن جانة يرثيه :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر بجيش الى جيش ولم يعل منبراً
ولم يحقق الرايات والقوم حوله وقوف ولم يشهد له الناس عسكراً
دعته المنيا . فاستجاب لربه وراح الى الجثات غدا مطهراً
وشهد قتيبة أحد الاعاجم فقال : (يامعشر العرب قتلتم قتيبة ، والله
لو كان قتيبة منامات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا ،
وبما صنع أحد قط بخراسان ماصنع قتيبة الا انه قد غدر وذلك ان الحجاج

كتب اليه ان اختلهم واقتلهم في الله . الطبري ٧٢ ص ١٣٠٠

فتح الهند والهند :

قلنا فيما تقدم ان الفتوح المشرقية بدأت على عهد عثمان بن عفان . وكان عبد الله بن عامر بن كرز والي العراق اذ ذاك ، ساعده الايمى وبنيه البطاشة ، فاراد غزو الهند والاستيلاء عليها فوجه كشافته الى حدودها لأختبار احوالها فرجعوا وثبطوا همته اعتقاداً منهم ان البلاد لا تخضع الا لجيش قوي متين . فقالوا له : « ان قل الجيش فيها ضاعوا وان كثروا جاعوا . البلاذري ص ٤٣٨ »

ولم يقيم بفتح الهند وتثبيت اقدام المسلمين فيها الا محمد بن القاسم وقد ولاه الحجاج في ايام الوليد الاول فارس ، وعتمد له على جيش يتألف من ستة آلاف وكلهم من الشام ، وجهزه بكل ما يحتاج اليه حتى الخيوط والمسالك كما روي البلاذري « ص ٤٤١ » .

وهنا يعدد لنا المؤرخون اسماء البلاد التي افتتحها فيقولون انه سار من « شيراز » الى « مكران » ف « قنبر » ف « ارماثيل » ف « الديبل » ف « البيرون » ف « سهيان » ف « مهران » ف « برهمناباذ » ف « ساونديري » ف « الزور » ف « الملتان » . ولا ريب ان اشهر المعارك

التي خاض غمارها محمد بن القاسم هي معركة الديبل فانه خندق حول المدينة ورمها بالنجنيق فافتتحها عنوة ، ومكث يقتل من فيها ثلاثة ايام ، ثم اختط بها للمسلمين وبنى لهم مسجداً وانزلها أربعة آلاف من جنده . وقد امتازت الديبل بمنازلها العظمى وبها الاصنام المقدسة وكانت تعرف عندهم (بالبد) . اما الملة من اعمال السند فهي ايضا من المدن المقدسة عند الهنود وكانت تهدي الى بعدها الاموال وينذر له الندور ، وتخرج اليه اهل السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم والحام « البلاذري ص ٤٤٥ »

نصر محمد بن القاسم الوليد في دعوته لأبنه عبد العزيز ، فعزله سليمان بن عبد الملك وعين مكانه يزيد بن ابي كبشة السكسكي ، وأمره بسجنه فقبض عليه وعذبه ثم نقله الى واسط العراق فأعدمه صالح بن عبد الرحمن والي المصريين ففضى وهو يمثل بهذا البيت :

أضاعوني واي فتى اضاعوا اليوم كرهية وسداد نغر

وقال يتألم من سجنه ويذكر ماضيه :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب فتية فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا

وقال : وما دخلت خيل السكاسك ارضنا ولا كان من عك علي أمير
ولا كنت للبعد المزوني تابعاً فيالك دهره بالكروام عثور
وبكى الهنود محمداً لسماحته وعدله وكرم خلقه ، ورثاه حمزة بن بيض
الحنفي بقوله :

ان المرؤة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
سلس الجيوش لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سودداً من مولد

« البلاذري ص ٤٤٦ »

فترى ان ثلاثة من قادة الفتوح الشرقية وهم يزيد بن المهلب، وقتيبة بن
مسلم، ومحمد بن القاسم ذهبوا ضحية المصالح السياسية ، وهذا دليل كاف لأن
يبرهن لنا ان السياسة لا ترحم احداً .

(٣) الفتنوح في السامرة الافريقية الاوربية :

كانت العراق هي المثلث العام للفتنوح الشرقية . اما الثغور الشامية وظلت
دوماً الخطة الرسمية للمغازي في الساحة البيزنطية . واصبحت مصر بعد
خضوعها للمسلمين المركز الحصين لجيشهم في اقتحام شمالي افريقية .
فلما ولي عبد الله بن ابي سرح مصر على عهد عثمان بن عفان كان يرسل
جرائد الخيل ويبعث السرايا فيفرقها في الاطراف فيغزو القبائل البربرية ويستاق

مواشيها ويصيب الموالها فلم يخطط للمسلمين بها بل كانت أعماله محصورة في الغزو والسلب. وكان ذلك بين سنة ٢٧ هـ وسنة ٢٩ هـ و (٦٤٧ - ٦٤٩ م) ، وفتح عقبة بن نافع المهري افريقية على عهد معاوية الأول - وتقصد بافريقية البلاد التي كان يقطنها البربر حوالي القيروان اليوم - في عشرة آلاف من المسلمين فاخطط القيروان وبنى بها الدور والمسكن وشيد المسجد الجامع فيها وانزلها جند سنة ٥٠ للهجرة و (٦٧٠ م) وتابع عقبة فتوحه حتى تم له الاستيلاء على طرابلس فاخضع قبائل لواته ل (كتاب الولاة والقضاء ص ٣٢ - ٣٣ ، والبلاذري ص ٢٣٥ - ٢٣٦) ونشر بينها الاسلام .

أسند عبد الملك بن مروان ولاية مصر الى أخيه عبدالعزيز بن مروان ، فحصر همه في اتمام الفتوح الافريقية فأخضع تونس . ثم وجه موسى بن نصير الى طنجة ففتحها واخطط فيها للمسلمين وحصنها تحصيناً تاماً ، وولاهها طارق بن زياد مولاه . ووطئت جيوشه الشوس الادنى والشوس الأقصى فأطاعت له قبائل هوارة وزناته وكتامة وصنهاجة وسجوما (ابن قتيبة ص ١٠٤ - ١٠٦ - ١١٣ ج ٢ ، والبلاذري ص ٢٣٨) وجعل ينشر الاسلام بينها بنشاط رائد وهمة لا تعرف الملل ، فكان يتقرب منهم ويصلي بهم ويخطب فيهم ، الدولة الأموية في قرطبة ج ١ ص ١٩) وبنل الاموال في سبيل ذلك فروي ابن قتيبة :

«ان موسى اذا افاء الله عليه شيئاً اشترى من ظن منهم انه يقبل الاسلام
وينجب، فيعرض عليه الاسلام فان رضي قبله من بعد ان يمتحن عقله
ويجرب فطنة فهمه، فان وجدته ماهراً أمضى عتقه وتولاه. ابن قتيبة، ج ٢
ص ١٦٩. وقال ابن خلسكان: «... وترك موسى خلقاً كثيرًا من
العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام ج ٢ ص ١٣٤ — ١٣٥»
ولذا لا نعجب ابداً ان رأيناهم بعد ذلك مادة جيشه في فتح الاندلس.

أسس موسى بن نصير في تونس داراً لصناعة السفن وأجرى البحر إليها
مسيرة اثني عشر ميلاً، فأقحمه أياها فصارت ملجأ للمراكب اذا هبت الانواء
والارياح في فصل الشتاء. وكانت هذه المراكب خفراً للسواحل الأفريقية
وبلغ عددها نحواً من مائة مراكب حوالي سنة ٨٤ هـ و (٧٠٣ م) وغزا
بها سرقوسة من اعمال صقلية وسردانية وافتتح جزيره ميورقة.

اما فاتح افريقية موسى بن نصير فقد ولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة
١٩ هـ و (٦٤٠ م) وكان ابوه مسيحياً من عين التمر، وهي بلدة قريية من
الانبار غربي الكوفة تقرب من قرية يقال لها شفاثا ويحلب منها التمر الى
سائر الامصار. وفتحها المسلمون على يد خالد بن الوليد سنة ١٣ هـ و (٦٣٤ م)
عنوة. وكان والده نصير على حرس معاوية بن ابي سفيان ومنزلته عنده

مكيمة « ابن خلسكان ج ٢ ص ١٣٤ - ١٣٥ » « معجم البلدان ج ٣ ص ٧٥٩ » ، وقضى موسى مغضوباً عليه منفيًا في وادي القرى بالحجاز
 « راجع تفصيل الحادث في الدولة الأموية في قرطبة ص ٣٨ » .

لسنا نبحث في كتابنا هذا عن الفتوح الأوربية -- فتوح إسبانية وجنوبي فرنسا -- فاننا اشبعناها درساً في كتاب الدولة الأموية في قرطبة.
 « راجع الفصل الأول من كتاب الدولة الأموية في قرطبة » .

فتحت الدولة الأموية هذه الأصقاع الشاسعة فأخذت في عمرانها ونشرت العدل في ربوعها ، وسنت القوانين المختصة بالخراج والجزية، وجعلت المجتهد نصيباً طيباً في استثمار الارضين، وحرمت الكسول من تملكها كما لا تلعب يد القسار والدمار فيها فتصبح فقراء لا تزدهي بالزروع النضرة ولا تزدهر بالثمار الشمية . واليك أحكام اراضي الخراج في البلاد التي افتتحها العرب :

قال تلميذ أبي حنيفة المشرع الاسلامي الكبير ابو يوسف ما نصه :
 (١) انما ارضٌ أخذت غنوة مثل السواد والشام وغيرهما فان قسمها
 الأمام بين من غلب عليها فهي أرض عشر وأهلها رقيق .
 (٢) وان لم يقسمها الأمام وردّها للمسلمين عامة كما فعل عمر بالمواد

فعلى رقاب اهلها الجزية وعلى الارض الخراج وليسوا برقيق .

(٣) اذا اسلم كافر من اهل العنوة أقرت ارضه في يده يعورها ويؤدي الخراج عنها ولا اختلاف في ذلك .

(٤) اذا عطل أرضه قيل له ازرعها وأد خراجها والافادفعها الى غيرك يزرعها . فلما ارض العشر فانه لا يقال له فيها شيء .

(٥) واذا اصاب الغلات آفة او غرق ، سقط الخراج عن صاحبها وزاد على ذلك مالك والشافعي بقولهما : « اذا كان في البلاد سنة اعجمية قديمة لم يغيرها الاسلام ولم يبطلها فشكها قوم الى الامام لما ينالهم من مضرتها يغيرها وان قدمت لان عليه نفي كل سنة جائزة سنها احد من المسلمين فضلا عما سن اهل الكفر » (البلاذري ص ٤٥٣) .

الفصل السادس

العدل والأصلاح في الدولة الأموية

عبد الملك بن مروان ، قطع دابر الرشوة والتفليس من الموظفين
القوة ، اهتمام بكل صغيرة وكبيرة ، شخصية عبد الملك ، الوليد الاول
الوليد بن يزيد عليه السلام في جميل مصالحة الدولة ، سليمان بن عبد الملك ،
عبيد بن عمير بن عبد العزيز ، ثقاته ، عمر بن الخطاب ، عمر بن عبد الله ،
صريح الراء لا يخاف في النعم لومة لائم ، يتجمع الحرية الفكرية ،
يقوم للتشورى طائفة عليا ، الامتناع بالتهذيب الخلفاء على العرشه ،
اصوليات عمر ، الرخصة بالحيوسه ، لا يجازف بارواح المسلمين ،
استعانده الحطام والولادة ، الخراج الطيب الحمل ، تعيين المشهود لهم
بالعفة والفضل ، الاستئذانه في امطام الاعدام ، الاهتمام بمصالح
الشعب ، اصراع القضاء ، محاربة المسكرات ، منع الناس من شتم على ،
الرفق بالحيوان ، العوامل التي دفعت عمر لمصالح والعدل .

ثبت الامويون عرشهم على الجحاح فاعملوا السيف والنطع وراحوا يفتكون
 باعدائهم فتكا ذريعا . وليست الاعمال الرهيبة التي قام بها مروان بن الحكم وعبد
 الملك بن مروان في العراق والحجاز والشام غنا ببعيدة . فلما استتب لهم
 الاحوال جعلوا يستطون الحق في الجهات المختلفة ، ويحذرون من ارتكاب الاغلاط
 الادارية الفاحشة التي قد تكلفهم نتائجها اضرارا جسيمة ومسئولية عظيمة فكان
 عبد الملك يأمر بالرفق والترث في الاحكام والاهتمام بالمشاورة وطلب النصيحة .
 ذكر لنا المؤرخون انه اوصى اخاه عبد العزيز حين مضى الى مصر اميراً عليها
 فقال له (ابسط بشرك والن كنفك وآثر الرفق في الامور فانه ابلغ بك ،
 وانظر حاجبك فليكن من خير اهلك ، فانه وجهك ولسانك ، ولا يقن
 أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده ، واذا
 خرجت الى مجلسك فابدأ بالسلام يأنسوا بك ، وثبت في قلوبهم محبتك ،
 واذا انتهى اليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فانها تفتح مغاليق الامور ،
 واذا سخطت على أحد فأخر عقوبته ، فانك على العقوبة بعد التوقف عنه
 أقدر منك على ردها بعد أمضائها ، الفخري ص ١١٥ . »

وقطع دابر الرشوة فعزل الموظفين الخائنين الذين لا يعرفون من الوظيفة
 الا ائلاء جيوبهم ، وتأخير مصالح الناس ، وعدم قضائها في أوقاتها . فكان بذلك

شديد اليقظة كثير التعاهد لولائه شديداً في أحكامه عليهم . روى الجاحظ :
 « بلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية فأمر باشخاصه اليه فلما دخل عليه
 قال له : أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال يأمر المؤمنين بلادك عامرة وخراجك
 موفور ، ورعيتك على أفضل حال ، قال أجب فيما سألتك عنه . أقبلت هدية
 منذ وليتك ؟ قال نعم ، قال لئن كنت قبلت ولم تعوض انك للئيم ، ولئن
 انلت مهديك لا من مالك او استكفيته ما لم يكن يستكفاه انك لجائر خائن .
 ولئن كان منذهبك ان تعوض المهدي اليك من مالك وقبلت ما اتهمك به عند
 من استكفاك ، وبسط لسان عائبك ، وأطمع فيك أهل عملك انك لجاهل ، وما
 فيمن أتى أمراً لم يخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع نخينه عن عمله ،
 البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٣٠ . »

ولم يكل الأمور في اعدائه وأهل حربه ومنافسيه الى غيره حتى يباشرها
 بنفسه . وان اهتمامه بكل صغيرة وكبيرة جعلته يركب الخطأ في بعض الاحيان
 لكن ذاك أثار في جمهور الموظفين روح اليقظة والاهتمام بالمسئولية . فسار
 على سياسة الشدة التي اتبعها يزيد الأول بن معاوية من قبله فأمر ابنه الوليد وهو
 على فراش الموت ان لا يتهاون في أمر بيعته وان يلبس جلد النمر لخصومه وان
 يتدرع بالصبر فقال له : « يوليد لأفنيك اذا وضعتني في خفرتي ان تقصر

عينيك كالأمة الورهاء بل ايتز ر وشمر والبس جلد التمر وادع الناس الى البيعة
ثانياً ، فمن كان برأسه كذا فقل بالسيف كذا . الاخبار الطوال ص ٣٢٨ ،

توفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ و (٧٠٥ م) فكانت خلافته ثلاث عشرة
سنة وخمسة اشهر تقريباً ، وقد قضى وواروه التراب خارج باب الجابية في
دمشق . ويحقق انه ولد سنة ٢٦ هـ و (٦٤٦ م) في خلافة عثمان بن عفان ، وشهد
يوم الدار مع أبيه وهو غلام لا يتجاوز العاشرة من عمره . وأمه عائشة بنت معاوية
ابن المغيرة بن ابي العاص بن امية . وعرف . منذ صغره برجاحة عقله وصلابة
رأيه وقوة عزيمته ، فكان يعتقد اعتقاداً تاماً حينما نازع انداده في تطلب الخلافة
انه هو القادر دون سواه على ضبط زمام الدولة وتسيير دفتها نحو الإصلاح
والعمران والسلام . فقال مرة : « ما اعلم مكان احد اقوى على هذا الامر
مني . . . » وان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ولكن لم يخله لا يصلح
ان يكون سائساً . الطبري ٢٧٥ ص ١١٧٧ «

وكان عبد الملك شاباً اديباً ذكياً فاضلاً له المام واسع بعلوم الشريعة
والحديث والفقه واللغة . قال الشعبي : « ماذا كرت أحداً الا وجدت لي الفضل
عليه الا عبد الملك بن مروان فاني ماذا كرتة حديثاً الا زادني فيه وشعراً الا
زادني فيه . الفخري ص ١١٣ » واشتهر بمواقفه الخطائية فقل لعبد الملك

لقد اسرع اليك الشيب ، قل : « شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن .
 الفخري ص ١١٣ » ويروى انه لما اشتد مرضه وقاربته الوفاة قال أسمعوني على
 شرف فأصعدوه الى موضع عال ، فجعل يتنسم الهواء ثم قال : « يادنيا ما طيبك ،
 ان طويلاك لقصير ، وان كشيرك لحقير ، وان صكنا منك لني غرور .
 الفخري ص ١١٤ » . والخلاصة انه كان معروفاً بالصدق مشهوراً بالفضل
 والعلم ، لا يختلف في دينه ولا ينازع في ورعه . « ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٥ »
 خلف عبد الملك ابنه الوليد الاول . وكانت ولاية العهد لعبد العزيز
 بن مروان فأراد عبد الملك خلع اخيه وتولية الوليد لتصبح الخلافة في ولده .
 فراح ينشط الناس على استخلافه فقم له ذلك . وانا ان نبحت لك عما
 اصاب الدولة من الحن من تسمية الخلفاء لمرشحين او ثلاثة للخلافة يتلو
 الواحد منهم الآخر في ولاية العهد . انما نحب ان نلفت نظرك الى هذه المسئلة
 التي لعبت دوراً مهماً في انحلال جسم المملكة الاموية . ولولم يجعل القدر
 فيموت عبد العزيز في أيام أخيه عبد الملك لما تناول الوليد الخلافة بسهولة
 « الطبري ج ١٢ ص ١١٦٧ » .

نهج الوليد على منهج ابيه عبد الملك فحمل سيف النعمة والشدة في يد ،
 وغار العدل والرحمة في اليد الاخرى . وكان عظيم السطوة تهون عليه الدماء

في تنفيذ مصالح الدولة • « التنبيه والاشراف ص ٣١٧ » ولما كان الخلفاء الذين تقدموه قد مهدوا له طرق الامن ، وأمنوا له سبل الطاعة ، التفت الى الفتوح وال عمران وتشيد صرح العدالة على اسس متينة . فافتتح معظم المغرب والاندلس ، واجتازت جيوشه نهر جيحون حتى بلغت ما وراء النهر . واختلط مع افراد شعبه فنع الفقهاء والمجذمين من سؤال الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً ، « الطبري ٢٧٩ ص ١٢٧١ » ، « القفري ص ١١٥ - ١١٦ »

ولم يكن الوليد خطيباً فصيحاً يحكم قواعد اللغة كايه ، بل عرف بانه لحان لا يحسن النحو . روى الطقطقي ان ابا عبد الملك عاتبه وقال له انه لا يلي العرب الا من يحسن كلامهم ، فدخل الوليد بيتاً واخذ معه جماعة من علماء النحر واقام مدة يشتغل فيه ، فخرج أجهل مما كان يوم دخوله ، فلما بلغ ذلك عبد الملك قال قد اعذر . « القفري ص ١١٥ - ١١٦ » ، ويذكرون انه كان مغرمًا بنشر القرآن فيذل الاموال في سبيل ذلك . قال الطبري : « اتاه رجل من بني مخزوم يسأله في دينه فقال نعم ان كنت مستحقاً لذلك ، قال يا امير المؤمنين وكيف لا اكون مستحقاً لذلك مع قرابتي . قال أقرأت القرآن قال لا ، قال ادن مني فدنا منه ، فنزع عمامته بقضيب كان في يده

وقرعه قرعات بالقضيب ، وقال لرجل ضم هذا اليك فلا يفارقك حتى يقرأ القرآن وقام اليه عثمان بن يزيد فقال يا امير المؤمنين ان علي دينا فقال أقرأت القرآن قال نعم فاستقرأه عشر آيات من الانتقال وعشر آيات من براءة ، فقرأ فقال نعم تنضي عنكم ونصل ارحامكم على هذا ، ٢٧٢ ص ١٢٧١ »

وكان كريما جوادا محبوبا من شعبه حتى ليقال « انه كان يمر بالبقل فيقف عليه فيأخذ حزمة البقل فيقول بكم هذه فيقول بفلس ، فيقول زد فيها . الطبري ٢٧٢ ص ١٢٧١ » وامتاز بعقل راجح وصدر رحب فكانت يسمع للناصحين نصيحهم ولا يتأخر عن طلب المشاورة فقال له أسلم بن الاحنف قبل ان يستخلف : (اصلح الله الامير ، اذا طننت ظنا فلا تحققه واذا سألت الرجال فسلهم عما تعلم ، فاذا رأوا سرعة فهمك كما تعلم ظنوا بك ذلك فيما لا تعلم ، ودس من يسأل لك عما لا تعلم . البيان والتبيين ج ١ ص ٢١١) وتوفي في دمشق سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) وهو لا يتجاوز السادسة والاربعين قلنا ان ايام الوليد كانت ايام فتوح وتوسع وعمران . فعقبه اخوه سليمان بن عبد الملك واتم تلك السلسلة من الفتوحات العظيمة في الساعات الثلاث البيزنطية والشرقية والافريقية الاوروبية . وقد شعر الناس انهم في مجبوحة من العيش في عهده فقالوا : (سليمان مفتاح الخير ، ولي فاطلق الاسارى ،

وخلى اهل السجون واحسن ٠٠٠ واستخلف عمر بن عبد العزيز . الطبري
 ٧٢ ص ١٣٣٧) وذكر ابن العبري انه رد المظالم واخرج
 المحبسین ، « ص ١٩٦ ، ٠ »

نشأ سليمان بالبادية عند اخوانه بني عبس فشب فصيح اللسان كثير
 الادب، ولاريب انه كان من اجل شبان بني امية فيصفه المؤرخون بقولهم: (..وكان
 طويلا ايض جميلا قضيضاً جعد الشعر...شديد العجب بشبابه وجماله،
 التنبيه والاشراف ص ٣١٨) . واعتنى بلباسه . وهندامه ، وتألق في ذلك
 كثيراً حتى لقب نفسه (بالملك الفتى) (والملك الشاب)

و يعاب سليمان بأمرين : الاول لغيرته وحسده فقتك بموسى بن نصير فاتح
 المغرب والاندلس ، وقد ذكرنا لك ذلك في فصل الفتوح ، وعذب غيره من
 كبار الرجال اصحاب الخدومات الباهرات لمجرد سوء الظن او لبادرة حسد
 تطرأ عليه . والثاني لكثرة نهمه وشغفه بالنساء . روى الفخري : (..وكان
 نهما فيقال ان الطباخ كان يأتيه بالشواء ، فلا يصبر حتى يبرد فيأخذه بكفه
 قال الاصمعي : كنت مرة افلاوض هارون الرشيد فجرى حديث اصحاب
 النهم ، فقلت كان سليمان بن عبد الملك شديد النهم . وكان اذا اتاه الطباخ
 بشواء تلقاه فاخذه بأكمامه فقال الرشيد ما اعلمك يا اصمعي باخبار الناس .

لقد اعترضت منذ أيام جباب سليمان فوجدت أثر الدهن في أكمامها فظننته طيباً. قال الأصمعي ثم امر لي بحجة منها ، ص ١١٦). وقال الطبري: (ولي سليمان فكان صاحب فكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري، ٢٧٢ ص ١٢٧٣). ويبالغ المؤرخون في رواياتهم عن نهمه غير أنها تظهر لنا ولاشبهة حقيقة ناصعة وهي ان الخليفة التقى او الشاب كان يحب ان يتمتع بجميع الشهوات الجسدية ، وقد اسرف في تمتعه بها اسرافاً زائداً حتى انها قصت عليه وعجلت في وفاته. قال ابن عبدربه: (وكان سبب موت سليمان بن عبد الملك ان نصرانيا اتاه وهو بدابق — بالقرب من حلب — بزنبيل مملوء بيضا وآخر مملوء تينا. قال: قشروا فقشروا فجعل يأكل بيضة وتينة حتى اتى على الزنبيلين. ثم أتوه بقصعة مملوءة مخا بسكر فأكله فأتخم فمض فمات. العقد الفريد ج ٣/ ص ١٦٨) .

لم يتمكن عبد الملك بن مروان والوليد الاول وسليمان من بسط العدالة بسطاً تاماً ترتاح له النفوس وتطمئن له القلوب. وكان ذلك لقسوة الظروف اولاً ولتغلب بعض الصفات الرديئة عليهم ثانياً. فآلمنا الى ما اشتهر به سليمان من الغيرة والحسد والى ما عرف به الوليد من اراقة الدماء في سبيل المصلحة، والى ما تغلب على عبد الملك من طبع السيطرة على كل صغيرة وكبيرة.

وهذا لا ينفي اننا ننكر على هؤلاء الرجال ما تحلوا به من المزاي الشريفة والخصال الحميدة والمواهب العالية . والحق ان العدالة الاموية لم تظهر بمظهرها الجليل الكبير الا في عصر عمر بن عبد العزيز خليفة سليمان بن عبد الملك .

نشأ عمر في المدينة وتأدب بها على اشهر اسما نذتها المتصلين به علوم القرآن والحديث والفقه والشرعة كصالح بن كيسان وعبيد الله بن عبد الله . ودرس العربية وتقرعها فاضاب منها سهماً وافراءً وكان شاباً ولوعاً بتزيين نفسه فتأنق في ملبسه ، وتعلبت عليه الخلاء فزهي واستكبر في بعض الاحايين على الناس . قال ابن الجوزي باسناده : (حدثني علي بن جذيمة قال رأيت في المدينة وهو أحسن الناس لباساً ، ومن اطيب الناس ريحاً ، ومن أخيل الناس في مشيته . ص ٣٢ ، سيرة عمر بن عبد العزيز) . ثم لم تطل به الحال على هذا المنوال ففراه قد خلع عنه ثوب الصلف وارتدى رداء التواضع لما اسندت اليه المناصب الادارية . وقد ولي الحجاز وهو ابن خمس وعشرين سنة وكان ذلك في ايام الوليد الاول . فبرهن على اقتداره في تدبير الامور وتثبيت دعائم الحق والانتصار للضعيف . وأوسع المجال لعقلاء المدينة وفقهائها لان ينبهوه على اغلاطه وان ينبروا سبيله في احقاق الحق وازهاق الباطل ، فدعا مرة عشرة نفر من علمائها وقال لهم : (اني دعوتكم لامر تؤجرون فيه وتكونون فيه اعواناً على الحق .

ان رأيت احدى يتعدى ، ويلفكم عن عامل لي ظلامة ، فأخرج بالله على احد
بلغه ذلك الا أبلغني . سيرة عمر ص ٣٢)

ولم يقبل عمر بن عبد العزيز منصب الولاية على الحجاز الا بعد ان أقر
له الوليد الساقة التامة ليقص من ارباب العبدان واهل الظلم وان اجبر ان
لا يرفع للخرينة درهما واحدا . قال ابن الجوزي : (استعمل الوليد بن عبد الملك
عمر بن عبد العزيز على الحجاز المدينة ومكة والطائف فأبطأ عن الخروج فقال
الوليد لجاحجه وبلك ما بيل عمر لا يخرج الى عمله قال زعم ان له اليك ثلاث
حوارج قال فمجاهه علي فجاء به الوليد فقال له عمر انك استعملت من كان قبله
فانا احب ان لا تأخذني بعمل اهل العبدان والظلم والمجور فقال له الوليد :
اعمل بالحق وان لم ترفع هنا الا درهما واحدا . سيرة عمر ص ٣٣)

انصف عمر بشجاعته الادبية ومراحته النادرة المثالي فكانت ينقد
اعمال الخلفاء الذين سلفوه ويسلقهم بقوارص الكلام ولا يخاف فيه التهديد
على من يشنون عن احكام القرآن والسنة لومة لائم . فتألم منه بنو امية حتى
ليقال انهم هم الذين دبروا الدسائس للخلاص منه . وهناك مشالا حيا على
ما قدمناه : (دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك وعنده ابنه
أبوب وهو يومئذ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده فجاء انسان يطلب مديانا

من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان ما أتخل النساء يرثن في العقار شيئاً فقال
عمر بن عبد العزيز سبحان الله وابن كتاب الله فقال يا غلام اذهب فأتني
بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك . فقال عمر اسكنك
ارسلت الى المصحف . قال ايوب . والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا
عند امير المؤمنين ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه . فقال له عمر اذا افضي الامر
اليك والى ملك مما يدخل على اولئك اشد مما خشيت ان يصيبهم من هذا .
فقال سليمان لأيوب مه ، لا يبي حقم تقول هذا . فقال عروا الله لئن جهل
علينا يا امير المؤمنين ما حملنا عنه . سيرة عمر ص ٣٨)

وكان من الذين يقدسون الحرية الفكرية ويرون وجوب تشجيعها
والمحافظة عليها . فجادل الخوارج من الحرورية وراسلهم وطلب اليهم ان
يحجوه ويقنعوه بالبراهين ان كانوا في زعمهم ومبادئهم صادقين . روى
الطبري : (كتب عمر الى بسطام بن يشكر وهو شاذب زعيم الحرورية
في العراق يسأله عن سبب محرجة ، فكان في كتاب عمر اليه : بلغني
انك خرجت غضبا لله ولانيه ولست بأولى بذلك مني فهم انظرك فان
كان الحق بأيدينا دخت فيما دخل فيه الناس ، وان كل في يدك نظرنا
في امرنا . حر ١٣٤٨ - ١٣٤٩ (١٣٤٧) . فجاءه وقد منهم الى الشام

فامنهم وطيب قلوبهم وجلسوا بها ووجهاً لوجه يتجادل معهم . ومما يتجهج
له الخاطران المؤرخين حفظوا لنا احاديثهم معه وهي كما يأتي :
رسولا الحرورية - أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك يزيد بن عبد الملك)

عمر - : صيره غيري :

رسولا الحرورية - أفرايت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلتك الى غير مأمون

عليه ، أترك كنت اديت الامانة الى من ايتمنك ؟

عمر - : انظراني ثلاثا

وعلق الطبري على هذا الحديث بقوله : (خاف بنو مروان ان يخرج ما
عندهم وفي ايديهم من الاموال وان يخلع يزيداً فدرسوا اليه من سقاه سماً ،

١٣٤٩ - ١٣٤٨ هـ)

تسم عمر بن عبد العزيز عرش الخلافة بعد وفاة سليمان بن عبد الملك

فجمع الناس في المسجد الجامع بدمشق وصرح لهم انه أسند اليه الامر دون

ان يستشيروه أو يستشيروا الشعب فيه . ولذا فهم احرار في خلع بيعته

وانتخاب سواه ، فصاح الناس صيحة واحدة : (قد اخترناك يا امير المؤمنين

ورضينا بك) . فلما هذأت الاصوات ولم يعترض احد على ولايته الخلافة خطب

خطبته العرش . قال من جملتها : (اوصيكم بتقوى الله واصلحوا
سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم . واكثرُوا ذكر الموت وأحسنوا
الاستعداد قبل ان ينزل بكم فانه هادم اللذات . . واني والله لا أعطي
احداً باطلاً ولا امنع احداً حقاً .

يا ايها الناس ، من اطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصي الله فلا طاعة
له اطيعوني ، ما اطعت الله ، فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . سيرة عمر
ص ٥٣ - ٥٤)

ثم ارادت الحكومة الاحتفال بتنصيبه رسمياً كما جرت العادة فهيأت
موكب الخلافة وهو يتألف من كبار رجال الدولة وعظمائها ، وقد يركبون وراء
الخليفة على البهرازين والخيول والبغال ، ولكل دابة سائس ، فلما رأى تلك الابهة
قال ما هذا ؟ قالوا مركب الخلافة . قال دابتي أوفق لي وركب دابته
وصرف تلك الدواب . ثم اقبل سائراً فقبل منزل الخلافة ، فقال فيه عيال
ابي ايوب ، وفي فسطاطي كفاية حتى يتصلوا ، فاقام في منزله حتى فرغوه . الطبري
٩٢٧ ص ١٣٤٤ - ١٣٤٥) . نحن لانرى دليلاً اكبر من الذي
قدمناه على ديمقراطية عمر وشدة تواضعه واستخفافه بمظاهر الحياة الفارغة .
ويذكر ان جاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالجربة فقال : (تنح عني

مالي ولك، انما افارجل من المسلمين . سيرة عمر ص ٥٣) . ولم يكذب يستلم
 زمام الاحكام حتى أمر بستور دار الخلافة فهتكت ، والثبات التي كانت تبسط
 للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وادخل ائمانها في بيت مال المسلمين (سيرة
 عمر ص ٥٤) . وسرح عمر حرس الخلافة وكانوا حوالي ستائة وقال لهم :
 ان بي عنكم لغني ، كفي بالقدر حاجزا ، ولاجل حارساء ولا اطرحكم
 من مراتبكم ، من اقام منكم فله عشرة دنانير ، ومن شاء فليلحق بأهله .
 سيرة عمر ص ٩٨ . وكان عمر يقعد للناس على الارض فتبيل له لوأمرت يبسط
 يبسط لك فتجلس ويجلس الناس عليه كان ذلك اهيأ لك في قلوب
 الناس فتمثل :

قضى ما قضى فيما مضى ثم لا ترى له صبوة احدى الليالي الغواير
 ولولا التقى من خشية الموت والردى لعاضيت في حب الصبي كل زاجر
 (الاخبار الطوال ص ٣٣٣) .

قام عمر باصلاحات جمة عقب توليه الخلافة فأصدر أمراً الى قادة جيوشه
 في جميع الساحات والتخوم يطلب اليهم به ان تكون ارحمة من شأئهم والشفقة
 قبله انظارهم . كتب عمر الى الجراح احد قادته : (انه بلغني ان رسول الله
 - ص - كان اذا بعث جيشاً أو سرية قال اغزوا بسم الله وفي سبيل الله

تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا . فاذا بعثت جيشا او سرية فرمهم بذلك . العقد القويديج (١ ص ١٨)
 وحرص حرصا زائدا على دماء المسلمين فأبى أن يجازف بأرواحهم
 أو أن يحشمهم من المشاق مالا طاقة لهم به . فعهد الى بعض رجال الحرب
 بهذه النصائح الثمينة : (ارفق بمن معك في مسيرهم ، ولا تحشمهم مسيرا
 تتعبهم ولا تنصر بهم عن منزل يرفق بهم فانكم تسبرون الى العدو جام
 الأتقس والكراع ، فلا ترفقوا بانفسكم وكراعكم في مسيركم يكن لعدوكم فضل
 عليكم في القوة . اقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة ليكون لهم راحة
 يجمون بها انفسهم وكراعهم ، ولتكن عيونك من العرب ومن تطمئن الى
 نصحه من أهل الارض . فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في
 بعضه ، وإن الفاش عينٌ عليك وليس بهين لك . سيرة عمر ص ٢٠٥) .

والغريب ان عمر بلغت به العدالة الى حد انه أمر أن لا يكسى البيت
 الحرام وان تبذل الاموال المخصصة للكسوة في سبيل الفقراء والمحتاجين
 . كتبت الحجة الى عمر ان يأمر للبيت بكسوة كما كان يفعل من كان قبله
 فكتب اليهم : - اني رأيت ان اجعل ذلك في اكباد جامعة فانه اولى
 بذلك من البيت . سيرة عمر ص ٧٦ .

وسعى لان يمتحن نزاهة الرجال الذين اراد توليتهم حكماً وولاية على البلاد
الاسلامية ليطمئن ضميره وليتخلص من جور الطغاة وعسفهم فذكر ابن
الجوزي انه لما : (ولي عمر الخلافة وفد عليه بلال بن ابي بردة فنهأه
فجزاه عمر خيراً ، ولزم بلال المسجد يصلي ويقرأ ليله ونهاره ، فهتم عمر ان يوليه
العراق . ثم قال هذا رجل له فضل ، ففس اليه ثنة له فقال له ان عملت لك
في ولاية في العراق ما تعطيني . فضمن له مالا جليلا فأخبر بذلك عمر فنفاه
واخرجه . سيرة عمر ص ٩٣) وأبعد الولاية القساة السفاكين عن استلام
زمام البلاد لئلا يفسدوا في الارض فكتب عمر الى الجراح بن عبدالله عامله
على خراسان : (بلغني انك استعملت عمارة ، ولا حاجة لي بعمارة ولا بضرب
عمارة ولا برجل قد صبغ يده في دماء المسلمين فاعزله . سيرة عمر ص ٨٦ .
وكان عمر لا يفتأ يذكر عماله بواجباتهم ، وما عليهم تجاه الله والامة
والبلاد من المسؤولية الكبرى ، فطلب اليهم ان يجمعوا الخراج الطيب الحلال .
فلما كتب ميمون بن مهران احد الولاة الى عمر بن عبد العزيز ان يستعفيه
من الخراج أجابه : (يا ابن مهران ، اني لم اكلفك بغيا في حكمك ولا في
جبايتك ، فاجب ما جبيت من الحلال ، ولا تجمع للمسلمين الا الحلال الطيب .
سيرة عمر ص ٩٥) ثم امرهم ان يلوا ارباب الخبرة واهل الفضل في المناصب .

وان يرفعوا السنن الخبيثة التي انهكت العامل والقلاج . وان لا يعجلوا
 في احكام الاعدام والصلب قبل استئذانه ، وان لا يستوفوا الضرائب التي
 لا يخولهم القانون حق استيفائها ، وان يسهلوا على التجار والمسافرين مصالحهم
 فيمنون لهم الخانات ويضيفونهم^(١) . واليك وثائق تثبت لك كل هذه الحقائق
 التي ذكرناها .

كتب عمر بن عبدالعزيز الى عبدالرحمن بن نعيم والي خراسان : (اما بعد
 فكن عبداً ناصحاً لله في عبادته ، ولا يأخذك في الله لومة لائم ، فان الله اولي
 بك من الناس وحقه عليك اعظم فلا تولين شيئاً من امراء المسلمين الا المعروف
 بالنصيحة لهم او التوفير عليهم واداء الامانة فيما استرعى واياك ان يكون ملك
 ميلا الى غير الحق ، فان الله لا يخفي عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله
 مذهباً فانه لا ملجأ من الله الا اليه . الطبري^{٧٩} ص ١٣٤٧)
 وكتب الى زرعة الكلوي وكان قد ولاء خراج خراسان : (ان للسلطان

(١) : وكتب عمر الى سليمان بن ابي السري ان اعمل خانات في
 بلادك فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت
 به علة فأقروه يومين وليلتين ، فمن كان منقطعاً فاقروه . بما يصل به الى بلده .

الطبري^{٧٩} ص ١٣٦٤

أركاناً لا يثبت إلا بها فالوالي ركنٌ ، والقاضي ركنٌ ، وصاحب بيت المال ركنٌ ،
والركن الرابع أنا ، وليس من نفور المسلمين نفراً أهم الي ولا أعظم عندي
من نفور خراسان ، فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم فإن يك كفافاً
لأعطياتهم فسيبيل ذلك والا فاكسب الي حتى أحمل اليك الأموال فتوفرو
لهم اعطيتهم ، الطبري ٧٢ ص ١٣٦٦)

وكتب رسالة إلى أمير السكينة عبد الحميد . . . وهاهنا نصها : (من عبد الله
عمر أمير المؤمنين إلى عبد الحميد ، سلام عليك ، أما بعد ، فإن أهل السكينة
قد أصابهم بلاءٌ وشدة وجور في أحكام الله ، وسنة خيشة سنها عليهم عمال
الشتم ، وإن قوائم الدين القتل والأخذان فلا يكونن شي أهم اليك من نفسك ،
فإنه لا قليل من الأثم ، ولا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، انظرو
الخراب فخذ منه ما طاق وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة
الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن في الخساراج أجور
الضرابين ولا هدية التيروز والمهرجاني ، ولا تمن الصحف ولا أجور القنوح
ولا أجور السيوت ولا دراهم النكاح ، ولا خواجه على من أسلم من أهل الأرض
فاتبع في ذلك أمري ، فاني وليتك من ذلك ما ولاني الله ، ولا تعجل دوني
بقطع ولا صاب حتى تراجعني فيه . . . الطبري ٧٢ ص ١٣٦٦ - ١٣٦٧)

وقال عمر في النصاص لولائه : (ادزوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة
فان الوالي اذا اخطأ في العفو خير ممن أن يتعدى في العقوبة . سيرة عمر ص ١٠٣)
ونصب نفسه للعدل فضرب على ايدي المعتصبين بيد حديدية وجعل يضيق
عليهم الخناق ، فبدأ ببني أمية أنفسهم وأخذ ما كان تحت سيطرتهم من الغصب
فردّها على أهلها دون ابطأ ولا تأخير ، فمدّه الناس وشكروا له سعيه اذا ستر
بيوتات كثيرة كان الظلم قد فضّحها ، وعائلات عديدة كان الفقر قد أخذ ينال
من شرفها ، واطفال يتامى كان الجهل قد بدأ يهيئ لهم مستقبلاً مظالمًا . وتماخى
في تحري المعتصبين والظالمين والتفتيش عن سيئاتهم حتى خاف بعض خاصته
عليه من الاغتيال والاعتداء . (فقالوا يا أمير المؤمنين الاتخاف غوائل قومك
فقال أيوم سوء يوم القيامة تخوفوني فكل خوف أتقيه قبل يوم القيامة
لا وقتي ، الاخبار الطوال ، ص ٣٣٤) . وخاطب مرة افراد الاسرة المالكة
يؤنبهم على تمتعهم بالاموال الحرام والاملاك المغتصبة بلهجة شديدة فقال :
(يا بني مروان ، انكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالاً . اني لأحسب شطر
اموال هذه الامة أو ثلثيها في ايديكم ، سيرة عمر ص ١١٥) .

وأصدر عمر قانوناً خول به الموظفين البارعين الأوفياء حق الزيادة في
رواتبهم ان قاموا بما يفرضه عليهم الواجب خير قيام . وكان ذلك ليتطمع دابر

الرشوة ويجعل له أمور مجالا للتقدم . فيعمل بنشاط وهمة ويسعى لاكتساب رضى رؤسائه بالاحسان الى ارباب المصالح وقضاء حاجاتهم بسرعة ودقة . فانتقده أحد أخصائه على ما يتقاضاه عماله من المعاشات الباهظة بقوله : (ترزق الرجل من عمالك مائة دينار في الشهر ومائتي دينار في الشهر واكثر من ذلك) فاجابه : (اراه لهم يسيراً ان عملوا بكتاب الله وسنة نبيه . وأحب أن افرغ قلوبهم من الهم بمعايشهم وأهليهم ، سيرة عمر ص ١٦٤) ولا ريب انه متى كان للأمور مزاج البال من جهة العيال ، فلا يفكر بخيانة الحكومة بل يجرب ان يحافظ على مركزه جهد الطاقة

وأصلح القضاء بصورة خاصة فاشترط على القاضي ان يكون عالماً بما نصت عليه السنة ، حليماً ، ذا أمانة ، غنياً ، مشاوراً ، سيرة عمر ص ٢٣٨) ثم وجه عمر وجهه الى تقويم الاخلاق ومحاربة العادات الفاسدة المبينة على التعصب والريذيلة فذهى شعبه عن تعاطي المسكرات وأبان لهم ما يصيبهم من الآفات والنكبات بواسطتها ، وما يتكبذونه من الآلام والعذاب بما تحمله اليهم من المضار والفضائح . فهي هتاكاة للأجسام مضنكة للعتول مضیعة للآوال . ككتب عمر الى عدي بن أرطاة وأهل البصرة : (اما بعد فانه قد كان في الناس من هذا الشراب امرٌ ساءت فيه رعيتهم ، وغشوا فيه أموراً

انهم كموها عند ذهاب عقولهم وسفه أحلامهم بلغت بهم الدم الحرام والقرح الحرام والمال الحرام . وقد أصبح جل من يصيب من ذلك الشراب يقول شربنا شراباً لا بأس به . ولعمري ارسـ ما حمل على هذه الامور وضارع الحرام لبأس شديد . وقد جعل الله عنه مندوحة وسعة من أشربة كثيرة طيبة ليس في الاتس منها جأحة : الماء العذب القرات واللبن والعسل والسويق .. وقد بلغنا ان رسول الله (ص) نهى عن نبيذ الجر والدباء والظروف المزقة . وكان يقال كل مسكر حرام فاستغنوا بما أحل الله عن ما حرم . فأننا من وجدناه يشرب شيئاً من هذه بعدما تندمنا اليه اوجعناه عقوبة شديدة ، ومن استخفى فله الله اشد عقوبة واشد تنكيلاً . وقد اردت بكتابي هذا اتخاذ الحجة عليكم اليوم وفيما بعد اليوم ، أسأل الله ان يزيد المهتدي منا ومنكم هدى ، وان يراجع بالمسي منا ومنكم التوبة في سر وعافية والسلام . سيرة عمر ص ١٠١ — ١٠٢)

ومنع الناس من شتم علي بن ابي طالب . وكان بنو أمية يسبونهُ علناً على المنابر منذ عهد معاوية الاول . ويرجع ذلك للخلاف الذي قام بين الامويين والعلويين . وجعل مكان السب في خطبة الجمعة : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . فمدحه الشعراء على ذلك . قال كثير عزة :

وَأَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفْ بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مُجْرِمٍ
وَقُلْتَ فَصَدَقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالَّذِي فَعَلْتَ فَأُضْحَى رَاضِيًّا كُلُّ مُسْلِمٍ
وَقَدْ بَلَسْتَ لَبِيسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا وَابْدَتْ لَكَ الدُّنْيَا بَحْدَ وَمَعْصَمٍ
وَتَوَضَّعَ أَحْيَانًا بَعَيْنٍ مَرِيضَةٍ وَتَبَسَّعَ عَنْ مِثْلِ الْجَمَانِ الْمُنْظَمِ
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مُشْمِئًا كَأَنَّمَا سَقَمْتَكَ مَدْقُوقًا مِنْ سَمَامٍ وَعَلَقَمٍ
وَقَدْ كُنْتَ مِنْهَا فِي جِبَالٍ أَرُومَهَا وَمِنْ بَحْرَهَا فِي زَاخِرِ السَّيْلِ مَفْعَمٍ

وقال الشريف الرضي يرثيه ويذكر منعه شتم علي :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فتي من أمية لبكيتك
أنت اتقذمتا من السب والشتم فلو أمكن الجزاء جزيتك
غير أني أقول أنك قد طببت وإن لم يطب ولم يترك بيتك
دبر سمعان لا عدتكَ الغوادى خير ميت من آل مروان ميتك

«الفخري ص ١١٦ - ١١٩»

وكن عمر يرفق بالحيوان ولا يأذن البتة في التثميل عليه بالاحمال، وناشد
مأموزيه وخواصه وشعبه أن يهتموا بالعجاوات وإن يرحوها ما استطاعوا إلى
ذلك سبيلا، ولم يفض النظر عن أولئك القساة الذين يسرفون في ضربها
وتعذيبها، قال ابن الجوزي : «كن لعمر بن العزيز غلام على بغل له يأتيه بدرهم

كل يوم ، فجاءه بدرهم ونصف . فقال ما بذا لك . قال تققت السوق ، قال
لا ، ولكنك أتعبت البغل . أجابه ثلاثة أيام . سيرة عمر ص ٧٩ »

أما وقد عددنا لك ما قلتم به عمر من الإصلاحات الجمة فلنذكر العوامل
التي دفعته للعمل الصالح واتباع سنن الخير والعدل والاحسان . أما التعامل
الأول فهو تقريبه للعلماء والفقهاء أصحاب الورع والتقوى ، أهل النصيح والغيرة
على العرب والإسلام أمثال محمد بن كعب القرظي ، وميمون بن مهران والحسن
البصري . وكان دائماً يكتب رجال الفضل ويستشيرهم ويطلب معرفة آرائهم
في المسائل الحقوقية والتشريعية والسياسية . يرسل عمرو إلى محمد بن كعب
القرظي يسأله أن يصف له العدل فأجابه : « . . . كن الصفيح المسلمين أياً
ولسكبرهم أبناء ، وللمثل منهم أخاً ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر
أجسامهم ، ولا تضرب لفضلك سوطاً واحداً فتعبدى فتكون عند الله عن
وجل من العاديين . سيرة عمر ص ١١ »

وقال القرظي ينصح عمر أيضاً : (لا تصعب من الأصحاب من خطرلك
عنده على قدر قضاء حاجته ، فإذا انقطعت حاجته انقطعت أسباب مودته .
أصح من الأصحاب ذا العلي في الخير والناة في الحق يعينك على نفسك
ويكفيك مؤنته ، سيرة عمر ص ١١)

وقال عمر لميمون بن مهران كيف لي باعوان على هذا الامر أثق بهم
وآمنهم . قال : (ياأمير المؤمنين لاتشغل قلبك بهذا ، فانك سوق وانما يحمل
الى كل سوق ماينفق فيها ، فاذا عرف ان النافق عندك الصحيح لم يأتوك الا
بالصحيح ، سيرة عمر ص ٧١)

ووعظ الحسن البصري عمر فقال له : (اما بعد اعلم ياأمير المؤمنين ان
الدنيا دار ظعن وليست بدار اقامة ... ولها في كل حين صرعة .. هي تهين
من اكرمها وتذل من اعزها ... ولها في كل حين قتلى فهي كالسم يأكله
من لايعرفه وفيه حتفه ... فكان ياأمير المؤمنين كالداوي جرحه بصير على
شدة الدواء مخافة طول البلاء ، يحتمي قليلا مخافة مايكره طويلا . فان اهل
الفضائل كان منطقتهم فيها بالصواب ومشيمهم بالتواضع ، ومطعمهم الطيب من
الرزق ، مغمضين أبصارهم عن المحارم ، فخوفهم في البر كخوفهم في البحر ،
دعائهم في السراء كدعائهم في الضراء) ... واعلم ياأمير المؤمنين ان التفكير
يدعو الى الخير والعمل به ، وان الندم على الشر يدعو الى تركه . وليس
مايعني وان كان كثيراً باهل أن يؤثر على مايقبى وان كان طلبه عزيزاً ، واحتمال
المؤونة المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب
مؤونة بقية وندامة طويلة ... وانظروا يا امير المؤمنين الدنيا نظروا الزاهد المفارق

ولا تنظر نظر المبتي العاشق . . . سيرة عمر ص ١٢١ - ١٢٣ » .
 وقال له أيضاً : « يا امير المؤمنين ان استقمت استقاموا وان ملت مالوا ،
 يا امير المؤمنين لو انك عمر نوح وسلطان سليمان ويقين ابراهيم وحكمة لقمان
 ما كان لك بدئ من ان تقتحم العقبة ، ومن وراء العقبة الجنة والنار ، ومن
 أخطأته هذه دخل هذه . سيرة عمر ص ١٢٥ » .

واما العامل الثاني فيرجع الى فلسفة عمر في الحياة ، تلك الفلسفة التي
 تقول بالزهد وتخاف حساب الله واليوم الآخر مخافة عظي . . . وتسعى
 لاجتناب الشر واتباع الخير والاهتمام بالمصالح العامة قبل الاهتمام بالمصالح الخاصة .
 وكانت فلسفة عمر توجي اليه بالقناعة والتضحية والتعبد والنسك واحتقار الدنيا
 والنظر اليها نظراً راحل عنها . فهو يخاف الساعة الاخيرة ويهرب عذاب الله وكل
 شي لديه في سبيل مرضاة الله سهل حلوا للذائق . وهاك بعض فقرات من خطبة ترينا
 مذهبه في الحياة : (ايها الناس ، انكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى ، وان لكم
 معاداً ، ينزل الله فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، وقد خاب وخسر من
 خرج من رحمة الله التي وسعت كل شي ، وحرم الجنة التي عرضها السموات
 والارض . الا واعلموا انما الامان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافداً بياق ،
 وقليلاً بكثير ، وخروفاً بامان . وسيخلقها بعدكم الباقون ، كذلك حتى ترد الى

خير الوارثين، وفي كل يوم تشيعون غادياً ورأحاً الى الله قد قضى نحبهُ، وانتضى
أجله ، فتغيبونه في صدع من الارض . ثم تدعونه غير موسد ولا ممد ، قد
فارق الاحبة ، وخلع الاسباب فسكن التراب ، وواجه الحساب ، فهو مرتين
بعمله . فقير الى ما قدم ، غني عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت، واتقضاء
مراقبته، وإيم الله اني لا قول لسكم هذه المقالة وما أعلم عند احد منكم من الذنوب
اكثر مما عندي فاستغفر الله واتوب اليه ، وما منكم من احد تبلغنا عنه حاجة
الا احببت ان اسد من حاجته ما قدرت عليه، وما منكم من احد يسعه ما عندنا
الا وددت انه ساراني ولحيتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . وإيم الله ان لو
اردت غير هذا من الغضارة والعيش لسكان اللسان مني به ذلولا علماً بأسبابه،
ولكنه مضى من الله كتابٌ ناطقٌ وسنةٌ عادلةٌ يدلُّ فيها على طاعته وينتهي
عن معصيته ، الطبري ٢٧ ص ١٣٦٨ - ١٣٦٩)

ومن خطبه : (من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ونظر له في صلاح
دينه فقد أحسن صلته وأدى واجب حقه ، فاتقوا الله فانها نصيحة لسكم في
دينكم فاقبلوها ، وموعظة منجية في العواقب فالزموها ، الرزق مقسوم فلن
يفذر المؤمن ، ما قسم له ، فأجملوا في الطلب فان في القنوع سعة وبلغة وكفافاً ،
ان أجل الدنيا في اعناقكم وجهم امامكم وماترون ذهاب ، وما مضى فلكان

لم يكن ، وكل أموات عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وغو يسوق
وبعد فراغه . وقد ذاق الموت والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعايتم
تجليل اخراجه . وقسمة ترائه ووجهه مفقود ، وذكره منسي ، وبابه مهجور ،
كان لم يخاط اخوان الحفاظ ولم يعمر الديار ، فاتقوا هول يوم لا تحتر فيه مثقال
ذرة في الموازين ، الطبري ٧٩٢ ص ١٠٧٠)

وله ايضاً : (من عمل على غير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح ، ومن
لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه والرضا قليل ، ومعمل المؤمن الصبر ، وما
أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه فأعاضه مما انتزع منه الصبر الاكل
ما اعاضه خيراً مما انتزع منه . انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ،
الطبري ٧٩٢ ص ١٣٧١)

وغلبت على عمر خصال طيبة فكان صنوحاً حليماً كريماً حتى ليقال انه
عرض له رجل بيده طومار (فظن القوم انه يريد امير المؤمنين فخاف ان
يجس دونه . فرماه — الرجل — بالطومار والتفت امير المؤمنين فأصابه في
وجهه ، فشجه فنظرت الى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس ، فقرأ الكتاب
وامر له بحاجته وخلي سبيله . سيرة عمر ص ١٧٧)

والطالما أكرم ضيوفه وجلساءه وعاملهم معاملة الأخ للأخ والصديق

للصديق . روى ابن الجوزي انه (سمر ضيف عند عمر فاعتل السراج فذهب
الضيف ليصلحه فامره عمر بالجلوس ثم قام فاصلحه ثم ناد فجلس فقال — قت
وانا عمر بن عبد العزيز وجلست وانا عمر بن عبد العزيز ولؤم بالرجل ان
يستخدم ضيفه — سيرة عمر ص ١٧٣)

ولما رأى الناس كرم خلقه وشدة غيخته على مصالحهم ، واهتمامه بتثبيت
دعائم العدل فى مختلف الاقطار راحوا يطمثون للحكم الاموي فدخل الاعاجم
زرافات ووحداً فى الاسلام حتى قل خراج الدولة . ورمى الثوار والخواارج
والعصاة فى البلاد سلاحهم وقالوا لا يجوز قتال الامام العادل .

توفى عمر بدير سمعان من أعمال حمص مسموماً كما اجمع المؤرخون سنة
١٠١ هـ (٧١٩ م) . ويقال ان بني امية هم الذين دبوا له هذه المسكيدة لانه
ضيق عليهم ووضع يده على ما اغتصبوه من الاموال والاملاك . فحزنت الامة
عليه ورثاه شعراؤها وادباؤها كالفردق وغيره . قال الفرزدق :

كم من شريعة حق قد شرعت لهم كانت أميت واخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف اللاهفين معي على العُدول التي تغتالها الحفر
لم يبك عمر المسلمون فحسب ، بل بكاه المسيحيون من رعيته واعدائه . قال
احد الانباط : (ابكي على نور كان فى الارض فطفي) ، وقال احد كبار

البيزنطيين : (اني است اعجب من الراهب ان اغلق بابه ورفض الدنيا وترهب وتعبد ولكن اعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب. سيرة عمر ص ٢٨٩)

نهج بعض الخلفاء من امويين وعباسيين منهج عمر لانه اصبح المثل الاعلى في العدل عندهم. وقد اشتهر من بني امية بعده هشام بن عبد الملك، فراقب امور الدولة مراقبة شديدة ، ووضع العيون والارصاد في سائر الامصار فاحصى اعمال ولايته وحفظ اقوالهم واخبارهم . قال ابن قتيبة مبالغاً : (فلا خبر يكون ولا قصة تحدث في مشرق الارض ولا غربها الا وهو يتحدث به في الشام وينظر فيه هشام وقد أقصر نفسه على هذه الحال ، وحببت اليه هذه الافعال فكانت ايامه عند الناس احمد ايام ٠ ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢٠٦)

وكان هشام رجلاً عقلاً مفكراً لا يبيت في امر قبل فحصه واختباره ومعرفة ما يرمي اليه من النتائج . وقد وصف عقلاً بن شبه هشاماً بقوله : (دخلت على هشام فدخلت على رجل محشو عقلاً ، الطبري ص ١٧٣١) . وقال الطبري : (لم يكن احد من بني مروان اشد حصرأ في امر احبائه ودواوينه ولا اشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام ، S ٢٧٣ ص ١٧١٣) . ويمتاز بدقة نظره وحببه المفرط لجمع الاموال والاحتفاظ بها حتى انه نعت بالبخل .

تلك هي اصلاحات بني امية وكلها ترمى الى العدل واعلاء كلمة الحق

كما رأينا . ا . هـ

الفصل السابع

العمران الاموي

اسباب العمارة ، جغرافية سورية ، جغرافية الدولة الاموية ، دمشق ،
الضاحية ، جامع بني امية ، اسباب تشييد مسجد بني امية ، قصر الخضر ،
الربار دمشق ، رصافة الشام ، الرملة ، واسط عمان ، جامع بيت
المقرسي ، المسجد الحرام ، مسجد المدينة ، الامويون والتمثيل .

اخفت عبد الملك بن مروان نيران الحروب الأهلية فقضى الشطر الأكبر من حياته وهو يطارد الرعاء ويلحق ارباب العصيان ، فهدد بذلك السبل للتوغل والفتوح في الساحات المختلفة ، والاهتمام في البناء والعمران ، فأُسست المدن الوسيعة وشيدت المساجد في الشام والحجاز والعراق ، وزينت العاصمة دمشق بأنواع الزينة فخمرت فيها الترع والاقنية لري المزراع والبساتين . وكان الوليد خلقه شديد الكفاف بالعمارات والابنية واتخاذ المصانع والضياع . فزاد ذلك في رغبة الشعوب الاسلامية علي اقتفاء أثره واتباع خطاه . ولا ريب ان الاموال الكثيرة التي تدفقت علي خزانة الدولة من مختلف الامصار هيأت اسباب العمران . وكان السلام منتشراً فعمت الرفاهية وسادت الطمأنينة فالتفت الناس الي مجارة ولائهم وحكامهم في استحداث الابنية التاريخية التي لا تزال أثراً شاهداً علي علو كعب الامويين في فن العمارة .

قسم العرب القاطنون سورية الي خمسة اجناد وهي (١) جند فلسطين (٢) وجند الاردن (٣) وجند حمص (٤) وجند قسرين (٥) وجند دمشق . اما جند فلسطين فاشهر مدنه بيت المقدس وغزه وعسقلان . واما جند الاردن فكانت مدينته طبرية . وعرف به الغور واليرموك وبيسان . واما جند حمص فكانت عاصمته حمص . واما جند قسرين فكانت عاصمته

مدينة قنسرين في ابتداء الاسلام ثم قامت حلب مقامها في عصر الدولة الحمدانية وذلك حينما غلبت الروم - البيزنطيون - عليها سنة ٣٥١ هـ و (٩٦٢م) وتفرق اهلها في البلاد فطائفة عبرت الفرات وطائفة نقلها سيف الدولة بن حمدان الى حلب (ياقوت معجم البلدان ج ٤ - ص ١٨٦) . واما جند دمشق فكان يشتمل على النوبة وقراها وبساتينها .

ولما امتدت الفتوح اطلق العرب على البصرة والكوفة اسم المصريين او العراقيين . وجعلوا مصر مقاطعة بذاتها . وقد ذكر الجغرافيون ان اشهر مدنها كات القسطاط وعين الشمس والقرما والعريش وبوصير والاسكندرية وايلة . وكانت الولايات العجمية كالاهاواز وتستر وجور واصطخر وحلوان وتلقب بفارس . اما خراسان فكانت تشمل الري ومرو وهراة وبلخ وخوارزم وجرجان وكابل وسمرقند وفرغانة ودينور وطبرستان واصبهان وغيرها . وقد غير العباسيون هذه التعاليم الجغرافية . ونظموها تنظيما اقرب الى السكالم والدقة . (العقد الفريد ج ٤ ص ٢٦٦ - ٢٦٨ والقلة شندي ج ٣ - ٢٧٨)

ذكرنا لك هذه الاقسام الجغرافية لتتعرف الى المملكة الاموية . وكل قصدنا من ايرادها ان نظهر ان الدولة الاموية اهتمت اهتماماً كلياً في عمارة سوريا و بذلت الاموال الطائلة في تشييد مدنها وتزيين اسواقها ومرافقها

بالنسبة الى غيرها من المقاطعات الاسلامية . وكانت الخزينة كريمة في صرف اموال الجباية والخراج المجلوبة من الولايات الفارسية والتركتانية والمصرية وغيرها في سبيل انشاء المدن السورية وتنظيم العاصمة دمشق .

أجمع المؤرخون والجغرافيون العرب على ان دمشق هي بلدٌ قدوهتها الطبيعة جمالاً فائقاً فتراها كثيرة الانهار وافر الجنان . قال ياقوت « قل ان تمر بجائط الا والماء يخرج منه في انبوب الى حوض يشرب منه ويستقي الوارد والصادر ، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاها الا والماء يجري في بركة في صحن هذا المسكان ويسبح في منصته » (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٩٠-٥٨٧) .

وهي نضيرة البقاع تحيط بها من جميع جهاتها الجبال واشهرها جبل قاسيون . وتمتاز بكثرة الفواكه حتى انها تحمل الى مصر وحران . ويصف المقدسي دمشق فيذكر شيئاً عن احوال اجتماعها فيقول : « دمشق هي مصر الشام ودار الملك ايام بني امية وثم قصورهم وآثارهم ، بنيانهم خشبٌ وطين . اكثر اسواقها مغطاة . ولهم سوقٌ على طول البلد مكشوف حسن . . وهو بلدٌ قد خرقتة الانهار واحدقت به الاشجار وكثرت به الثمار مع رخص اسعار ، لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فواراتها ولا احزم من اهلها . . . وهي طيبة جداً غير ان في هوائها يوسه . . . ولحومها عاسية ومنازلها ضيقة ، اوازقتها غامة .

واخبارها ردية ، والمعاش بها ضيقة ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .)

ويصفها القلعة شندي ثم يذكر الصالحية فيقول : « وهي مدينة عظيمة البناء ، ذات سور شاهق ولها سبعة أبواب باب كيسان ، باب شرقي ، باب توما ، باب الصغير ، باب الجابية ، باب القراديس ، الباب للمسدد وهي . حسنة الترتيب ، جليلة الابنة ، غوطتها أجد مستنزهات الدنيا المعجبة بفضلها على سائر مستنزهات الدنيا . . . بها الجوامع والمدارس والازوايا والأسواق المرتبة والديار الجميلة المذهبة السقف المنهوشة بالرخام للنوع ، ذات البرك والماء الجاري ، وربما جرى الماء في الدار الواحدة في اماكن منها . والماء يحكم عليها من جميع نواحيها وغالب بنائها بالحجر . وعناية اهلها بالبناني كثيرة . ولهم في بساكنهم منها ما تهوى به وتحسن بأوضاعه . ويستعمل في عماراتها خشب الجوز واجل حاضرتها ما هو في جانبها الغربي والشمالي .

فأما جانبها الغربي فبها قلعتها ، تحيط بها ببلدية جميعها اسوار عالية ومحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة ، اذا دعت الحاجة اليه اطلق على جميع الخندق المحيط بالبلدية فيعمها .

وبازاء المدينة في سفح جبل قليميون مدينة الصالحية . وهي مدينة ممتدة في سفح الجبل بازاء المدينة في طول مرمى يشرف على دمشق وخطها ذات

بيوت ومدارس واسواق وبيوت خلية. ولكل من دمشق والضاحية البساتين
الانيقة يتسلسل جدارها، وتعني دوحاتها وتمايل اغصانها، وتفر دأطيارها. وفي
بساتين النزعة بها العمار الضخمة والجواسق العلية والبرك العميقة، والتجويرات
المتعددة، تتقابل بها الاواوين والمجالس، تحف بها الفراس، والتصنوب المطرزة
بالسور الملفف والخور المشقوق القدير والياخين المتأرجحة الطيب والقولكة الجلينة
والنمراة الثمينة... ج ٣ ص ٩٤ - ٩٥

فترى ان ياقوت والمقدسي والتفشيدي اجتمعوا على الاعتراف بحال دمشق
ولطف بساتينها وكثرة مدارسها وابتها في مختلف المصنوع التي عاشوا بها.
وهي بلا جدال بلد عجي اعجب الخلفاء الامويين والعباسيين حتى قال ابن خلدون:
«لم تزل ملوك بني العباس تحف الى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر، منهم
المامون فاقام بها وبني القبة التي في أعلى جبل مهران، وصير هادراً وقد أنفق على اعماره
الفار. ويقال ان المامون نظرو يوماً من بناء كان فيه الى اشجار القوطية وبنائها
خلف بالله انها خير مفعلى على وجه الارض» ج ١ ص ٢٥٨

ولو اتيتح لنا زيارة دمشق في اواخر عهد الوليد لاستقبلنا انظارنا
مسجدها الجامع المعروف اليوم بجامع بني أمية، فترى به الفواحة الكبيرة
والاساطين المظلمة والاعمدة الخشبية والمخاريب المزينة والقبة البديعة والاروقة

المرصعة والفسيفساء الملونة والنقوش المتنوعة والقصور المذهبة والمرمر المصقول. وقد جمع الوليد لدى عمارته أشهر البناة والمهندسين من الهند وفارس والمغرب وبيزنطية، ويقال أنه اتفق عليه خراج الشام سبع سنين .

أما الأسباب التي دفعت الأمويين لتشييد المسجد الجامع فهي أولاً إجراة المسيحيين ومضاهاتهم في بناء معابدهم كما يؤثر الخلفاء على العامة، ولثلاً يقال إن بيع النصارى أحسن فناً وادق بناءً وأجل زخرفة من مساجد المسلمين . نستشهد على هذا بما رواه المقدسي حينما سأل عمه معترضاً على كثرة الأموال التي اتفقت على هذا الجامع قال : « قلت يوماً لعمي ياعم لم يحسن الوليد حيث اتفق أموال المسلمين على جامع دمشق ولو أصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورّم الحصون لكان أصوب وأفضل . قال لا تفعل يا بني إن الوليد وفق وكشف له عن امر جليل وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعاً حسنة فذاقن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعته الدواهي فالتخذ المسلمين مسجداً شغلهم به عنهن وجعله أحد عجائب الدنيا . الا ترى ان عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى، المقدسي ص ١٥٩ » ثانياً : منافسة الاجانب البيزنطيين في بنائهم ايضاً وحباً بالظهور امام الاغيار بمظهر القوة والغنى . وكان عمر بن عبد

العزیز الخلیفة العادل یود لو ینزع الحلی التي زین بها الولید المسجد الجامع لتصرف
 علی قضاء حاجات المسلمین وتنفق فی مصالحهم فغیر رأیه وقال: «لا اری مسجد
 دمشق الا غیظاً علی الکفار فنزل عما کان هم به من نزع حلیه ، ابن عساکر
 ج ١ ص ٢١٠ ، یاقوت ج ٢ ص ٥٩٥ » ثالثاً : ضیق فناء المسجد الذی
 اتخذہ معاویة للمصلین وکان موضع هذا المسجد کنیسة یصلی المسلمون فی
 ناحیة منها والنصارى فی ناحیة . فلم یزالوا کذلک حتی کثر عدد المسلمین فی
 دمشق وتوافدت الناس الیها من کل صوب فی ایام الولید ، فطلب الی المسیحیین
 ان یعطوه النصف المختص بهم لقاء اضعاف ثمنه وتعهد لهم ببناء کنیسة فی
 دمشق حیث شاءوا ، فأبوا علیه فهدمه مدعیاً ان المسلمین القاطنین أخذوه عنوة
 و اضافہ للمسجد . وکان اول من هدم فیہ حجراً . قال ابن عساکر یصف هدم
 هذا النصف من الكنیسة : (لما عزم الولید علی الهدم قال له النصارى
 لا یهدمها احد الا جن ٠٠٠ فخرج الولید ومعه وجوه اهل البلد حتی ملأوا
 الكنیسة فأتی بفأس وقال ان هؤلاء یزعمون ان اول من یهدمها یجن وانا
 اول من یجن فی الله تعالی ، وتناولوه کل من حضر ، ج ١ ص ٢٠١) .
 ومما هو جدير بالذكر ان الجند الاسلامی المحارب اشتبك فی قتل الادوات
 اللازمة للبناء واستجلبها من مختلف الاصقاع . اخبرنا ذلك احد الفزاة الشامیین

فقال: «كنا نعتبر أهل الشام وأخواننا من أهل مصر وأخواننا من أهل العراق نفروا فيخرجون على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم شيئاً من التتيفساء وذراعاً في ذراع من رخام فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب. ويستأجروا من يحملة إلى دمشق، ويحمله أهل حمص إلى حمص، ويستأجروا من يحملة إلى دمشق. ويحمل أهل دمشق ومن ورأهم حمصهم إلى دمشق». ابن عساکر ج ١ ص (٢٢٠).

أسهب المؤرخون والأدباء في وصف المسجد الأموي وذكر أروقته ومخاريبه وتقوسه وأعمدته وأنني مقتطف لك فقرات بعيدة عن التبالغة وهي لأشهر الثقات الذين كتبوا في هذا الموضوع.

قال المقدسي: (الجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه قد رفعت قواعده بالحجارة الموجهة كباراً مؤلفة وجعل عليها شرف بهية، وجعلت أساطينها أعمدة سوداً ملصقة على ثلاثة صفوف واسعة جداً، وفي الوسط أرواق المحراب قبة كبيرة، وأدير على الصحن أرواقاً متعالية، ثم بلط جميعه بالرخام الأبيض، وحيطانه إلى قامين بالرخام المجزوع، ثم إلى السقف بالهتيفساء الملونة، في المذهبة صور أشجار وأقمار وكتابات على غاية الحسن والدقة وإطافه الضيقة وأقل شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك

الحيطان ، وطلبت رؤوس الاعمدة بالذهب ، وقناطر الاروقة كلها مرصعة
بالفضة ، واعمدة الصحن كلها رخام أبيض وحيطانه بما يدور والقناطر
وفراخها بالفضة نقوش وطروح ، والسطوح كلها ملبسة بشقائق الرصاص ،
والمشرافيات من الوجهين بالفضة ، وعلى المئمة في الصحن بيت عال على
ثمانية عمد مرصع حيطانه بالفضة ، وفي الجراب وحوله فصوص عتيقة
وفير وزجية كما كبر ما يكون من الفصوص . وعلى الليرة محراب آخر دون
هذا للسليطان وقد كان تشعث وسطه فسمعت انه اتفق عليه خم مائة دينار
حتى عاد الى ما كان ، وعلى رأس القبة ترنجة فوقها مائة كلاهما ذهب . ومن
اعجب شئ فيه تأليف الرخام الممزج كل شلعة الى اختها . ولو ان رجلا
من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لاستفاد منه كل يوم صنعة وعقدة اخرى
. ويدخل اليه العالم من اربعة ابواب باب البريد عن اليمين ، كبير
له فرخان عن يمين وشمال على كل واحد من الباب الاعظم والقرخين
مصراغان مصفحة بالفضة والمذهب وعلى الباب والقرخين ثلاثة اروقة كل باب
منهما يفتح الى رواق طويل قد عقدت قناطر على اعمدة ورخام وجميع
السقوف مرفوعة احسن تزيين وفي هذه الاروقة موضع الوراقين وبجلس خليفة
القاضي ويقابله عن اليسار باب جيرون وباب الساعات وباب القرايس

وطى كل من هذه الابواب مضاءة مرخة ببيوت ينبع فيها الماء وفوارات خارجة
 فى قصاع عظيمة من رخام، ومن الخضراء وهى دار السلطان ابواب الى المقصورة
 مصفحة مطلية واتفق عليه ثمانية عشر حمل بغل ذهب، ص ١٥٩ «
 وقال ابن عساكر : « قال ابو يوسف يعقوب بن سفيان : قرأت فى قبلة
 مسجد دمشق صفائح مذهبة بالازورد بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا هو
 الحي القيوم الى آخر الآية ، لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا نعبد الاياه ،
 ربنا الله وحده . وديننا الاسلام ، وتبيننا محمد صلى الله عليه وسلم . امر ببناء
 هذا المسجد وهذه الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد امير المؤمنين فى
 (ذى القعدة من سنة ست وثمانين) . وهذه الكتابة فى ثلاث صفائح منها
 وفى الرابعة سورة الفاتحة الى آخرها ثم النازعات ثم عيسى ثم التكوين السكل
 بتمامها وقدمت بعد ذلك فرأيت هذا قد محى وكان ذلك قبل المأمون
 وكانت القناديل اذا اطفئت فى مسجد دمشق يسد الواحد مناته لما يفوح
 من رائحة المسك وكان فى مسجد دمشق اثنا عشر الف مرخم ويقال
 ان للرمز كان كثيراً ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢١١ «

وروى ياقوت فى معجم البلدان عن احد الادباء « هو جامع المحاسن...
 معدود من احدى العجائب . قد زوّر بعض فرشه بالرخام وألف على احسن

تركيب ٠٠٠ صنعته مؤتلفة ، بساطه يكاد يتطر ذهباً ويشعل لهباً . وهو منزه عن صور الحيوان الى صنوف النبات وفنون الاغصان لسكنها لاتبجى الا بالابصار ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الاشجار والثمار بل باقية على طول الزمان » وقال ايضاً : « لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم مالم يره في سائر الايام من حسن صنائعه واختلافها » وقال موسى بن حماد البربري : « رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفوراً سورة الهاكم التكاثر الى آخرها » وحكى الجاحظ في كتاب البلدان « مسجد دمشق مبني على الاعمدة الرخام طبقتين ، الطبقة التحتانية أعمدة كبار والتي فوقها صغار . في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالقسيفساء الذهب والاخضر والاصفر . وفي قبة القبليه المعروفة (بقبة النسر) ليس في دمشق شيء أعلى ولا ابهى منظراً منها ولها ثلاث منابر أشهرها المنارة البيضاء . ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهز بالحسن والتنميق الى ان وقع فيه حريق في سنة ٤٦١ هـ فذهب بعض بهجته ، ج ٢ ص ٥٩٣ ، معجم البلدان ص ٥٩١ - ٥٩٢ - ٩٣ .

وذكر القلقشندي مساحته فقال : « وذرعه في الطول من المشرق الى المغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الشمال مائة خطوة »

وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع، ص ٩٦ - ٧ - ج ٣ »

وقد يستلقت نظرك ايضاً لدى زيارتك دمشق قصر معلوية الاول ويعرف بالخضراء فزاد عبد الملك عليه وحسنه واشتراه حسبما روى ابن عساكر بأربعين ألف دينار (ج ٢ ص ٢٤٢ - ٢٤٣)

واذا توغلنا في انحاء العاصمة وذرنا بساكنيها لرأينا ان مسقاها من بردى وهو يقسم على سبعة انهر : اربعة غربية وهي نهر داريا ونهر المزة ونهر الفنوات ونهر بانباس واثنان شرقية وهما نهر يزيد ونهر تورا ، ونهر بردى ممتد بينهما (القلقشندي ج ٣ ص ٩٥) . وكان نهر يزيد صغيراً لا يسقي الا قريتين من قرى الغوطة فلما ولي أمر بحفره وعرضه فقام الفلاحون يعارضونه فلطف بهم ، اخبرنا ذلك ابن عساكر فقال : « وولي يزيد فنظر الى ارض واسعة ليس لها ماء وكان مهندساً فنظر الى النهر — نهر يزيد — فاذا هو صغير فأمر بحفره فنعاه من ذلك اهل الغوطة ودافعوه فلطف بهم على ان ضمن لهم خراج سنتهم من حاله فاجابوه الى ذلك فاحفر نهرأ سعة عرضه ستة اشبار في عمق ستة اشبار على ان له ملاً جنبتيه . ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ »

وكان يزيد الاول مهندساً فأصلح مجاري الانهار لينتفع بها الاهلون . وشاد السكان المباني على جانبي نهر تورا حتى دعاه القلقشندي بنيل دمشق .

وتجده الناس منتزهاتها بالقرب منه وهو أشبه شيء بالزمردة الخضراء لألتفاف
الأشجار عليه . والحقيقة إن هذه الأنهار ينتفع بها الدمشقيون وأهل الغوطة
فيتوزع منها الماء إلى البساتين والمزارع من المواصي ويدخل من بعدها إلى البلد
في القنى، ثم يتفرق إلى البرك والحمامات ويجري في الشوارع والسقايات . ابن
عساكر ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٧)

نزع الخلفاء الأمويون إلى الترف والرفاهية والتمتع بملاذ الحياة الهادئة فساد
هشام بن عبد الملك رصافة الشام . وهي في غربي الرقة وتبعد عنها نحواً من
أربعة فراسخ . وكان ينزلها في الصيف فيضرب بها السراقات . وإذا حل
الطاعون في دمشق وفشا بها هرب منها وجعل الرصافة مكاناً قامته . ويدكر
المؤرخون أنها من عمل الغساسنة فأتى هشام وعمر سورها وبنى بها قصوره . والغريب
أنه ليس عندهم نهر ولا عينٌ جارية إنما يستقي أهلها من الصهاريج . وإذا
فرغت هذه الصهاريج في مواسم الصيف الشديدة القَيْظ يرسل أغنيائهم في
طلب الماء من القرى . قال ياقوت : (يمضي أحدهم إلى القرى العصر فيجيء
بالماء في غداة غد . معجم البلدان ج ٣ ص ٧٨٠ - ٧٨٦) . ويدين سكان
الرصافة بالنصرانية . أما معاشهم فتخفيف القوافل وجلب المتاع وعزل الصوف
ونسج . (الطبري ٢٧٧ ص ١٧٣٨) .

قلنا ان هشاماً كان يرتاد الرصافة لترويح خاطر من عناء الاشغال وانتجاعاً للصحة وهرباً من الطاعون في بعض الاحيان . فقدمت عليه الوفود من الجهات لقضاء حاجاتها واتي اليه اهل المظالم تطلب العدل والانصاف من ارباب الجور والعسف فاسس مجلساً للقضاء ، ادنى اليه الضعفاء والنساء واليتامى واقصى عنه المتنفيذين والاقوياء . وقد طار صيت الرصافة فوصف لنا الكتاب والمتأدبون جمالها واظنوا في مديح هشام وعدالته فقال فيها احد النبلاء من العراق : (قدمت على هشام وقد خرج منتدباً في قرابته واهله وحشمه وحاشيته من اهله الى بعض وادي الرصافة فنزل في ارض قاع صحصح افيح في عام قد بكر وسيمه — مطره — وقد البست الارض انواع زهرتها واخرجت الوان زيتها من نور ربيعها فهي في احسن منظر واجمل مخبر ، بصعيد كأن ترابه قطع الكافور فلو ان قطعة دينار القيت فيه لم تثرب ، وقد ضرب له سرادقات من حبرات اليمن مزرورة بالفضة والذهب وضرب له فسطاطه في وسطه فيه اربعة افرشة من خز احمر مثلها مصافقها ، وعليه دراعة خز احمر وعمامة مثلها وضربت حجر نسائه من وراء سرادقه وعنده اشراف قریش وقد ضربت حجر بنيه وكتابه وحشمه بقرب فسطاطه

وكان له موضع بالرصافة افيح من الارض يبرز فيه فتضرب له به

السراقات . فيكون فيه ستين ليلة بارزاً للناس مباحاً للخلق لا يفني ايامه
تلك الا برد المظالم والأخذ على يد الظالم من جميع الناس واطراف البلاد .
ويصل الى مخاطبته بذلك الموضع داعي السوام والامة السوداء فمن دونهما .
قد وكل رجالا ادباء عقلاء بادناء الضعفاء والنساء واليتامى منه ، وامرهم
باقصاء اهل القوة والكسفاية حتى يأتي على آخر ما يكون من امره فيما
: فعليه ، لا ينضم اليه رجل يريد الوصول اليه فينظروا اوضع منه الا ادنوا
الوضع وابعدوا الارتفاع حتى ينظر في شأنه ويعرف امره وينفذ فيه ما امر
ولا يرفع اليه ضعيف ولا امرأة امراً وظلامة على غطريف من الناس مرتقع
القدر .. الا امر باقتضا . يمينه حتى لربما تمر به المرأة والرجل او عابر
سبيل لا حاجة له فيما مر به فيقال له ما حاجتك وما قصتك وما ظلامتك فيقول
انما سلسكت اريد موضع كذا اروم بلد كذا فيقول له لعلك ظلمك احد
من آل الخليفة تهاب امره وتتوقع سطوته فذلك الذي منعك عن رفع ظلامتك
الى امير المؤمنين فيقول لا والله لا ابني الا ما قلت فيقال له اذهب بسلام ،
حتى لربما انت عليه تارات من الليل وساعات من النهار لا ينظر في شي *
ولا يأتيه احد في خصومة لاستغناء الناس عن المطالب وتعففا من المظالم
ووقاية من سطواته وتخوفاً من عقوبته . وقد وسع العباد أمنه واشعرهم عدله

وصارت البلاد المتناثية الشاسعة كمدار واحدة ترجع الى حاكم قاضى يرقبه الناس
 فى المواضع النائية عنه كما يرقبه من معه ، ابن قتيبة ص ١٩٩ - ٢٠٦ هـ
 وكان سليمان بن عبد الملك والياً على جند فلسطين فى أيام اخيه الوليد
 فنزل (لُد) - اكبر محطة فى فلسطين للسكك الحديدية اليوم - فلم تعجبه
 ولم ترق له الإقامة فيها فقدم الرملة ، وهى رباط للمسلمين منذ الفتح فصرها
 وبنى بها قصره وداراً تعرف بدار الصباغين . واختط المسجد وعمره وزينه
 واحترم لهم الآبار والاقية ، وكان بنو امية ينفقون على آبار الرملة الى اواخر
 ايامهم . واصاب الرملة الدمار فى خلال الحروب الصليبية وهى تكاد تكون
 اليوم قرية ، وكانت زاهية زاهرة فى أيام المقدسي الجغرافى فيقول عنها « قصبة
 فلسطين بهية حسنة البناء خفيفة الماء مرية واسعة المواك جامعة الاضداد بين
 رساتيق جليلة . . . وقرى قديمة والتجارة بها مفيدة والمعاش حسنة ليس فى
 الاسلام أبهى من جامعها ولا احسن ولا اطيب من حواربها ولا ابرك من
 كورتها ولا الذ من فواكهها موضوعة بين رساتيق زكية ومدن محيطة ورباطات
 فاضلة ذات فنادق رشيقة وحمامات انيقة . اطعمة نظيفة وادامات كثيرة
 ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة . . . قد خطت فى السهل
 وقربت من الجبل والبحر وجمعت الثين والنخل وانبتت الزروع على البعل

وحوت الخيرات والفضل غير انها في الشتاء جزيرة من الوحل وفي الصيف
 ذريرة من الرمل ، لاما ، يجري ولا خضر ولا طين جيد ولا تلج ،
 كثيرة البراغيث عميقة الآبار مالحة وماء المطر في حباب مقفلة فالفقير عطشان
 والغريب حيران .

وجامع القصبة في الاسواق أبهى وارشق من جامع دمشق يسمى
 (الالبيض) ليس في الاسلام اكبر من محرابه . ولا يعد منبر بيت المقدس
 احسن من منبره . وله منارة بهيمة بناه هشام بن عبد الملك . . . وارض المغطى
 مفروشة بالرخام والصحن بالحجارة المؤلفة وابواب المغطى من الشربين
 والتنوب مداخله محفورة حسنة جداً . ص ١٦٤ - ١٦٥ . (راجع معجم
 البلدان ج ٢ ص ٨١٧ - ٨٢٠)

يمكننا القول . ون جدال ان الامويين شادوا الرصافة والزملة جبل الزهدة
 وطلبوا للراحة . اما تأسيسهم المدن في العراق فكان لقصيد غير المقصد الذي ذكرناه
 واتينا على بيانه . كلنا يعلم ان العراق كان دوماً متهيأ للثورة على بني اميه وكلنا
 قد شعر بالضغائن التي كان يحملها اهل الكوفة واهل البصرة على الامويين
 وولاتهم فأقام الحجاج مدينة متوسطة بين البصرة والكوفة لا تبعد اكثر من
 خمسين فرسخا عن كل منهما . ولذلك كان يوسعه ان يشرف على اعمال سكان المصيرين

ويضربهم كلما حدثتهم النفس بالعصيان. وشرع الحجاج في عمارة واسط في سنة ٥٨٤ هـ و فرغ منها سنة ٥٨٦ هـ (٧٠٣-٧٠٥ م). وتمتاز واسط بطيب هوائها وكثرة بساتينها ونخيلها. وقد اكده اطباؤه وبض ثقاته انهم - استطابوا ليلها واستعذبوا انهارها واستمروا طعامها وشرابها - (ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٨٨٢). اما اشهر المباني التاريخية التي شادها الحجاج في واسط فهي المسجد الجامع والقبة الخضراء والقصر والسور. وكان ذرع قصره اربع مائة في مثلها وذرع المسجد الجامع مائتين في مائتين. ونقل الحجاج الى قصره والمسجد الجامع ابواباً من الجهات المختلفة من العراق فاحتج اهل هذه الجهات ونخبوا وقالوا قد غصبنا على مدائننا واموالنا فلم يلتفت الى قولهم ولم يغنهم احتجاجهم عليه قليلاً. وقد زار ياقوت واسطاً فوصفها بقوله: « رأيت أنا واسطاً مراً فوجدتها بلدة عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوت الحصر. وكان الرخص موجوداً فيها من جميع الاشياء مالا يوصف بحيث اني رأيت فيها كوز بد بدرهمين واثنى عشر دجاجة بدرهم، واربعة وعشرين فروجاً بدرهم، والسمن اثنا عشر رطلاً بدرهم، والخبز اربعون رطلاً بدرهم، واللبن مائة وخمسون رطلاً بدرهم، والسمن مائة رطل بدرهم، وجميع ما فيها بهذه النسبة، ج ٤ ص ٨٨٦ معجم البلدان ».

جرت السنة لدى الخلفاء الامويين ان يشيدوا المساجد ويعمروا بيوت
الله لتكون زينة للمدن ومركزاً واسعاً لأجتماع المسلمين وغيظاً على الاجانب
والاغيار فاقام الوليد الجامع الاموي في دمشق، وقد اسهبنا لك في وصفه وبيان
محتوياته. وبني والده عبد الملك بمساعده جامع بيت المقدس او جامع الصخرة.
وتباينت روايه الذين زاروه وشاهدوه من المؤرخين في العصور المختلفة في ذكر
مساحته وعدد عمدته ومحاريبه ومنابره والاموال التي اوقفت له .

قال المقدسي : (. . .) وللمعطي ستة وعشرون باباً يقابل المحراب
يسمى باب النحاس الاعظم مصفح بالصفير المذهب والسقوف كلها الا
المؤخر ملبسة بشقائق الرصاص والمؤخر مرصوف بالقسيفساء الكبار والصحن
كله مبلط وسطه دكة يصعد اليها من الاربع جوانب في مراق واسعة وفي الدكة
اربع قباب . وطول المسجد الف ذراع بذراع الملك الاشباني ، وعرضه
سبعائة . وفي سقوفه من الخشب اربعة آلاف خشبة وسبعائة عمود رخام وعلى
السطح خمسة واربعون الف شققة رصاص . وخدامه مماليك له أقامهم
عبد الملك من خمس الاسارى ولذلك يسمون الاخماس لا يخدمه غيرهم ، ولهم
نوب يحفظونها وكانت وظيفته في كل شهر مائة قسط زيت وفي كل سنة ثمان مائة
الف ذراع حصر . ص ١٦٧ - ١٧١)

وقال ابن عبد ربه في العقد القريد : (طول المسجد سبعة أذراع واربعة
ثمانون ذراعاً وعرضه اربعمائة ذراع وخمس وخمسون ذراعاً . ويسرج في المسجد
الف وخمسة قنديل وعدد ما فيه من الابواب خمسون باباً ، وعدد ما فيه من
العمد ستمائة واربعة وثمانون عموداً . وفيه الصخرة الملبسة صفائح الرصاص .
ومن فوق ذلك صفائح النحاس مطلية بالذهب . وجميع ما يسرج في الصخرة
من القناديل اربعمائة قنديل واربعة وستون قنديلاً بمعاليق النحاس وسلاسل
النحاس . وفي المسجد ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة ثمانون ذراعاً
في عرض خمسين ذراعاً . وفيه من المصاحف الجامعة سبعون مصحفاً وفيه من
المحاريب عشرة ، وفيه اربعة وعشرون جباً للماء وفيه اربعة منابر للمؤذنين .
وجميع سطوح المسجد والقباب والمنارات ملبسة بصفائح مذهبة . وله من الخدم
بغياتهم مائتا مملوك وثلاثون مملوكاً يقضون الرزق من بيت مال المسلمين .
ووظيفته في كل عام من الحصر ثمانية آلاف . ج ٤ ص ٢٧٤ — ٢٧٥)

وقال الهمداني في كتاب البلدان : (يقال ان طول مسجد بيت المقدس
الف ذراع وعرضه سبعة مائة . وفيه سبع مائة عمود . وخمس مائة سلسلة نحاس .
ويسرج فيه كل ليلة الف وستة قنديل وفيه من الخدم مائة واربعون خادماً .
وله من الحصر كل سنة ثمان مائة الف ذراع ، وفيه خمسة وعشرون الف جب

للماء ، وفيه ستة عشر تابوتاً للمصاحف . وفيه أربعة منابر للمطوعة وواحد للمرتزة وله أربعة مياضي وقبة الصخرة بناها عبد الملك بن مروان على اثني عشر ركناً وثلاثين عموداً . . . هذا أيام خليفتنا المعتضد بالله من ١٠٠ - ١٠١)
 وقال ياقوت في معجم البلدان : (وهو طويل عريض وطوله أكثر من عرضه وهو على غاية الحسن والاحكام مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منه ، لاجامع دمشق ولا غيره ، في وسط صحن هذا الموضع مصطبة عظيمة في ارتفاع نحو خمسة أذرع كبيرة يصعد إليها الناس من عدة مواضع بدرج . وفي وسط هذه المصطبة قبة عظيمة على اعمدة رخام مستقيمة برصاص منعمة من برا وداخل بالفسيفساء مطبقة بالرخام الملون قائم ومسطح . وفي وسط هذا الرخام قبة أخرى قبة الصخرة التي تزار . ج ٤
 ص ٥٩٤)

أحييت ان اثبت لك هذه الروايات المختلفة المتباينة لتعلم معنى المبالغة
 وكم يجب ان نحذر منها في دراستنا التاريخ . ولو درست هذه الروايات تماماً
 لوجدت ان الهمداني والمقدسي يعطيانك على وجه التقريب عين الارقام فيما
 يختص بمساحة مسجد بيت المقدس وعدد عمده واذرع الحضر التي تقوش
 فيه . لكن الغرابة كل الغرابة حينما تأتي الى عدد الآبار فيعدها ابن عبدربه

فاذا هي ٢٤ ويمدها الهمداني فاذا هي ٢٥١٠٠٠ فتأمل !! أليست هذه الحال من الفضائح في التاريخ فاجتنبها ما قدرت رحمك الله . زهاك قائمة تسهيل عليك نوعاً للمقابلة بين هذه الروايات :

المقدسي	ابن عبدربه	الهمداني	ياقوت
الطول والعرض	١٠٠٠ × ٧٠٠	١٨٤ × ٤٥٥	١٠٠٠ × ٧٠٠
عدد القناديل	—	١٥٠٠	١٦٠٠
العمد	٧٠٠	٦٨٤	٧٠٠
الابواب	٢٦	٥٠	—
الحصر	٨٠٠٠٠ ذراع	—	٨٠٠٠٠٠
الآبار	—	٢٤	٢٥١٠٠٠
الخدم	—	٢٨٠	١٤٠

واهتم الامويون في تجديد المسجد الحرام في مكة وتوسيعه واتفانه . ونحسين كسوته، فزاد عبد الملك بن مروان في ارتفاع حائط المسجد ، وحمل اليه السواري من مصر في البحر الى جده وحملت من جده على العجل الى مكة . ولما ولي الوليد زاد في حليته وزين سقفه باطواق الياقوت والزربرد .

المجلوب من الاندلس (معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢٥ - ٥٣٦) . وكان
 اول من بناه عمر بن الخطاب . فلما كانت السلطة في الحجاز لابن الزبير جعل
 فيه عمداً من الرخام وزاد في ابوابه وحسنها . وطيب الامويون السكبة
 بأنواع الطيب وكسوها الديباج بعد ان كانت تكسى بالثياب اليمانية والقباطي
 (الهمداني ص ٢٠) ووصف لنا ابن عبد ربه البيت الحرام بقوله « صحنه
 كبير واسع ذرعه طولاً اربعاً مائة ذراع واربعه اذرع ، وذرعه عرضاً ثلثمائة
 ذراع واربعه اذرع . وله عمد رخام بيض عددها في طوله من الشرق الى
 الغرب خمسون عموداً وفي عرضه ثلاثون عموداً . وجملة عمد المسجد اربعاً مائة
 واربعه وثلثون عموداً . طول كل عمود منها عشرة اذرع ودورة ثلاثة اذرع ،
 المذهبة من رؤوس العمد ثلثمائة وعشرون رأساً . وسور المسجد كله من داخله
 مزخرف بالفسيفساء وله ثلاثة وعشرون باباً ، العقد الفريد ج ٤ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ »
 اعتنى الامويون ايضاً في توسيع مسجد المدينة وتزيينه فاشترى عمر
 بن عبد العزيز الدور التي حوله في عهد الوليد وزادها فيه وجدد بناءه وبعث
 الى بيزنطية يشتري الفسيفساء فوجهوا اليه منها اربعين وسقاً فشحنها الى
 المدينة ورصع بها المحاريب والسقوف . واول من بنى هذا المسجد الرسول
 محمد (ص) وكان بناؤه باللبن وسمته جريد وعمده خشب النخل فاصلحه

عثمان بن عفان حينما تولى وبناء بالحجارة المنقوشة ٠ (الحمد الى ص ٢٤)
و (الاخبار الطوال من ٣٢٩)

نحمد للامويين اهتمامهم بالعمارة وانصرفهم اليه وبتلهم الاموال الطائلة
في سبيله ، ولستكننا لا الحمد لهم صنيعهم في تخريبهم التماثيل فقد اساءوا بذلك
الى العلم والحق ، اساءوا الى العلم لاننا فقدنا بفقدنا اثارا ناطقة عن الامم
التي سكنت هذا الشرق الاسلامي قبل العرب واساءوا الى الفن لان التماثيل
تخبرنا عن مبلغ ما وصلت اليه تلك الامم من رقة الشعور ومعرفة الجمال .
فامر يزيد بن عبد الملك سنة اربع ومائة (٧٢٢م) بكسر الاصنام في احاء
البلاد كلها فكسرت ومحيت التماثيل وخصوصا في مصر ٠ (الولاة والقضا .
من ٧١-٧٢) ٥٠١ ٠

الفصل الثامن

احوال الاجتماع الاموي

التجارة ، النقود ، دواوين الحكومة ، الموازين ، البربر ، العلم
 والتربية ، تعليم القبائل ، تعليم البنات ، الطب ، شهر الأطباء في العصر
 الاموي ، الثياب ، التأنق في الملابس ، السروج ، السباقي ، الزواج ،
 الموت والرتاء ، الاعياد ، الشهور ، المأكولات المفضولة ، الخرف .

اتحنا لاقسنا في الفصل الذي سلف ان نزور دمشق في اواخر عهد الوليد
وان تتمتع بمناظرها الجميلة الفتانة ، وان نشاهد عمراتها ، فرأينا المسجد الجامع
وقصر الخضراء ، ثم تجولنا في اطرافها فكللنا العيون برأى الغوطة الملتفة الاشجار
ونهر بردى مع روافده السبعة . وانا الآن نود لو نسير واياك فنختلط
مع سكانها كبيرهم وصغيرهم ، شريفهم وضيعهم ، لتعرف الى احوال اجتماعهم
وطراز حياتهم واساليب تجارتهم وانواع تقودهم وشكل بریدهم ومعاني التربية
والاخلاق عندهم . انا بذلك نقم ما ودرشنا من عادات وتقاليد وما طرأ عليها
من التطور والتغير خلال هذه العصور .

التجارة : اشتدت الحركة التجارية في الشام حينما كثرت الاموال وبدأ
الاغنياء ينزعون للترف ويقلدون البيزنطيين في لبس الحرير واتخاذ الاثاث الغالي
في بيوتهم . فكنت ترى التجار من الفرس والبيزنطيين والاندلسيين والصقالبة
وبعض العرب يجلبون من المغرب الخدم والجواري والعلماء والديباج وجلود
الخز والقراء والسمور والسيوف . ثم يمضون الى المشرق فينتابون السند والهند
والصين فيحملون منها المسك والعود والكافور والدارصيني وقبلتهم في ذهابهم
وايابهم دمشق عاصمة الخلافة . وكانوا يسافرون من المشرق الى المغرب ومن
المغرب الى المشرق براً وبحراً . اما الطرق التي يتبعونها في رحلاتهم الطويلة

فكانت اما من فرنسا الى مصر - من فرنجية الى اقربا - ومنها يركبون
 البحر الاحمر - القلزم - الى جده ثم يمضون الى الصين والهند . واما من
 فرنسا الى انطاكية فالجالية ثم يركبون في القرات فالدجلة الى بغداد فالبصرة
 ومنها يبحرون الى عمان فالهند . (المسالك والممالك لأبن خرداذبه ص
 ١٥٣ - ٤ - ١٥)

واشتهر لدى الدمشقيين جماعات التجار الصقلية ، وكان يحمل هؤلاء
 جلود الخنزير وجلود الثعالب السود والسيوف من اوروبا فيبحرون اما من فرنسا
 واما من الاندلس الى السوس الاقصى فيصرون الى طنجة ثم الى تونس فمصر
 فالرملة فدمشق فالكوفة ببغداد فالبصرة فالاهواز فقارس فكرمان فالسند
 فالهند فالصين ، وكان يصحبهم في رحلاتهم الخدم الصقلية المستعربة وغير المستعربة
 قيترجون لهم .

اما البلاد الشامية فكانت تصدر الزيت والصابون والقواكه والحبوب
 والسكر والثياب والسكر والزجاج والقطن والحديد والحوار - و به تبيض
 السقوف والسطوح - والحجارة البيضاء والرخام وغيرها . وقد ذكر المقدسي
 ما تصدره كل بلد في الشام فقال : « يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبد
 والخرنوب والملاحم والصابون ، ومن بيت المقدس الجبن والقطن والتفاح

والمرايا، وقصور القناديل والابر، ومن ييسان النيل والتمور، ومن عمان الجبوب
والخرفان والعسل، ومن طبرية شقاق المطارح والسكاغد، ومن القدس الثياب
المنيرة والبلعيسية والحبال، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات،
ومن ماب قلوب الابر، ومن ييسان الرز، ومن دمشق المعصورو الديبا ودهن
البنفسج والصفريات والسكاغد والجوز، ومن حلب القطن والثياب والاشنان
والمغرة وقصب السكر والرطب والزيتون والتارنج والجوز والهلين والمون والساق
والسكرنب والسكاة والترمس. المقدسي ص ١٨٠ - ١٨١ »

وتعاملت التجار الاجانب في المملكة الأموية بواسطة النقود البيزنطية
والفارسية وقد عرفها العرب منذ الجاهلية فقال البلاذري « كانت دنانير هرقل
ترد على اهل مكة في الجاهلية وترد عليهم دراهم القرس البغلية فكانوا
لا يتبايعون الا على انها تبر. البلاذري ص ٤٧١ » وكانت مختلفة الاوزان
فوزن بعضها عشرين قيراطاً واثنى عشر قيراطاً والبعض الآخر عشرة قواريط.
ولا يغرب عن بالنا انه كانت لقريش في مكة اوزان في الجاهلية فدخل
الاسلام فاقرها وثبتها. فكانت تزن الفضة بو زن تسمية درهما. وتزن الذهب
بوزن تسمية ديناراً. وكان عندهم وزن الشعيرة وهو واحد من الستين من
وزن الدرهم، والواقية وتزن اربعين درهماً، والنش وتزن عشرين درهماً،
والنواة وتزن خمسة دراهم.

قلنا ان النقود المتداولة بين ايدي الناس في المملكة الاموية كانت
 بيزنطية وفارسية، فلما استولى عبدالملك بن مروان على زمام الامور نقل السكة
 والنقود الى العربية ويروي ان خالد بن يزيد بن معاوية أشار على عبد الملك
 بقوله : (يا امير المؤمنين حرم دنائيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سككا
 ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير . . . وكانت الاقباط تذكر
 المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبه الى الربوبية وتجعل الصليب مكان (بسم
 الله الرحمن الرحيم (البلاذري ص ٢٤٩) . فضرب الدنانير وامر عماله بضرها
 فأنشأ الحجاج داراً لضرب السكة في العراق، وجمع فيها الطباعين فكان يضرب
 المال للخليفة مما يجتمع له من التبر. وختم ايدي الطباعين وشدد التكرير عليهم
 ووضع قانوناً يقتضي بالقصاص الصارم والعذاب الشديد على المزيفين . ويذكر
 البلاذري ان عمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري ويوسف بن عمر ولاة
 العراق بعد الحجاج أفرطوا في الشدة على الطباعين واحباب اليمار فقطعوا
 الايدي وسجنوا المزيفين . لذلك كانت الدراهم الهبيرية والخالدية واليوسفية
 أجود نقود بني أمية . وكسب الحجاج على النقود التي سكها - بسم الله
 الرحمن الرحيم - وكسب ايضاً بعد ذلك - الله احد الله الصمد - .
 قد تعجب فئة منا كيف ان الحكومة الاموية لم تفعل خلا الذي استلزمها

زمام الاحكام في ضرب نقود عربية باسمها تقوم مقام نقود الاغيار . وقد
 تستغرب هذه القصة اذا قلنا لها ان دواوين الحكومة الاموية ظلت تكتب
 باليونانية في الشام ، وبالفارسية في العراق ، وبالقبطية في مصر حتى عهد عبد الملك
 بن مروان . ولكن هناك ما يدعو الى العجب والاستغراب فكان
 القرس والاراميون والقبطيون يفوقون العرب في ادارة الدواوين وضبط حسابات
 المالية وتدقيق المسائل السكتائية . هذا عدا ان العربية كانت تصارع اللغة
 القبطية في مصر والارامية واليونانية في سورية ، والفارسية في العراق ولم
 تتغلب عليها . فلما كانت سنة ٨١ هـ (٧٠٠ م) اشتدت حركة التعصب
 للعربية ومقاتلة اللغات الغريبة عن العرب . وكثر عدد المتعلمين من
 الشبان الامويين الذين اخذوا ينافسون الاجانب ، فامر عبد الملك
 بنقل جميع دواوين الحكومة الى العربية في جميع الاقطار ، وألف لجنة
 للقيام بهذا العمل الخطير عهد رئاستها الى سليمان بن سعد ، وامده بالمال
 فاعانه بخراج الاردن سنة كاملة ويقدر بمائة الف ومائتين الف دينار . فلم تنته
 السنة الا وقتلت جميع الدواوين الى العربية ، فتأثر السكتاب البيزنطيون
 من ذلك إذ فقدوا وظائفهم واجبروا ان يتطلبوا العيش من غيرها . روى
 ذلك البلاذري فقال : (فلم تنتض السنة حتى فرغ من نقله واتى به عبد الملك

فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه، وخرج من عنده كشييا فلقيه قوم من كتاب الروم فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم ص ٢٠١) .

وقد بذل الموظفون الفرس مالا كثيراً لصالح بن عبد الرحمن رئيس اللجنة التي اوكل اليها نقل الديوان من الفارسية الى العربية في العراق فلم يفلحوا لأن الحجاج كان من ورائه يشرف على كل صغيرة وكبيرة ولأن صالح بن عبد الرحمن يصبح رئيساً لشعبة كبرى من هذه الدواوين ان نجح في اتمام تعريبها . فلم يزل مكباً على تعريبها مع زملائه حتى تم له ما اراد . واعترف احداً المكتبة الفرس عما اصابهم من الالم من نقل هذه الدواوين الى العربية فقال : (بذات لصالح مائة الف درهم على ان يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى وقله . البلاذري ص ٣٠٩)

ولم ينتقض عام ٨٧ هـ (٧٠٥ م) حتى امر عبدالله بن عبد الملك بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف الامير عبدالله اشناس عن الديوان (كتاب الولاة والقضاء ص ٥٨ - ٥٩)

اما الموازين التي كان يستعملها التجار فكانت تختلف باختلاف البلاد الاموية وقد عرفنا منها (١) القفيز (٢) الويية (٣) السكوك (٤)

السكيلجة (٥) والقب (٦) والمدي (٧) والغرارة (٨) والرطل (٩)
والاوقية (١٠) والدرهم (١١) والحبة (١٢) والذائق .
فاما السكيلجة فهي نحو صاع ونصف والمسكوك نحو ثلاث كياح واللوية
مكوكان والقفيز اربع وبيات والمدي نحو ثلثي القفيز والغرارة قفيز ونصف .
وكل رطل اثنا عشر اوقية ، والدرهم ستون حبة ، والحبة شعيرة واحدة ،
والذائق عشر خبات . وهذه الاوزان تتفاوت في البلاد .

ولا شبهة لدينا ان البريد كان يسهل على التجار امورهم فكانوا دوماً
على اتصال مع زملائهم في بقية الاقطار الاموية . وديوان البريد مصلحة
تختص بالحكومة رأساً فيبعث صاحبها بتجارير الخلافة واوامرها ومراسيمها
الى مواضعها ، ويتولى عرض الكتب من جميع النواحي على مقام الخلافة .
ويحسن بصاحب البريد ان يكون علماً باسماء البلدان والمواضع والمنازل وعدد
الاميال والفراسخ التي بينها قادراً على وصفها وبيان عمرانها وطبيعتها وطرقها
ومسالكها . وهو الذي يعين المأمورين الضليعين في هذا المسلك في المحطات
المختلفة . قال ابو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي : « ويكون
اليه — لصاحب البريد — النظر في امر المرتبين في السكك وتنجز ارزاقهم
وتقليد اصحاب الخرائط في سائر الامصار ، والذي يحتاج اليه في صاحب

هذا الديوان هو ان يكون ثقة اما في نفسه او عند الخليفة القائم بالامر في وقته ، لان هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه الى الكافي المتصفح وانما يحتاج الى الثقة المتحفظ ، والرسوم التي يحتاج اليها من امر الديوان ما يضبط بها اعماله واحواله ولا غنى بصاحب هذا الديوان ان يكون عارفا بأمر الطرق ومواقع التسكك والمسالك الى جميع النواحي ، ولا يحتاج في الرجوع بهذه المعرفة الى غيره ، وما ان سأل عنه الخليفة وقت الحاجة الى مشغوصه واقفاذ جيش يهيم امره وغير ذلك مما تدعو الضرورة الى علم الطرق بسببه وجده عتيداً عنده ومضبوطاً قبله ولم يحتاج الى تكاليف عمله والمشكلة عنه ، « نبذ من كتاب الخراج وصفة الكسابة ص ٦٨٤ - ٦٨٥ »

العلم والتربية : عرفنا شيئاً عن تجارة الدولة الاموية واحوال تجارتها والطرق التي سلكوها ، وتقودهم وموازينهم والبريد الذي سهل عليهم سبل مواصلاتهم ومخبراتهم . وانا سنجرب الآن ان نهيهم شيئاً عن العلوم التي اشتغل بها الامويون واصول التربية التي استناروا بنورها . اعتنى العرب منذ الجاهلية باحكام اللغة ونظم الشعر وتأليف الخطب ومعرفة الاخبار والسير . وكان لهم بعض الاطلاع باوقات مطالع النجوم ومغاربها وباتواء السكاكب وامطارها على حسب ما ادركوه بفرط العناية وطول التجربة

لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة لاعلى طريق تعلم الحقائق
 ولا على سبيل التدرب في العلوم (طبقات الامم ص ٤٥) وكانت العرب
 في صدر الاسلام لا تهتم بشي من العلم الا بلغتها ومعرفة احكام الشريعة
 وصناعة الطب لاحتياج الناس اليها في جميع الادوار . (طبقات الامم ص ٤٧)
 كانت الدولة الاموية دولة فتوح وتوسع فلم تعتن الاعتناء اللازم في
 انشاء المدارس وتهيئة المناهج العلمية ليسيير الطلاب بحسبها . بل جل مانع رفاهان
 الخلفاء والنبلاء والقادة كانوا يأتون بمؤدبين ليؤدبوا اطفالهم . ويعرف هؤلاء
 المؤدبون عادة بسمو اخلاقهم وغزير علمهم وشدة ورعهم وتقاهم . ولودرسنا الوصايا
 والنباذاتي اقتطفناها من مختلف المصادر لتحققنا ان النبيل الاموي كان يعلم الدين
 فيقرأ القرآن الكريم ويحفظ الحديث الشريف ثم يروي الشعر والاقوال المأثورة
 ويلقن الحساب واللغة ، وقد يحذرون حذراً شديداً من اللحن . وكان المربون
 ينشئون في طلابهم خصالا جيدة فيطلبون اليهم الاعتماد على النفس والابتعاد
 عن الملاهي والمعارف والغناء ومراعاة سنن الاقتصاد ونبد الصلف والعجب
 بالنفس ، وامروهم بموازرة الغير ومساعدته جهد الطاقة . وكانوا يهتمون بالرياضة
 فيشجعونهم على النزول في ميادين السباق والفروسية ويمرنونهم على الصيد
 والقنص والمصارعة . وهاك فقرات تؤيد لك ما قدمناه :

ذكر السكابي مؤدب محمد بن سليمان بن عبد الملك قال : « بعث اليّ سليمان بن عبد الملك فدخلت عليه فسلمت عليه بالخلافة فرد عليّ السلام ثم اوما اليّ فجلست فسكت عني حتى اذا سكن جأشي قال لي . يا كلبى ان ابني محمداً قرّة عيني وثمرة قلبي وقد رجوت ان يبلغ الله به افضل ما بلغ رجلا من اهل بيته ، وقد وليتك تأديبه فعلمه القرآن ورواه الاشعار فان الشعر ديوان العرب ، وفهمه ايام الناس ، وخذه بعلم القرائض ، وفهمه السنن ، ولا تقتر عنه ليلاً ولا نهاراً ، فاذا اخطأ بكلمة أو زل بحرف أو هفا بقول فلا تؤفبه بين يدي جلسائه ، ولكن اذا خلا لك مجلسه لثلا تمحكه . واذا دخل عليه الناس للتسليم فخذهم بالطافهم واطهار برهم . واذا حيوه بتحية فليحيهم بأحسن منها . واطيبا لمن حضر بمائدتكما الطعام ، واحمله على طلاقة الوجه وحسن البشر وكظم الغيظ وقلة القدر والتثبت في المنطق والوفاء بالعهد ، وتنكب الكذب ، الاخبار الطوال ص ٣٣٢ — ٣٣٣ »

وقال عتبة بن ابي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده « ليكون اول ما تبدأ به من اصلاح بني اصلاح نفسك ، فان اعينهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت وعلهم كتاب الله ، ولا تكروهم عليه فيما لوه ولا تتركهم منه في هجره ، ثم روه من الشعر أعفه ، ومن

الحديث اشرفه ، ولا تخرجهم من علم الى غيره حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، وتهددهم بي وادبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محادثة النساء ، وروهم سير الحكماء ، واستزدني بزيادتك اياهم ازدك ، واياك ان تتكل على عذر مني لك فقد اتكلت على كسفاية منك . وزد في تأديبهم ازدك في بري انشاء الله تعالى . البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٥ - ٣٦)

وقال عبد الملك لرومان مؤدب اولاده : (مرهم باحراز ما أقبل قبل ادباره ، وكنمان ماني الاقصى دون الخلصان ، وموازرة الثقة من الاخوان وتوقع انتقاد الاخوان ، وقلة التعجب من عذر الخلان ، ابن عساكر ج ٥ ص ٣٤٠)
وقال عمر بن عبد العزيز لأبنة عبد الملك : (فان ابتلاك الله بغنى فاقصد في غناك وضع لله نفسك واد الى الله فرائض حقه من مالك . . . واياك ان تفخر بقولك وتعجب بنفسك او يخيل اليك ان مارزقه لكرامة لك على ربك وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك . سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٥٩ - ٢٦٠)
وقال عمر بن عبد العزيز الى مؤدب ولده : (من عبد الله عمر امير المؤمنين الى سهل مولاه ، اما بعد فاني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي نصيرتهم اليك عن غيرك من موالي وذوى الخاصة بي ، فخذتهم بالجفاء فهو امعن

لاقدامهم ، وترك الصلبة فان عادتھا تكسب الغفلة ، وقلة الضحك فان كثرتہ
تميت القلب ، وليكن اول ما يعتقدون من ادبك بغض الملاهي التي بدؤها
من الشيطان وعاقبتها سحق الرحن . فانه بلغني عن الثقات من اهل العلم ان
حضور المعازف واستماع الاغاني واللهج بها ينبت النفاق بالقلب كما ينبت العشب
الماء ، ولعمري لتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذهن من
الثبوت على النفاق في قلبه وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن
يتثبت في قراءته ، فاذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج الى القرض حافياً فرمى
سبعة ارشاق ثم انصرف الى القائلة . سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٥٧-٢٥٨

وقال الحجاج لمعلم ولده : (علم ولدي السباحة قبل الكتابة فانهم يصيرون
من يكتب عنهم ولا يصيرون من يسبح عنهم . البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢)
وكتب عمر بن عبد العزيز الى ساكني الامصار : (اما بعد فعملوا
اولادكم السباحة والقروسية ، ورووهم ماسار من المثل وحسن من الشعر .
البيان والتبيين ج ٣ ص ٩٢) .

وقال ابن التؤم : (علم ابنك الحساب قبل الكتاب فان الحساب
اكسب من الكتاب ، ومؤنة تعلمه أيسر ، ووجوه منافعه أكثر . البيان
والتبيين ج ٢ ص ٩٢)

وكان ابن التّوم يقول أيضاً : (من تمام ما يجب على الآباء من حفظ
الابناء ان يعلمه الكتاب والحساب والسباحة . البيان ج ٢ ص ٩٢) .

ودخل على الوليد فتى من بني مخزوم فقال له « زوجني ابتك » فقال
« هل قرأت القرآن » قال « لا » قال « ادنوه مني » فادنوه فضرب عمامته
بتضيب كان في يده وقرع رأسه به قرعات ثم قال لرجل « ضمه اليك فاذا قرأ
زوجناه . البيان ج ٢ ص ١٠٦ - ١٠٧ » .

وقال عبد الملك : (اللحن هجنة على الشريف . البيان ج ٢ ص ١١٢)
وكان يقال : (اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه . البيان ج ٢
ص ١٢٢) .

وقال عبد الملك وكان ينفر من لحن الوليد : « أضر بالوليد حبنا له فلم
نوجهه الى البادية . البيان ج ٢ ص ١٠٧ » .

وأرسل الامويون المعلمين الى القبائل الرّحل ليعلموهم أمور دينهم
وشيثاً من القرآن والسكّابة ومبادئ الحساب فذكر ابن الجوزي أن عمر بن
عبد العزيز بعث يزيد بن ابي مالاك الدمشقي والهازث بن يمجّد الأشعري
يفقهان الناس في البدو وأجرى عليهما رزقاً ، (سيرة عمر بن عبد العزيز
ص ٧٤) ، وأحسنوا الى الفقهاء ووضوهم بالجوائز واغدقوا عليهم النعم المتوالية

فكتب عمر بن عبدالعزيز الى والي حمص : (انظر الى القوم الذين نصبوا انفسهم للفقہ وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيتك كتابي هذا . وان خير الخيرة أمجله والسلام عليك ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ٩٥) .
أما البنات فكن يتعلمن القرآن ويحفظن الشعر فذكر كتاب الأمالي انه كانت مولاة لبني الحجاج تحفظ شعراً وترويه وتنشده فتيات بني الحجاج ، (ج ٢ ص ٦٢) .

ولا ريب ان بعض المحافظين كانوا يتجنبون تعليم البنات جهدهم سوى ما يختص بتعليمهم أمور دينهم حتى قيل : (لا تعلموا البناتكم الكتاب ولا تروهن الشعر و علموهن القرآن ومن القرآن سورة النور ، البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢) .

الطب : عرف العرب الطب منذ الجاهلية وذلك لاحتكاكهم بفارس وبيزنطية ، فلما جاء الاسلام أباح دراسته وأكرم الأطباء . وقد كان النبي بحث الناس على الاهتمام به . (طبقات الامم ص ٢٧) . فحاجتهم اليه . وشجعت السياسة الأطباء على الاقتراب من أولي الأمر ليكونوا أعواناً لهم على التخلص من أعدائهم فقال معاوية بن أبي سفيان حينما بلغه ان ابن أثال

الطبيب سقى الاشر قائد علي بن ابي طالب شربة عسل فيها سم (ان الله جنوداً ، منها العسل) ، (عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ١١٦ - ١١٩) . وكان معظم الاطباء من الذميين وأغلبهم نصارى في ايام بني امية . ونبغ من الاطباء رجال معدودون أشهرهم الحارث بن كلدة الثقيفي . وهو شاب حجازي وُلد في الطائف . ورحل في طلب صناعة الطب فذهب الى اليمن وفارس فأخذ عن أشهر أطباء جنديسابور وأصاب في بلاد العجم مالا كثيراً لمدوائهم عظامها وكبرائها . وتمرن في طبابة العيون حتى طار صيته فيها . وكان معاصراً للنبي والخلفاء الراشدين وادرك ايام معاوية بن ابي سفيان . ثم هزه الحنين فاشتاقته نفسه الى موطنه فرجع الى الحجاز فدرس امراض العرب وعرف ما تعتاده القبائل من المعالجات . وكان الحارث موسيقياً ماهراً فحضر على العود ولعله اقتبس ذلك من فارس . وله كلمات ونصائح طيبة مأثورة يتناقلها العرب منها :

« الداء الدوي ادخال الطعام على الطعام » .

« لا تدخل الحمام شعباناً ، ولا تقيم بالليل عرياناً ، ولا تقعد على الطعام غضباناً وارفق بنفسك يكن أرضى لبالاك ، وقلل من طعامك يكن اهنأ لنومك » .

« من سره البقاء - ولا بقاء - فليباكر الغداء وليعجل العشاء »

ولينخف الزداء ، وليقلل الجماع ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ١١٠ - ١١٢ ،
 ونيفغ من الاطباء عبد الملك بن ابجر الكناني وهو من الشبان الذين
 اشتغلوا في صناعة التدريس بالاسكندرية وقد اعتنق الاسلام على يد عمر بن
 عبدالعزيز . ولما اراد عمر ان يهيئ الاسباب لدراسة الطب في انطاكية وحران
 كان الطبيب عبد الملك ساعده الايمن وكان هذا الخليفة العادل يعتمد عليه
 ويحمله ، (عيون الانباء ج ١ ص ١١٦) .

وعرف منهم ابن اثال وهو طبيب دمشقي ممتاز عاش في ايام معاوية
 الأول . وكان خبيراً بالادوية المفردة والمركبة وقواها ، ملماً بالسموم القاتل .
 ويهتمهم المؤرخون ان معاوية لم يقربه الا ليكون آتته في التخلص من بعض
 الامراء والخصوم السياسيين . ويستشهدون على صحة دعواهم بقولهم ان معاوية
 دس الى ابن اثال ان يسقي عيـد الرحمن بن خالد بن الوليد سمّاً حينما حدثته
 نفسه بطلب الخلافة . قال ابن ابي أصيبعة : (ان معاوية لما اراد ان يظهر العتد
 ليزيد قال لاهل الشام ان امير المؤمنين قد كبرت سنه ووزق جلده ودق
 عظمه واقترب أجله ويريد ان يستخلف عليكم فمن ترون فقالوا عبد الرحمن
 ابن خالد بن الوليد فسكت وأضرها ودس الى ابن اثال الطبيب النصراني
 فسقاه سمّاً فمات فقتك ابن اخيه بالطبيب فالزم معاوية بني مخزوم دية ابن
 اثال اثني عشر الف درهم ، (عيون الانباء ص ١١٦ - ١١٩) .

واستعمل معاوية بن ابي سفيان أبا الحكم الدمشقي في المتقاصد السياسية التي كان يريد تنفيذها واثامها . وكان هذا زميلاً لابن اثال عداً بأنواع العلاج والادوية . وعمر الحكم حتى تجاوز المائة سنة ، وطبب يربداً الأول وعبد الملك بن مروان . ويري القفطي ان معاوية كان يسيره مع الحجاج الى مكة .
(أخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١٢٣) .

وعرف ابنه الحكم من بعده وقد تعلم على ابيه ومارس هذه الصناعة ونال صيتاً طيباً كوالده .

واختص ثياذوق الطيب النصراني بخدمة الحجاج وصحبه وكان يعتمد عليه ويشق بمواظرتة فاعقد عليه نعمه وأجرى عليه رزقاً كثيراً . ودرس عليه طلاب مشهورون وقد ادرك بعضهم الدولة العباسية كـفـرات بن شحاتنا طيب عيسى بن موسى الامير العباسي ، ومات فـرات في زمن المنيصور (القفطي ص ٢٤ مختصر الدول ص ١٩٤) ، والفـد بعض الكتب القيمة (كالكنش الكبير) ، وكتاب ابدال الادوية وكيفية دقها وإيقاعها واذا بها . (شي من تفسير اسماء الادوية) . وله حكم ونصائح طيبة منها :
« لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام »

« ولا تأكل ما تضعف اسنانك عن مضغه فتضعف معدتك عن هضمه »

« ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين ، فإن أصل الداء
التخمة وأصل التخمة الماء على الطعام »

« وعليك بدخول الحمام في كل يومين مرة واحدة ، فإنه يخرج من جسدك
مالا يصل اليه الدواء »

« وأكثر الدم في بدنك تحرس به نفسك »

« وعليك في كل فصل قينة ومسهلة »

« ولا تحبس البول وإن كنت راكباً »

« وأعرض نفسك على الخلاء قبل نومك »

« ولا تكثر الجماع فإنه يقتبس من نار الحياة »

وأختص بخدمة الحجاج أيضاً الطبيب ثاودون وله مؤلفات جمّة منها
« السكناش » صنّفه لأبنة المستعين به . وعرف من الأطباء ماسر جويه وهو بصري
سرياني اللغة يهودي المذهب . وتولى تعريب بعض السكتاب الطبية عن
السريانية ككناش اهرن القس وغيره وقد عاش في زمن مروان بن الحكم .
(مختصر الدول ص ١٩٢)

التياب والعالات الاجتماعية :

لو ساعدنا القدر ورأينا أحد الخلفاء الأمويين في المسجد الجامع حين صلاة

الجمعة اوفي احد ايام الاعياد الرسمية لاستلقت انظارنا البردة التي عليه ،نوهي
 ثوب كان يلبسه الرسول (ص) . قال ابن الاثير : وهي شملة مخططة وقيل
 كساء أسود مربع فيه صغرو. وقد اختلف في وصولها الى الخلفاء ، القلقشندي
 ج ٣ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ . ولرأينا القضيبي الذي يحمله وهو عود كان النبي
 يأخذه بيده . ثم لو اقتربنا من الخليفة وحدقنا في يده البني لشاهدنا خاتماً ،
 والاصل في اتخاذ الخاتم ان النبي قيل له ان الملوك لا يقرون كتاباً غير مختوم ،
 فاتخذ خاتماً من ورق وجعل نقشه (محمد رسول الله) . واتخذ الخلفاء بعد
 ذلك خواتيم وصار كل ينقش ما يشاء من الكلمات ، فنقش معاوية على خاتمه
 (لاقوة الا بالله) . ونقش يزيد الاول على خاتمه (ربنا الله) ، ونقش معاوية
 الثاني (بالله ثقة معاوية) . ونقش مروان بن الحكم (آمنت بالله مخلصاً) ،
 ونقش الوليد (يا وليد انك ميت) ، ونقش غيرهم الفاظاً كلها تدل على خضوعهم
 للعزة الالهية واعتمادهم عليها . وكان الخاتم والقضيبي والبردة من شعائر الخلافة
 وظل يتوارثها الخلفاء الواحد اثر الآخر .

اما مجالس الخلفاء فكان فرشها الاثاث القطني في الصيف ، والاثاث
 الصوفي في الشتاء . وكل ذلك على اتم اساليب وانغم طريقة . ويؤكد صاحب
 البيان والتبيين ان ظهور دوائر الحكومة بمظاهر الابهة ضروري فيقول : (وهل

يملا عيون الاعداء ويرعب قلوب الخالفين ويحشو صدور العوام افراط التعظيم وتعظيم شأن السلطان والزيادة في الاقدار الا الآلات، وهل دواؤهم الا في التهويل عليهم . وهل يصلحهم الا اخافتك اياهم . وهل ينقادون لما فيه الحظ لهم ويسلمون بالطاعة التي فيها صلاح امورهم الا بتدبير يجمع المحبة والمهابة . (ج ٣ ص ٦٠) ويلبس الناس الخلفاء والقلائس في الصيف كما يلبسونها في الشتاء اذا دخلوا على الخلفاء وعلى الامراء وعلى السادة والعظماء لأن ذلك اشبه بالاحتفال والتعظيم والاجلال وابتعد من التبذل والاسترسال . (البيان والتبيين ج ٣ ص ٦٠) ويتعممون احياناً اما (العقاء) وهو ان تعقد العمامة في الفقاء واما الملياء وهو ان تعقد ميالة على الرأس . (البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤) .

وكان بعض الخلفاء يتأفقون في ملابسهم ويكثر من منها حتى لقد قيل انه لم يكن في بني مروان أعطر ولا البس من هشام بن عبد الملك . ويبالغ المؤرخون في تعداد ثيابه فيرى انه خرج حاجاً فحمل ثياب ظهره على سائمة حمل . (العقد الفريد ج ٣ ص ١٧٧) ، ويقول ابن قتيبة عن اسراف هشام في ملبسه : (وكان قد حُبب اليه التكاثر من الدنيا والاستمتاع بالسكساء ، لم يلبس ثوباً قط يوماً فعاد اليه ، حتى لقد كان كساء ظهره و ثياب مهنته لا يستعمل

بها ولا يحملها الا سبعائة بعير من أجلك ما يكون من الابل . . . وكان مع ذلك يتقلها ، الامامة والسياسة . ج ٢ ص ٢٠٦) . وكان سليمان بن عبد الملك شاباً وضيئاً جميلاً يعجبه التألق في اللباس فيروى انه لبس ذات يوم وتيلاً ثم قال لجارية له حجازية كيف ترين الهيئة ، قالت انت اجمل الناس ، قال انشدني على ذلك فقالت :

انت خير المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للانسان
 انت خلوت من العيوب ومما يكره الناس غير انك فان (ص ٤٦)
 والحقيقة التي يزيد ايرادها ان بعض الخلفاء أسرفوا في اقتنائهم الثياب اسرافاً زائداً ، كما ان بعضهم قتر على نفسه كعمر بن عبد العزيز الخليفة العادل فكان لا يلبس الا جبة بسيطة وسراويل رخيصة ولا يعتم الا بعمامة غليظة . وزهد عمر في الثياب والعطر منذ ان تولى مصالح المسلمين . فقال ابن الجوزي :
 (صلى عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه وخلفه . فقال له رجل يا امير المؤمنين ان الله عز وجل قد اعطاك قلوباً تفتكس ملياً ثم رفع رأسه فقال ان افضل القصد عند الجدة وافضل العفو عند المقدرة . سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٦) .

وذكر شاهد عيان : (رأيت على عمر قلنسوة بيضاء لاطية برأسه

وعمامة غليظة يعتم بها، ورأيته وعليه قميص قطري كستان ثمن دينار ودينارين،
وملاءة قرقشمة مثل ذلك في الصيف، وكان عليه في انشته طيلسان، ورأيت
عليه جبة مبطنة بفراء مكان القطن وفوق الجبة ثوب ابيض ظهر له وبطانة،
سيرة عمر ص ١٤٨ .

وكان عمر يهتم بالثياب الفاخرة والعطر قبل خلافته فذكر ابن الجوزي:
(كان عمر بن عبد العزيز يسرف في عطوره فلقد كان يدخل في طيبه حمل
القرنفل، ولقد رأيت العنبر على لحيته كاللحج، فلما افضت اليه الخلافة ترك
ذلك وتبذل ٠٠٠٠٠٠، كان عمر يعامل رياح بن عبيد وكان تاجراً من أهل
البصرة ٠ أمره وهو بالمدينة ان يشتري له جبة خز فاشتراها له بعشرة دنانير
ثم اتاه بها فمسها فقال اني لأستخشنها ٠ فلما ولي الخلافة أمرني فاشتريت
له جبة صوف بدينار، فاتاه بها فجعل يدخل يده فيها ويقول ما أليتها فقال
التاجر: عجيباً تستخشن الخزأمس وتستلبن الصوف اليوم، سيرة عمر بن
عبد العزيز ص ١٥٠) .

عرف عمر بن عبد العزيز بالعدل والانصاف والاحسان لجميع افراد
شعبه ومع ذلك فقد خصص الثياب التي يجب ان يلبسها النصارى ووضع
شروطاً طلب اليهم حفظها فأمر ان (لا يركب نصراني سرجاً ولا يلبس

قباء ولا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ، ولا يمشين بغير زنار من جلد ،
ولا يمشي الا مفروق الناصية ، ولا يوجد في بيت نصراني سلاح الا أخذ ،
سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ٩٩)

السهم : عرف العرب كثيراً من انواع السلاح فاستعملوا الترس وهو
الجن وعليه تدور الدوائر ، والرمح ويسمونه رشاء المنية ، والنبل ويقولون عنها
انها رسل لا تؤرم ومنايا تخطى وتصيب ، والسيف وهو ظل الموت ، والقوس
والسكناة ، والسهم . (العقد القريد ج ١ ص ٩٠-٩٣) والرمح وهو طبقات
فمنها المخلط وهو الذي يضطرب في يد صاحبه لا فراط طوله ولا يحمله الا القوي
الساعد الشديد العضل والذيزك وهو اقصر الرماح ، والمربع والخموس والتام .
وقد اعتنى العرب بسلاحهم لانهم أمروا ديناً ان يذودوا عن حوزهم
بسلاحهم وان يحافظوا على استقلالهم وكيان اوطانهم فقال الرسول (ص)
(اركبوا وارموا ، وان ترموا أحب الي من ان تركبوا) ، وروى عقبة بن عامر
قال : « سمعت رسول الله « ص » يقول وهو قائم على المنبر - واعدوا لهم
ما استطعتم من قوة ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة
الرمي . » (العقد القريد ج ١ ص ٩٤) .

وتطورت الاسلحة منذ عهد الجاهلية الى زمن الامويين فاقبس العرب

انواعاً عديدة من الاسلحة الحربية كالجانيق والرتيلة والعراوة والرمي بالنجكان
والزرق بالنفط والنيران. وراحوا يتعلمون الفنون والاساليب العسكرية الفارسية
فقسموا جيوشهم الى فرق عرفت بالميمنة والميسرة والقلب والجناح والطليعة
والسكين . ونظموا ثيابهم وامتعتهم واجهزتهم ، فأخذوا عنهم السراويلات
والاقيية والطبول والبندود والخود والاعلام . ولدينا وثيقة تاريخية تثبت لنا
ان العرب اقتبسوا بعض هذه الفنون عن الفرس . قال احد الاعاجم يفتخر
على العرب في هذا المعنى : « انما كانت رماحكم من مران وأستكم من قرون
البقر ، وكنتم تركبون الخيل في الحرب اعراء ، فان كان الفرس ذا سرج فسرجه
رحالة من ادم ، ولم يكن ذا ركاب ، والركاب من أجود آلات الطاعن برمحه
والضارب بسيفه ، وربما قام فيهما أو اعتمد عليهما ، وكان فارسكم يطعن
بالقناة الصماء ، وقد علمنا ان الجوفاء أخف محملاً واشد طعنة . وتفخرون بطول
القناة ولا تعرفون الطعن بالمطارد . وانما القنا الطوال للرجالة والقصار للفرسان
والمطارد لصيد الوحش .. ولا تعرفون البيات ولا السكين ولا الميمنة ولا الميسرة
ولا القلب ولا الجناح ولا الساقة ولا الطليعة ولا النفاضة ولا الدراجة ، ولا
تعرفون من آلة الحرب الرتيلة ولا العراوة ، ولا الجانيق ولا الدباب ، ولا الخنادق
ولا الحسك ، ولا تعرفون الاقيية ولا السراويلات ولا تعليق السيوف ولا

الظبول ولا البنود والتخفاف ولا الجواشن ولا الخود ولا السواعد ولا الاجراس
ولا الوهق والرمي بالنجحكان ولا الزرق بالنقط ولا النيران ، وليس لكم في
الحرب صاحب علم يرجع اليه المنعاز ويتذكره المنهزم ، وقتالكم ايما سلة واما
من السيف ، والمزاحمة على مواعد متقدمة ، والسلة مسارقة وفي طريق الاستلاب
والخلسة . البيان والقبين ج ٣ ص ٧ - ٨ «

السباق : أقام الخلفاء الامويون حفلات جليلة للسباق . وكاوا يعدون
الخيول وروغونها ويستجلبونها من البلاد البعيدة . وكان يشترك في بعض
الحفلات الملومون والغواة من جميع اقطار المملكة . وقد تعلم الحكومة عن
ميعاد السباق وتنشر اخباره فبذل الناس الاموال في سبيل الحصول على الجوائز
والمناخنة بخيولهم المحلية والمصلية . ويروي لنا المؤرخون ان بعض الخلفاء
كانوا يقتنون الخيول للسبق فقال ابن عبدربه : « وكان هشام بن عبد الملك
رجلاً مسبقاً لا يكاد يسبق فسبق له فرسٌ انثى وصلت اختها ففرح لذلك
فرحاً شديداً . العقد الفريد ج ١ ص ٨٤ » واشهر منهم الفرسان الابطال
كالوليد بن يزيد . قال الجاحظ : « كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى
اذن فرسه اليسرى ثم يجمع جراميزه - جرمن الرجل اتقبض واجتمع بعضه
الى بعض - ويثب . فكأنما خلق على ظهر فرسه . وفعل مثل ذلك

الوليد بن يزيد وهو يومئذ ولي عهد هشام . البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠ « وبذلت الحكومة الاموال لتشجيع السباق حتى يكون غيظاً للعدو . ذكروا ان سليمان بن عبد الملك « أمر اهل مملكته ان يقودوا الخيل بسبق بينهم ، فمات من قبل ان تجري الحلبة . فلما ولي عمر بن عبد العزيز أبى ان يجربها فقيل له يا امير المؤمنين تكاف الناس مؤونات عظاماً وقادوها من بلاد بعيدة وفي ذا غيظ للعدو ، فلم يزالوا يكلمونه حتى أجرى الحلبة واعطى الذين سبقوا . ولم ينجب الذين لم يسبقوا . اعطاهم دون ذلك . سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٦ »

الزواج : اتبع الامويون كتاب الله وسنة رسوله في زواجهم فما غالوا في اثمان المهر ولا طلبوا من الزوج شروطاً قاسية ان كان صحيح البدن عفيفاً نزيهاً . وكانوا يعتقدون ان المتزوج استعداداً بالاً واهناً عيشاً من العازب لاسيما ان شاركته زوجته في بؤسه وسعاده وراحه وافراره . اما المرأة الجميلة المطيعة النظيفة المقتصدة الكريمة الاصل الشريفة المحتد فهي الجوهرة المكنونة التي لا تقدر بثمن . قال ابن القريّة الخطيب المشهور يعدد صفات الزوجة الطيبة : (.....) وجدت اسعد الناس في الدنيا واقربهم عيناً واحبيهم عيشاً وابقاهم سروراً وادخاهم بالاً واشبههم شباباً من رزقه الله زوجة مسلة امينة عفيفة حسنة

لطيفة نظيفة مطيعة . ان ائتمها زوجها وجدها أمينة ، وان قتر عليها وجدها
قائعة ، وان غاب عنها كانت له حافظة ، تجد زوجها ابداً ناعماً وجارها سالماً
ومملوكها آمناً وصبيها طاهراً . قد ستر حلمها جهلها ، وزين دينها عقلها . . .
قوامه صوامه ضاحكة بسامة . ان أسرت شكرت وان أعسرت صبرت . . .
وانما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف يحجره في الارض
جراً . فبعلها مشغول وصبيها مرذول ، المحاسن والاضداد ص ١٦٠) . وقال
خالد بن صفوان : (اطلب لي زوجة ادبها الغنى ، وذللها الفقر ، لاضرعة صغيرة
ولا عجوزاً كبيرة ، قد عاشت في نعمة . . . لها عقلٌ وافر وخلق طاهر وجمال
ظاهر . . . كريمة اختد رخيمة المنطق ، لم يداخلها صلف ، المحاسن
والاضداد ص ١٤٨) .

وكانت الاميرات الامويات خاضعات لجميع الاحكام الاسلامية فهن
عرضة للطلاق ولاحتمال الضرائر . خطب محمد بن الوليد بن عتبة الى عمر بن
عبد العزيز أخته فقال : (. . . أحسن بك ظناً من اودعك حرمة واختارك
ولم يختار عليك . وقد زوجناك على ما في كتاب الله في امساك بمعروف
او تسريح بأحسان . البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٥)
الموت والدفن : لا يلزم تماماً مراسم الدفن حين الموت ولكن يغلب على

ظننا انها لم تتغير عما هي عليه اليوم . ولم نعتز على وصف لها فيما قرأنا من المصادر التاريخية ، انما ذكر الجاحظ كيفية دفن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز فقال انهم سمووا عليه قبره بالأرض وجعلوا على ضريحه خشبتين من زيتون احدهما عند رأسه والاخرى عند رجليه . ثم قام والده يؤنبه ويطلب له الرحمة والمغفرة ويشهد الناس على رضائه بما اقسم له الله . قال في معرض رثائه له : « رحمك الله يا بني فقد كنت براً بأبيك وما زلت منذ وهبك الله لي بك مسروراً ، ولا والله ما كنت قط مسروراً بك ولا ارجى لحظي من الله فيك منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله اليه . ففقر الله لك ذنبك وجازاك بأحسن عملك وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير من مشاهد وغائب ، رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره فالحمد لله رب العالمين ، البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٢ ، راجع س ٢٦٤ فما بعدها من سيرة عمر بن عبد العزيز) . واخذ الناس بعد تشييع جنازته يعزونه ويرجون له الصبر والسلوان . وكانت النساء ذوات المصائب تنزاحم في الجنائز لتوديع راحلن العزيز . فقال الاصفهاني في كتاب الاغاني : (انه غلب النساء على جنازة كثير عزة الشاعر ييكينه ويذكرن عزة في نديتهن له في المدينة حتى جعلنا ندفع عن جنازته النساء ج ٨ ص ٤١) . وكنَّ يقمن المناحات ويضربن صدورهن بالنعال

حزناً على فقيدهم . (البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٨)

وقال المقدسي ان الناس كانوا يمشون خلف الجنائز ويخرجون الى المقابر
لحتم القرآن ثلاثة ايام اذا مات ميت . (ص ١٨٣) ولا تزال هذه العادة
شائعة في بيروت موطني .

اعيادهم : وكان الامويون يقيمون الافراح والليالي التلاح في عيدي
القطر والاضحى وعيد المولد النبوي . وتعارفوا اعياد النصارى وقدروا بها
الفصول فقالوا ان الفصح وقت النيردز ، والعنصرة وقت الجر ، والميلاد وقت
البرد ، وعيد بريرة وقت الامطار ، وعيد الصليب وقت قطاف العنب . ومن
امثال الناس في ذلك : (اذا جاء عيد بريرة فليخذ البناء زمارة يعني فليجلس
في البيت) ، (واذا جاء القلندس فتدفى واحتبس) ، « المقدسي ص ١٨٢ - ١٨٣ »
شهورهم : اما الشهور المعروفة بينهم فكانت الرومية وهي كانون الثاني ،

شباط الى آخر شهور السنة . واستعملت الحكومة الحساب الهجري الاملاحي .

ماكلهم المميز : ومن ماكلهم الخبوبة التي تراها في الاسواق خصوصاً

في الشام فهي اولا القول المنبوت بالزيت والمصقوق وهو يباع مع الزيتون .

ثانياً : الترمس المملح ويكسثرون من اكله . ثالثاً الزلاية وتصنع من العجين

وهي غير مشبكة . رابعاً الناطف ويصنع من الخرنوب ويسمونه القبيط .
صرفهم: ولو زرت اسواق الامويين في الشام لوجدت ان اكثر الصباغين
 والصارفة والدباغين من اليهود ، واكثر الاطباء والكتبة من النصارى ،
 ومعظم الموظفين وارباب المناصب واصحاب الاملاك والمزارعين ورجال
 الحرب من المسلمين .



الفصل التاسع

الادب الاهوي

(١) الاصويون يهابونه الشعراء ويتقربونهم منزعجهم ، الشعراء

في العصر الاموي ، جبري ، الاخطل ، الفرزدق ، نصيب الاسود ،
كثيرة عزة ،

(٢) ارباب الفن من المغنين والمغنيات ، العرب تحب القنأ وشهواه ،
النوع القنأ ، معاوية الاول يسمع حكمة الشعر مع حكمة الالحان ، سارة :
القص ، طويس المني .

(٣) مجالس السمر والانس التي عقدها الخلفاء الامويون ، ابلي
الافلية عذر معاوية الاول ' ابلي نفسه معاوية شعر نورية الخنابى بها ،
عزة عسبة كثير تحضر مجالس عبد الملك كثير يقرم على عبد الملك
ايضا ، الشعراء يجتمعون بباب القواد والوفوة الامويين . الخلم بن
عبدل الاسدي عند الخجاج .

إذا اردنا ان تكون لنا صورة حية تمثل الادب ومناحيه في العصر الاموي قلندرسه اولاً في حياة الشعراء الذين كانت لهم صلة قوية وعلاقات متينة في مجاري السياسة الأموية ، وبلاط الخلفاء ، وقصور ولاتهم وامرائهم في الاقطار العربية المختلفة . ثانياً في حياة ارباب الفن من المغنين والمغنيات ، اولئك الذين كانت لهم اليد الطولى في احياء فن الغناء والموسيقى . ثالثاً في مجالس السمر والانس التي كان يعقدها الخلفاء . وارباب النفوذ من رجال الدولة من وقت لآخر . اننا لو تتبعنا هذه المصادر الثلاث لرأينا ان الادب اخذ نوعاً ما يتخلص من جاهليته فلم يعد ليسرف في وصف حياة البداوة بل جعل يتطرق الى وصف المدنية البيزنطية الجديدة التي جعل الأمويون يجدون في اقتباس اسبابها .

(١) الشعراء والامويون : علم الامويون حق العلم انه لا بد لهم من جماعات يثبتون دعوتهم ويثبتون اقدامهم في نزاعهم المشهور مع الاحزاب المعارضة لهم كالعلويين والزيديين والخوارج وغيرهم . فاعتمدوا في ذلك على بعض الشعراء المعروفين كجبريل والاخلطل . والقرزدي . وجعلوا يتقربون من خصومهم الادباء فوصلوهم بالجوائز واعقدوا عليهم النعم ليقطعوا سنتهم ويضموهم الى صفوفهم . فيسبحون بحمدهم ويتقنون بكرمهم بدلا من ان ينشروا عيوبهم وفضائحهم في علول البلاد وعرضها .

لودرست شعر جرير والفرزدق والاخلط وغيرهم من شعراء العصر
الاموي لوضحت لديك حقيقة جليلة وهي ان معظم منظوماتهم قيلت اما
في الفخر واما في المدح والهجاء واما في النسيب . وقد برز جرير في كل
من هذه الابواب . وكان هواه في آكل الزبير ، فاستقدمه الحجاج واكرم
وفادته واستماله باحسانه فمدحه بقصائد عدة . ثم وفد جرير الى عبد الملك
فأنشده القصيدة المشهورة في مدح بني امية . قال منها :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحٍ
ويروي ان عبد الملك اثابه عليها مائة وثمانية من الرعاء ، (طبقات الشعراء
ص ١٠٠ - ١٠١) . ويمتاز شعر جرير بسهولة الفاظه . وكان اقلهم
تكلفاً وارقهم نسيباً . (الاغاني ج ٧ ص ٣٦)

وهجا الفرزدق نحواً من اربعين سنة . ولم يتهاج شاعران في الجاهلية ولا
الاسلام بمثل ما تهاجيا به واذا احببت ان تتعرف الى شيء من هذا الهجاء
فعليك بقرأة اشعارهما في ديوانهما وكتب العرب الادبية المشحونة بأخبارهما
كالاغاني وطبقات الشعراء والشعر وغيرها . ولم يتعرض له احد
في هجو - ونستثني الفرزدق والاخلط - الا افتضح امامه وسقط .

قال الاصمعي : • كان ينهشه ثلاثة واربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً • (الاغانى ج ٧ ص ٣٧) ، وقد غاش نيقا على ثمانين سنة • ويكنى بابي حزره •

وروى الناس الابيات المقلدة للشعراء الامويين . والمقلد هو البيت المستغنى بنفسه المشهور الذي يضرب به المثل . وهالك بعض الابيات المقلدة التي قالها جرير :

١. زعم الفرزدق ان سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع
 ٢. واني لعف الفقر مشترك الغنى سريع اذا لم ارض دارى انتقالي
 ٣. يحالهم فقر قديم وذلة وبئس الخليلطان المذلة والقمر
 ٤. دعون الهوى ثم ارمين قلوبنا بأنسهم اعداء وهن صديق
 ٥. او انس اما من اردن عثاة فغان ومن اطلقن فهو طليق
 ٦. ان الذين غدوا بلبال غادروا وشلاً بعينك ما يزال معينا
 ٧. غبضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقيتنا
 ٨. تريدن أن ارضى وانت بجيلة ومن ذا الذي يرضى الاخلاء بالبحل
 ٩. بنفسى من تجنبه عزيز علي ومن زيارته لمام
 - ومن أمسى واصبح لا اراه وبطرقني اذا هجع النيام
- (طبعات الشعراء ص ٩٧ - ١٠٠)

وله في الهجاء :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وقال في الفخر :

اذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وقال في النسب :

ان العميون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يحين قتلانا

اما الاخطل فكان شاعر الامويين . وقد اختصهم بمدحه فرفع ذكرهم

بقصائده الخالدة ، ووصف كرمهم وحلهم وعفوهم ، وذم اعداءهم السياسيين

فهجاهم هجاء مريراً . فتألم بعض الانصار منه وشكوه الى معاوية الاول فدافع

عنه يزيد بن معاوية دفاعاً قوياً فلم ينله اذى . والحقيقة ان الاخطل لم يجزأ

على الانصار الا بعد ان وعده يزيد بالنصرة والحماية .

وكان الاخطل مسيحياً تغليباً من اهل الحيرة ، واسمه غياث بن غوث

ويكنى ابا مالك . واشتهر بمحبته للخمرة . وكان لا يجيد النظم الا اذا شربها .

وتساهل الخلفاء معه فأذنوا له ان يحضر مجالسهم وهو سكران وعلى صدره

صليب من ذهب . قال ابو الفرج الاصبهاني : « كان الاخطل يجيء ، وعليه جبة خز ، وحرز خز ، في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهيب ، تنفض لحينه خماً حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن . الاغاني ج ٧ ص ١٦٩ »

وقد اكد لنا ابو الفرج ايضاً انه بلغ من تساهل الامويين معه واعجابهم به انهم اذنوا له ان يشرب الخمر في البلاط فقال : « دخل الاخطل على عبد الملك بن مروان فاستنشدته فقال قد يبس حلقي فمر من يستقيني ، فقال اسقوه ماء ، فقال شراب الحمار وهو عندنا كثير ، قال فاسقوه لبناً ، قال عن اللبن فطمت ، قال فاسقوه عسلاً ، قال شراب المريض ، قال فتريد ماذا ، قال خمر يا امير المؤمنين قال او عهدتني اسقي الخمر لا ام لك ، لولا حرمتك بنا لعلت بك وفعلت ، فخرج فلقني فراشاً لعبد الملك فقال ويلك ان امير المؤمنين استنشدني وقد صحل صوتي ، فاسقني شربة خمر فقال اعدله بأخر فسقاه آخر ... اسقني ثالثاً فسقاه ثالثاً ... فدخل على عبد الملك فانشده ، ثم التى عليه من الخلع ما يغمره ، واحسن جائزته ، وقال ان لكل قوم شاعراً ، وان شاعر بني امية الاخطل ، الاغاني

ج ٧ ص ١٦٩ »

وكاز الاخطل مع ادمانه للخمرة متعصباً لدينه يخاف جماعة الاكليروس ويرهب قصاصهم . وطالما انزلوا به عقوبتهم لتشبيبه وغزله بالجميلات من بنات

العاثلات ربات الخـ دور ، ولهجوه بعض المتنفذين ممن يكرهه او يضرهم
 العداء . قال اسحاق بن عبد الله : « خرجت الى دمشق انظر الى بنائها فاذا
 كنيسة واذا الاخلل في ناحيتها . . . فقال . . . ان لك موضعاً وشرفاً وان
 الاسقف قد حبسني فانا احب ان تأتية تسكمه في اطلاق . . . قلت نعم ،
 فذهبت الى الاسقف وانتسبت اليه ، فكلمته وطلبت اليه في تخليته فقال
 مهلاً اعينك بالله ان تسكلم في مثل هذا فان لك موضعاً وشرفاً ، وهذا ظالم
 يشتم اعراض الناس ويهجوهم ، فلم ازل به حتى قام معي فدخل الكنيسة فجعل
 يوعده ويرفع عليه العصا والاخلل يتضرع اليه وهو يقول له ا تعود آت ودفيعوا
 لا . . . فقلت له يا ابا ملاءك ، تهابك الملوك وتكرمك الخلفاء ، وذكرك
 في الناس عظيم أمره قال : انه الدين انه الدين ، طبقات الشعراء ص ١١٤ ،
 وروى ابو الفرج بأسناده : « رأيت الاخلل بالجزيرة ، وقد شكي الى القس
 وقد أخذ بلحيته ، وضربه بعصاه ، وهو يصي كما يصي القرح ، فقلت له ابن
 هذا مما كنت فيه بالكوفة . فقال يا ابن اخي اذا جاء الدين ذلانا ، الاغني
 ج ٧ ص ١٧١ »

اما اشهر القصائد التي قالها في مدح بني امية فأهمها ما انشدهم في حضرة
 عبد الملك بن مروان : قال من قصيدة اماءه :

حشد على الحق عيافو الخنا أنف
إذا ألت بهم مكروهه صبروا

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
واعظم الناس اجلاماً اذا قبروا
بني أمية نعاكم بحلة
تمت فلامنة فيها ولا كدر

وقال يمدح يزيد الاول :

وترى عليه اذا العيون شترت به
سما الحليم وهية الجبار
والطف ماقرأت من ابياته المقلدة قوله :

وإذا افتقرت الى الذخائر لم تجد
ذخراً يكون كصالح الاعمال

واستبال الامويون الفرزدق ، وكان يهوى هوى العلويين . وهو شاعر
تميم ، وقد ولد في البصرة في اواخر خلافة عمر بن الخطاب . واستعان الناس
به على هجاء اعدائهم فأمر زياد بن ابيه بالقاء القيص عليه ، فهرب الى المدينة
والثجا الى سعيد بن العاص حاكمها على عهد معاوية الاول فأجاره وأمنه . ويقول
المؤرخون انه رعى الغنم وهو صغير ، ثم انغمس في شهواته وتهتك وهو كبير
حتى ان زوجته النوار بنت اعين طلبت طلاقه ونازعت مراراً . اما شعره فقد
امتاز بفخامته ، وجزالته ولم يكن الفرزدق سمح الكلام سهل الغزل . وهو اكثر
الشعراء الامويين بيتاً مقلداً فمن ذلك قوله —

١ وكنا اذا الجبار صعر خده
ضر بناه حتى تستقيم الاخادع

- ٢ ترجى ربيع ان تجي صغارها بخير وقد أعيار بيعاً كبارها
 ٣ وانك اذ تسعي لتدرك دارها لأنك المعنى يا جرير المكلف
 ٤ ترى كل مظلوم اليها فراره ويهرب منا جهده كل ظالم
 ٥ ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا وان نحن اومأنا الى الناس وقفوا
 (طبقات الشعراء ص ٨٤)

وقال يمدح سليمان بقوله :

- وكم اطلقت كفالك من قيد بائس ومن عقدة ما كان يرجي انحلالها
 وقال قصيدته المشهورة في مدح علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب :
 هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
 هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم
 إذا رآته قریش قال قائلها الى مكارم هذا ينتهي الكرم
 يغضي حياءً ويغضي من مهابته فما يكلم الا حين يبشم
 من معشر حبههم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
 ان عد اهل التقي كانوا ائمتهم أوقيل من خير اهل الأرض قيل هم
 ومقدم بعد ذكر الله ذكركم في كل بدء ومختوم به السكلم
 من يعرف الله يعرف أولوية ذا فالدين من بيت هذا ناله الأمم

وقام نصيب الشاعر الاسود بمدح بني امية خصوصاً عبدالعزيز بن مروان والخليفة هشام بن عبد الملك . وكان مقدماً في النسيب والمديح . غير انه لم يكن له حظ في الهجاء ، (الاغاني ج ١ ص ١٢٥) . روى نصيب تاريخ حياته فقال : (قلت الشعر وأنا شاب فأعجبني قولي فجعلت آتي مشيخة من بني ضمرة ، ومشيخة من خزاعة ، فأثد هم القصيدة من شعري ثم أنسبها الى بعض شعرائهم الماضين فيقولون أحسن والله هكذا يكون الكلام ، وهكذا يكون الشعر ، فلما سمعت ذلك منهم علمت اني محسن فأزعموا وأزمت انخر وج الى عبد العزيز بن مروان وهو يومئذ بمصر فقدمت مصر وبها عبد العزيز فحضرت بابه مع الناس ، فتنحيت عن مجلس الوجوه ، ثم دعي بي فدخلت على عبدالعزيز فسلمت فصعد بي بصره وصوب . ثم قال انت شاعر ويالك ، قلت نعم ايها الامير ، فأنشدته فأعجبه شعري ، (الاغاني ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٨) .

وقد احبه عبد العزيز فابتاعه ثم اعتقه ، وأجاد نصيب الرثاء حتى ان هشام بن عبد الملك كان اذا قدم عليه اخلى له مجلسه واستنشدته مرثي في بني امية فاذا أنشدته بكى وبكى معه ، ويذكر ابو الفرج انه اذا سدت على نصيب ابواب الشعر ، ولم تنجده قريحته أمر برحلة فشد بها رحله ثم سار في الشعاب

الخالية فطرب لذلك وفتح له ، (الاغاني ج ١ ص ١٤١) .

وأجل ما يروي لنصيب من الشعر وصفه لحياة العاشقين قال :

وهت لها كـيما تمر لعلي اخالسها التسليم ان لم تسلم
ولم رأيتني والوشاة تحدت مدامها خوفاً ولم تتكلم
مساكين أهل العشق ما كنت اشترى جميع حياة العاشقين بدرهم
وقال يمدح هشام بن عبد الملك :

إذا استبق الناس الغلابية بينهم يمينك عفواً ثم صلت شمالها
وكان من اشد الشعراء تعصباً للبيت العلوي 'كثير غزوة ، وقد غالى في
التشيع وذهب مذهب الكيسانية وقال بالرجعة والتناسخ ، وصرح بمنهجه
هذا على رؤوس الاشهاد ، وجادل فيه خصومه ، ومع ذلك فلم يضطهده
الأمويون بل عاملوه بالحنس واحترموه وأجلوه حتى لا ينالهم أذاه ، ويقول الرواة انه
كان ذميم الخلقة ، قصير القامة ، معجباً بنفسه فيه خطل ، ذكر ذلك ابو
الهرج الاصفهاني فقال : (رأيت كثير يطوف بالبيت من حديثك انه يزيد
على ثلاثة اشبار فكذبته ، وكان اذا دخل على عبدالعزيز بن مروان يقول
طأطني رأسك لا يصبه السقف ، وهو ذميم ، الاغاني ج ٨ ص ٢٥ - ٣٢)
واخرج عبد الملك شعر كثير الى مؤدب ولده ليرويهما اياه ، يدلنا هذا

على إعجاب عبد الملك بشاعريته وإن اختلف معه في المبادئ السياسية .
وعرف كثير بحبه لعزة الضمرية وهي ابنة حميد بن وقاص . وقد نسب
إليه كثير من الشعر بهذا المعنى . ونحن لا نعلم من متحله من صحيحه غير أننا
نترك ذلك لأهل الاختصاص في الآداب العربية . وكانت عزة فتاة جميلة
فتانة . رآها مرة تسير مع بعض النسوة فأحبها وأحبته ، وهواها وهوته ،
ففاضت قريحته بأرق الشعر في وصفها والتحنان إليها . وقد روى أبو الفرج
كيفية حب كثير لعزة فقال : « وكان أول عشق كثير عزة أن كثيراً
مر بنسوة من بني ضمرة ومعه جلب غنم فارسلن إليه عزة وهي صغيرة فقالت
يقلن لك النسوة بعنا كبشاً من هذا الغنم وانسئنا بئمه إلى أن ترجع فاعطاها كبشاً
واعجبته ، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدراهمه . فقال وابن الصبية التي أخذت
مني الكبش ، قالت وما تصنع بها هذه دراهمك ، قال لا أخذ دراهمي إلا ممن
دفعت الكبش إليها وخرج وهو يقول :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطولٌ معنى غريمها
« . . . ويقال أنها دلته على الماء حينما أراد أن يسقي غنمه . . . ثم أحبته

عزة بعد ذلك أشد من حبه إياها . الاغاني ج ٨ ص ٣٤ - ٣٥ »
ووصفت إحدى النساء المعاصرات جلال عزة فقالت : « اجتمعت جماعة

من نساء الحاضر انا فيهن ، فجئنا عزة ، فرأينا امرأة حلوة حياء نظيفة . . .
ومعها نسوة كلهن لها عليهن فضل من الجمال والخلق ، الى ان تحدثت ساعة
فاذا هي اربع النسوة ، واحلاهن حديثاً ، فما فارقتها الا ولها علينا الفضل في
اعيننا ، وما نرى في الدنيا امرأة تروقها جمالا وحسناً وحلاوة . الاغاني ج ٨

« ص ٣٧ »

ولما مات كثير في المدينة بكاه الناس ، وندبته النساء ندباً شديداً .
واليك ارق شعر كثير في عزة :
فقلت لها يا عز كل مصيبة اذا وطئت يوماً لها النفس ذلت
ولم يلق انسان من الحب ميعه تعم ولا غماء الاتجلت
كأنني انا دى صخرة حين اعرضت من الصم لو تمشي بها العُصم زلت
صفوحاً فما تلقاك الا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت
ولكثير فيها :

وقد زعمت اني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
تغير جسمي والخليقة كالتي عهدت ولم يخبر بسرك مخبر
(البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٩)

(٢) ارباب الفن من المغنين والمغنيات :

أحب العرب منذ القدم سماع الانغام الشجية التي تهز النفوس وتحرك
 المشاعر وتوأسى القلوب الجريحة ، وولعوا ولعاً خاصاً بالأغاني المطربة التي تلهو بها
 الارواح وترتاح لها الافئدة . نستشهد على ذلك بما رواه صاحب « محاضرات
 الادباء ومحاورات الشعراء » فقال باسناده انه سئل بعضهم عن اجود الغناء
 فأجاب : « ما اطربك والهالك أو احزنك واشجأك » . ص ٢٣٥ . وقال ابن عبد
 ربه : « صناعة الغناء ، مراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى
 ومسلة السكيب وأنس الوحيد وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحنن من
 القلب وأخذ به بجماع النفس . العقد القريدج ٤ ص ٨٨ » وتود العرب
 ان يصغي الحضور الى المغنين اذا بدأوا بالغناء . وانه لمن سوء الادب عندهم
 ان يتكلم المرء بينما المغنون ينشدون . قال الشاعر :

لو كان لي أمرٌ قضيت قضية ان الحديث مع الغناء حرامٌ

اما الغناء عند العرب فكان على ثلاثة اوجه ، النصب ، والسناد ، والمزج .
 فاما النصب فغناء الركبان والقيينات ، واما السناد فالثقليل الترجيع الكثير
 النغمات . واما المزج فاختفيف كله ، وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم .
 وكانت هذه الالوجه من الغناء ظاهرة فاشية في المدينة والطائف وخيبر ووادي
 القرى ودومة الجندل واليمامة . وذلك لانها مجامع اسواق العرب (العقد القريد
 ج ٤ ص ١٠٤)

لم يشجع الاسلام الفنون عموماً في اول عهده لتغلب النزعة الدينية على الخلفاء الراشدين ولا نهما كهم في تثبيت دعائم دولتهم ، وانشغالهم في الفتوح ، ولعزلة الحجاز عن الشام وفارس نوعاً . فلما جاءت الدولة الاموية وقامت في دمشق اخذت تشجع الغناء والموسيقى . وقد عقد الخلفاء مجالس خاصة لسماع اشهر المغنين في عصرهم . وكانوا ينشدونهم الابيات موقعة على الالحان فيطربون . ذكر المؤرخون ان معاوية الاول كان يهوى سماع حكمة الشعر تصدر مع حكمة الالحان فرروا انه : « اعدَّ عبد الله بن جعفر طعاماً لمعاوية ودعاه الى منزله واحضر ابن صياد للمغني ، ثم تقدم اليه يقول اذا رأيت معاوية واضعاً يده في الطعام فحرك اوتارك وغن . فلما وضع معاوية يده في الطعام حرك ابن صياد اوتاره وغنى بشعر عدي بن زيد وكان معاوية يعجب به :

يا ليني اوقدى النارا	ان من تهوين قد حارا
رُب نارٍ بُ ارمقها	تقضم الهندى والغارا
ولها ظلي يؤججها	عاقده في الخضر زئارا

... فأعجب معاوية غناؤه حتى قبض يده عن الطعام وجعل يضرب

برجله الارض طرباً ، فقال عبدالله بن جعفر يا امير المؤمنين اتما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الالحان فهل ترى به بأساً . قال لا بأس بحكمة

الشعر مع حكمة الالحان . العقد الفريد ج ٤ ص ٩٨) . ويدكرون ان
بديع المعنى غناه شعراً في فتاة كانت تتولى خضابه فقال :

أليسَ عندك شكرٌ للتي جعلت ما ابيض من قادات الشعر كالحم
وجددت منك ما قد كان اخلفه صرف الزمان وطول الدهر والقدم
فطرب معاوية طرباً شديداً وقال ... كل كريم طروب . العقد الفريد

ج ٤ ص ٩٩ » .

اما اشهر المغنيات في العصر الاموي فكانت سلامة القس . وهي مولدة
من مولدات المدينة . وقد اخذت اصول الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة
فهرت ، واصبحت يشار اليها بالبنان . وسميت سلامة القس لأن عبد الرحمن
بن ابي عمار الجشمي ، اخذ قراء المدينة شغف بها . وكان يلقب بالقس لثقاه
ويورعه ، فغلب عليها لقبه . واشتراها يزيد الثاني بن عبد الملك حينما وفد الى
المدينة في خلافة سليمان فقتن بها . والحقيقة ان اهل المدينة ودعواها وداعاً
حافلاً لما ارادت الرحيل الى البلاط الاموي في دمشق . قال ابو الفرج يصف
هذا الوداع المؤثر : « قدمت رسل يزيد بن عبد الملك المدينة فاشترؤا سلامة
المغنية من آل رمانة بعشرين الف دينار ، فلما خرجت من ملك اهلها طلبوا
الى الرسل ان يتركوها عندهم اياماً ليجهزوها بما يشبهن من حلي وثياب وطيب . .

فقلت لهم الرسل هذا كله معنا ٠٠٠ وشيعها الخلق من اهل المدينة ٠٠٠
وأذن للناس عليها فانتصوا حتى ملؤوا رجة القصر ٠٠٠ فوقت بينهم ومعها
العود فغنتهم القصيدة التي مطلعها :

فارقوني وقد علمت يقيناً مالم ن ذاق ميتة أمن ايب

فلم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت ، وانتحب الناس بالبكاء عند
ركوبها ، فما شئت ان ارى با كياً الا رأيتة . (الاغاني ج ٨ ص ١٠) .

واذا قلنا ان سلامة كانت نجمة متألقة في سماء الفن في الحجاز والشام
فلا نكون مبالغين . ودليلنا على ذلك ان الشعب كان يحبها حباً جاً ويهوى
سماع غنائها ، وكانت تمتاز بجمالها ورخامة صوتها وحسن شعرها .

وعرف طويس الغني مولى بني مخزوم بجودة غنائها . و«طويس» لقب
غلب عليه . واسمه عيسى بن عبد الله . وكان يحيد النقر على الدف ، عالماً
بأحوال المدينة وانساب اهلها . والغريب من امره انه كان يهوى كيد سكان
يثرب فطلب عثراتهم وفضائحهم لينشرها بين الناس فخافوه واكرموه .
ويقال ان ولادة الامويين ودوا مجالسته والاستماع لانشاده وحديثه خصوصاً
ابان بن عثمان حاكم المدينة على عهد عبد الملك بن مروان ، ووصفه ابو
الفرج باسناده فقال : (كان مفرطاً في طوله مضطرباً في خلته أحوالاً ، الاغاني

ج ١ ص ١٦٥ - ١٦٦) :

وقد توفي في خلافة الوليد الأزل .

(٣) مجالس السمر عند الخلفاء والولاة : عقد الخلفاء الامويون مجالس ادبية خاصة لاهلهم واصدقائهم حضرها نخبة من فحول الشعراء والادباء وطائفة من الشواعر المجليات . وكانت هذه المجالس عارية عن الشراب والغناء تتجلى فيها روح الخلفاء ومداعباتهم وآراهم في الادب وأهله . حضرت لبلى الاخيلية مجلس معاوية الاول . وهي من النساء المتقدمات في الشعر وكان توبة الخلفاء يحبها ويهواها ويتغزل بها ، فسألها معاوية عن توبة فقال ويحك يا لبلى أ كما يقول الناس كان توبة قالت : (يا امير المؤمنين ليس كما يقول الناس حقا ، والناس شجرة بغي يحسدون أهل النعم حيث كانت وعلى من كانت ، ولقد كان يا امير المؤمنين سبط البنان حديد اللسان شجا للاقران ، كريم المحتبر دقيفا جميل المنظر . الاغاني ج ١٠ ص ٧٤) .

قال توبة في لبلى وكانت تحفظ ذلك وتنشده :

وهل تبكين لبلى اذا مات قبلها	وقام على قبرى النساء النوائح
كألو اصاب الموت لبلى بكيتها	وجد لها دمع من العين سافح
واغبط من لبلى بما لا أناله	بلى كل ماقرت به العين طامح
ولو ان لبلى الاخيلية سلمت	علي ودوني جندل وصفائح

سلمت تسليم البشاشة او زقا اليها صدى من جانب القبر صائح
وله فيها :

حامة بطن الوادين ترني سقاك من الغر الغوادي مطيرها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعما ولازلت في خضراء غص نصيرها
وكنت اذا مازرت ليلي تبرقت فقد رابني منها الغداة سفورها
وقد رابني منها صدود رأيتہ واعراضها عن حاجتي وبورها
وأشرف بالقور الفاع لعلمي اري نار ليلي او يراني بصيرها
يقول رجال لا يضيرك نأيا بلى كل ماشف النفوس يضيرها
بلى قد يضير العين ان تكثر البكا ويمنع منها نومها وسورها
وقد زعمت ليلي باني فاجر لنفسي تقاها او عليها فجورها
وقال فيها :

عفا الله عنها هل ايتن ليلة من الدهر لا يسري الي خيالها
كذلك دخلت عزة صاحبة كثير على عبد الملك بن مروان فأنشدته
شعر كثير فيها . وضر كثير نفسه على عبد الملك بن مروان فقال عبد الملك
« أأنت كثير عزة قال نعم قال » ان تسمع بللعيدي خير من ان تراه . فقال
يا امير المؤمنين كل عند محله رحب القناء شامخ البناء عالي السناء وأنشده

القصيدۃ التي مظلّمها .

ترى الرجل النحيف فتزدریه وفي أثوابه أسدّه هَـصُور
فقال عبد الملك لله دره ما افصح لسانه واضبط جنانه واطول عنانه
(الامالي ج ١ ص ٤٨ - ٤٩) .

واجتمع الشعراء بباب الحجاج وغيره من القواد والولاة الامويين
السكبار فانشدوهم جيد الشعر . قال الحكم بن عبد الأسد بين يدي الحجاج :
واني لأستغني فما ابطرُ الغنى وأعرضُ يسوري لمن يتبغي عرضي
اكف الاذى عن اسرتي واذوده على انني اجزي المقارض بالقرض
وابذل معروفني وتصفو خليقتي اذا كدرت اخلاق كل فتى محض
واقضي على قهسي اذا الحق نابني وفي الناس من يقضى عليه ولا يقضي
وامنحه مالي وودي ونصرتي وان كان محني الضلوع على بغضي
ولست بذني وجهين فيمن عرفته ولا البخل فالعلم من سمائي ولا ارضي
(الامالي للثعالبي ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦) ٥ . ١

الفصل العاشر

سقوط الدولة الاموية

اللامزاج السياسية تجعل الدين ستاراً لمبادئها، مبدأ التقية،

النزاع بين الامويين واعدائهم . اسباب سقوط الدولة الاموية .

(١) الفرس يحركون الاعاجم والسبعة ضد بني امية . الحركة

الزيرية ، مبادؤها ، زيد بن علي بن الحسين ، اتحاد هذه الحركة ، الحركة

الجعفرية ، جعفر الطيار ، الحركة الاباضية . الاسلامية والصيغة الوثنية

الفارسية ، مبادئ الاباضيين ، الحركة العباسية ، الجمعيات السرية ، زعماء

العباسيين ، خراسان برطلة الثورة العباسية ، البرو باغفرة لتشر دعوتهم ،

ابو مسلم الخراساني ، الملوك والراية ، سياسة فرس نعد .

(٢) العصبة القبائلية تهدم صرح المملكة الاموية ، العصبة بين

الاضرية واليمانية ، الكرمانى ونصر بن سيار . العرب فى الديار

الفارسية يتناولون ، مقتل ابراهيم الاماسم زعيم العباسيين ، بيعته السفاح

في السكوفة ، العراق تخلع طاعة الامويين ، هزيمة مروان بن محمد
 في معركة الزاب . الثورة في سورية ، مقتل مروان الثاني في مصر ،
 (٣) الدعوة الفارسية العباسية ضد بني امية . الدعوة نشيطة متحركة ،
 أعمال الصيف في الامويين ، الشعراء يحرضون العباسيين على اعدام
 بني امية ، تفنن العباسيين في تعذيب الامويين ، مائدة السفاح الرهيبة ،
 مذبحة نهر ابي فطرس ،

(٤) ترك الخلفاء الامويين واسترثارهم ، اهتمامهم واجباتهم
 تجاه الامة ، يزيد الثاني ، يزيد الوالد المرمم ، مبابيه وسلامة عسيفقاه ،
 الوايلد الثاني ، اسراف الوايلد في امتقار المبادي الاسلامية ، استناده
 بالزنوفة ، شعره الجدير في الخمريات ، الوايلد باللهي ، سعدة وسلمي ،
 مجالس انس الوايلد ، الوايلد يفسر الجمانية عليه . يزيد الثالث يتقلب
 عليه ، يزيد الثالث يعرف بانافص ، ابراهيم بن الوايلد ، مروان الثاني
 يتقلب على الفوضى .

اثبتنا في الفصول التي سبقت ما قاله الامويون في توطيد دعائم ملكهم
 من انصار الاحزاب العلوية كالتوابين والخوارج ودعاة المختار ، تلك الاحزاب
 التي قام يدير دفعة سياستها زعماء غلبت عليهم المطامع الشخصية وتمكنت منهم
 الروح الاستقلالية فسعوا لان يجعلوا من مأساة الحسين سلماً يرتقون عليه
 الى المناصب السياسية . ولطالما ودوا لان يكون لهم من الدين ستار يخفون
 وراءه مذاهبهم الحقيقية . وقد فتك الامويون بهذه الاحزاب فتكا ذريعاً
 وأعملوا في رجالها السيف وتبعوا آثارهم ليفنئهم عن بكرة ابيهم ، فلم يتمكنوا
 من ذلك لا انتصار هؤلاء ، بمبدأ التقية . ويقول هذا المبدأ بجواز الاستخفاء .
 وكتمان ما تكنه الصدور من العقائد ان كان عليهم من حرج او بأس او ضرر .
 ثم ظهر هذا النزاع بين الامويين والشيعة العلوية على اختلاف فرقها بمظهر
 شديد رهيب في اواخر القرن الاول للهجرة . وقد كان المحرك الاعظم له
 جماعات الاعاجم من الفرس ، اولئك الذين حققوا على بني امية استمساكهم
 بروح العصية العربية ، واحتكارهم المراكز السياسية للنبلاء العرب ،
 واحتقارهم للموالي والدخلاء على العربية . ولا غرابة في ان يكون هذا النزاع
 خطيراً لان الفرس رموا من وراءه استرجاع ما فتدوه من السطوة والسلطان

بعد زوال دولتهم وتقلص ظلها . فساعدوا الشيع التي قامت تطلب الخلافة لآل البيت ونحوا بأموالهم وانقسم لهم لانهاضها وتقويتها وبث دعوتها سراً وعلناً . ونعتقدان هذا النزاع ظهر بمظاهر عدة : اولا بمظهر الحركة الزيدية ، ثانياً بمظهر الحركة الجعفرية ، ثالثاً بمظهر الحركة الاباضية ، رابعاً بمظهر الحركة العباسية ، وسنين كلاً منها في حينه .

وحطم بنيان الدولة الاموية في الشام الدعوة المنظمة التي بثتها هذه الاحزاب ، والاموال الطائلة التي بندها الرؤساء والجمعيات السرية وقد انتشر رجالها في كل صقع يدعون لآل البيت وينالون من بني امية ، القشة الضالة المضلة القاسقة المغتصبة في عرفهم . ولم يتعاضد الامويون تجاه هذه الازمة الصعبة والضائقة والخيفة ، بل راحوا يثيرون روح العصبية بين اليمانية والمضرية ويستميلون تارده هؤلاء الى صفوفهم وطوراً اولئك . فهاؤوا بذلك مجالا لان ينصب لهم اعداؤهم المكاييد . ففرقوا جموعهم وعصفت بهم ريح القوضى فزلت اقدامهم وانقرضت دولتهم .

ثم قام يدير زمام المعارضين للمركزية الاموية رجال اقوياء مخلصون كأبي مسلم الخراساني وبكير بن ماهان وغيرها بينما كان الخلفاء المتأخرون من الامويين لاهين مستهترين لا يباشرون ادارة الامور بأنفسهم بل

يكونها لارباب الله وأهل الجون وقد اسرفوا في ذلك اسرافاً هائلاً .
وتنازعوا على الخلافة فأخذوا يضربون بعضهم البعض ويشيرون القلائل
في مختلف البلاد فضعت هيئتهم واعت بهم يد الفساد . واليك تفصيل
هذه الاسباب .

الحركة الزيدية : قلنا ان الحركة الزيدية هي مظهر من مظاهر النزاع
بين الفرس والعرب . وتدلنا مبادئها دلالة صريحة لاربية فيها ان الفرس
عمدوا الى اتخاذ زعماء آل البيت سائماً يرتقون عليه الى آمالهم وامانيهم . وتلخص
مبادئ الزيديين فيما يلي :

(١) يسوق الزيديون الامامة في اولاد فاطمة بنت علي بن ابي طالب ،
ولا يجوزون ثبوت امامة في غيرهم .

(٢) اذا خرج فاطمي عالم زاهد شجاع بالامامة ، اصبحت طاعته واجبة
سواء كان من اولاد الحسن او من اولاد الحسين .

(٣) يجوز خروج امامين في قطارين يستجمعان هذه الخصال ويكون
كل واحد منهما واجب الطاعة . (الشهرستاني ص ٢٠٧ - ٢٠٩) .

اما زعيم هذه الحركة فهو زيد بن علي بن الحسين . وكان شاباً طموحاً
يعتقد كل الاعتقاد ان الخلافة حق من حقوق آل البيت اختلسها بنو أمية

واستأثروا بها وجعلوها وسيلة لاشباع مطامعهم الدنيوية . وردد مثل هذه الافكار في مجالسه الخصوصية والعمومية ، فانتبه زعماء القرس لمقاتلته واراثة فأعاروها اذناً صاغية، وفرقوا الاموال في الكوفة المثائرة الغاضبة المناصرة وتأيدته . فجاءه زعماءوها واكدوا له اخلاصهم لآل البيت وثقافتهم في محبة ابناء الرسول واستعدادهم للفتك في بني امية وطردهم من العراق . وقد حفظ لنا التاريخ وثيقة تثبت بعض اقوالهم ، وهي لا تختلف عن الاقوال التي راحوا يؤكدها للحسين قبل الفاجعة التي نزلت به . وهاكها : ه ... معك مائة الف سيف نضرب بها دونك ، وليس عندنا من بني امية الا قر قليل ، ولو ان قبيلة واحدة منا صمدت لهم لكفتمهم بأذن الله . . نحن نبذل انفسنا دونك ، ونعطيك من الايمان والعهود والمواثيق ما تنق به ، فانا نرجو ان تكون المنصور ، وان يكون هذا الزمان الزمان الذي يهلك فيه بنو امية . الفخري ص ١١٩ - ١٢٠ »

ولو تأملنا في مبادي الزيدية لتحققنا ان القرس سعوا لان يكون زعماء هذه الحركة جماعة من آل البيت نظراً للمكانة الرفيعة التي لهم في قلوب المسلمين . وكلنا يعلم ان المسلمين عموماً يحبون آل البيت المطهرين ويعترفون لهم بالافضلية والمقام الرفيع . وقد تمكن القرس بهذه الوسيلة من ان يجعلوا الخلل يتسرب الى نفوس الامة ، لاسيما وان الاموال كانت دوماً تدعم دعوتهم واهل نصرتهم .

وكان زعماء آل البيت ضعافاً فظلوا تحت تأثير المورفين الفارسي والافكار
الفارسية . ولذلك لم تمكن لهم الكامة العليا في تدبير الامور وترتيب الخطط
 وتنظيم الأسباب في الحركات التي قاموا بها .

واعتقد ان زيدا زعيم هذه الحركة لم ينجح لامرين الأول لانه لم يكن
 من اولئك الزعماء الضعفاء الذين وصفناهم ، فلم يستسلم للفرس سياسياً ولم يرم بنفسه
 في احضانهم بل سعى سعيًا متواصلًا لأن يكون زعيماً حقاً يتمتع بكل تفوذ
 وسلطان ، وهذا يتنافى الخطة التي درج عليها الفرس فدعوا جاعته للتخلي
 عنه في احوال الاوقات واشدها خطراً . ولما كانت الشيعة تكره الشيخين
 ابا بكر وعمر وكان زيد لا يحض على بغضهما لقربهما من الرسول ولبلاتهما
 الحسن في الاسلام اخذ الفرس يبدلون جهدهم للتخلص منه ولا انتخاب زعيم
 يصلح صلاحاً تاماً لخدمة مآربهم ، فجادلوه فيهما واحبوا استطلاع رأيه ونشره
 كما يتفرق عنه الشيعة فصرح مرة انه تجوز امامة المفضل مع قيام الافضل وسألوه
 التفصيل فاجاب : (كان علي بن ابي طالب افضل الصحابة الا ان الخلافة
 فوضت الى ابي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة
 وتطبيب قلوب العامة ، فان عهد الحروب التي جرت في ايام النبوة كان قريباً
 وسيف امير المؤمنين علي عليه السلام عن دماء المشركين من قریش لم يحف

بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي ، فما كانت القلوب تميل
 اليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة ان يكون القيام
 بهذا الشأن من عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسبب والسبق في الاسلام والقرب
 من رسول الله . لا ترى انه لما اراد في مرضه الذي مات فيه تقليد الامر عمر
 بن الخطاب زعق الناس وقالوا لقد وليت علينا فظاً غليظاً فما كانوا يرضون
 بأمر المؤمنين ، ولشدة وصلابة وغلظ له في الدين وفضافة على الاعداء حتى
 سكنهم ابو بكر . وكذلك يجوز ان يكون المفضل اماماً والافضل قائم فيرجع
 اليه في الاحكام ويحكم بحكمه في القضايا . الشهرستاني ج ١ ص ٢٠٩ . هذا
 مادعا الشيعة ومنهم قوام حزبه المعروفين بالزيدية — نسبة له — لان يرفضوه .
 اما الامر الثاني فهو قيام هذه الحركة في غير اوانها ، فكانت دولة بني
 امية ايام هشام بن عبد الملك قوية الشأن عظيمة السلطان منظمة الجيوش سرية
 البطش والعقاب . فجهز اليه حاكم العراق الاموي يوسف بن عمر الثقفي جيشاً
 قوياً واحتياط لزاله ، فالتقى به بكناسة الكوفة . وكان جيش زيد يتألف من
 اربعة عشر الف مقاتل على وجه التقريب ، فسرت دعوة الفرس هذه ، فتخلت
 عنه الشيعة في الساعة الاخيرة كما تخلوا عن حده الحسين وهو في اشد الحاجة
 اليهم . فهزم بعد ان ثبت ثباتاً يدعو الى الاعجاب ثم قتل . وامر به يوسف

ابن عمر فصلب واحرق وذري رماده في القرات. الفخري ص ١١٩ - ١٢٠
مختصر الدول ص ٢٠٠ ، التنبيه والاشراف ص ٧٢٣ .

الحركة الجعفرية : كثر عدد المرشحين للخلافة حينما اضطرب جبل بني
امية ، وكان الفرس يساعدون هؤلاء المرشحين في كل مكان ليقف الامويون
تجاههم موقف الحائز المرتبك الذي لا يعرف كيف يتخلص من ضائقته اذا
نزلت به واستحكمت حلقاتها . ومن المهم ان تقرر ان هؤلاء الفرس متى
قضوا لبائهم من الرجال الذين يخدمون اراءهم ومصالحهم رموهم جانباً واقتبذوهم
قصياً . ولو أجلت نظرك في الديار العراقية مركز الدعوة الفارسية وحصنها الحصين
في اواخر القرن الاول و بدء القرن الثاني للهجرة لرأيت الفرس يمدون ابناء
الرسول من جهة ويعينون ابناء العباس من جهة اخرى . وبعبارة اتم كانوا
يشجعون العباسيين والعلويين على طلب الخلافة واشعال نيران الثورة . انهم لم
يكتفوا بذلك بل بذلوا الاموال الطائلة في اثناء قوى الاباضية الخارج وغيرهم
حتى تنبت البلاد من ثقل الحكم الاموي وتشعر بوطأته الشديدة . والغريب
انهم كانوا يمنون جميع المرشحين بالخلافة ، وهم عن كسب يراقبون سير هذه
الحركات وتدرجها ونموها ليشدوا ازر القوة منها .

وكان من الذين يتطلعون الى الاستيلاء على عرش الخلافة شابٌ يدعى

عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب « الطيار » . وعرف بفضلته واشتهر بتقاه وشجاعته ، فبث الفرس دعوته في الكوفة — والكوفة كما علمنا سوق الدعوات ومركز الموآمرات — بعد مقتل زيد ، وذلك في عهد مروان بن محمد ، فالتف حوله فئة كبيرة منهم فنازلهم الامويون واجبروهم على الانسحاب الى المدائن . ثم عبروا دجلة وتوجهوا الى بلاد العجم ، فغلبوا على همدان واصفهان وجوارها . ولما قويت الدعوة العباسية في فارس قاومت انصار عبد الله وقتلت زعيمهم ففضي على مرشحي آل البيت للمرة الثانية .

« الفخري ص ١٢٣ — ١٢٤ »

الحركة الاباضية : لم يكن النزاع بين الفرس والعرب نزاعاً سياسياً فحسب ، بل كان نزاعاً دينياً ايضاً ، فأراد الفرس ان يصبغوا الاسلامية بصبغة وثنية ، ويلونوها بلون جديد ويبعثوا بهاروحا جديدة توافق رغائبهم . ودعم الفرس مباديهم بالقوة فقالت فئة منهم وكانت من دعاة العباسيين بوجوب الترخيص للمسلمين في نساء بعضهم البعض ، وهذه هي الاباحية الاولى التي لا تحترم سنن الزواج الثابتة ولا تقرها . وهي التي تقاها الاسلام بنصوصه الصريحة في القرآن والحديث وتعرف تلك المبادي بالمبادي الخرمية . (الطبري ص ١٢٧)

ص (١٥٩) . اما الاباضية فهم فرقة من الخوارج ثارت في ايام مروان بن

محمد بمكة واليمن وكان زعيمها عبد الله بن اباض . وتقول مبادئهم بوجوب قتل الخليفة الاموي لأنه خليفة باغ مسيطر على الاسلام بغير حق . ولهم آراء دينية تختلف عن آراء أهل السنة وهي متأثرة من التعاليم والأفكار الفارسية واليك أهمها :

- (١) الخالقون من أهل القبلة كفار غير مشركين .
 - (٢) مناحة أهل القبلة جائزة وموارثهم حلال .
 - (٣) غنيمة اموال أهل القبلة من السلاح والكراع عند الحرب خلال وما سواه حرام .
 - (٤) حرام قتل أهل القبلة وسبيهم في السريّة إلا بعد نصب القتال واقامة الحجّة .
 - (٥) دار مخالفتهم من أهل الاسلام دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار بغي .
 - (٦) مرتكبو الكبائر موحدون لا مؤمنون . (الشهرستاني ج ١ ص ١٨١ - ١٨٢ وابن حزم ج ٤ ص ١٩٨) .
- فترى انهم يتساهلون في امور الدين ، وهذا بعض ما تطلب القرض وقتلوا من اجله ، ولذلك ساد التساهل في الدولة العباسية يوم استولوا زمام

امورها وانتشر في بغداد أكثر من انتشاره في دمشق وقرطبة . وهو نتيجة لما قدمناه . ثم هم يشيرون بالحرب واعتبار معسكر السلطان دار بني ليضربوا الخلافة الاموية من اسسها . فتوقفوا في تحطيم العرش الاموي مع غيرهم ولكنهم لم يوقفوا في الاستيلاء على عرش الخلافة .

الحركة العباسية : تحركت الدعوة العباسية تدعمها سيوف الفرس وترعاها اموالهم وينبئها رجالهم ، وكانت كغيرها من الحركات التي وصفناها لا هم لها الا القضاء على النفوذ الاموي وتقل الخلافة الى آل البيت . ومن المهم ان نؤكد هنا ان الناس الذين قاموا يؤيدونها لم يفكروا البتة انهم ينصرون آل العباس ، وان آل العباس سيضطهدون العلويين ويضربونهم في الصميم ويلاحقونهم في كل صقع كما فعل الأمويون بهم من قبل . بل اعتقدوا اعتقاداً راسخاً انهم يدافعون عن حق مغضوب لابناء النبي وان لا بد من ارجاع هذا الحق الى اصحابه . ولا يكون ذلك الا بقتال الامويين ومنلوأتهم وكفاحهم .

قام الفرس يثبون الدعوة ضد بني أمية وينالون منهم ويشيرون احقاد الناس وضغائنهم في كل مكان . فوجدت دعوتهم ارضا خصبة وجواً صالحاً في ادعة الشيعة . وكان بدء هذه الحركة منذ ان سلم الحسن بن علي زمام الخلافة الى معاوية بن ابي سفيان . فاخذوا يؤسسون الجمعيات السرية والاحزاب

القوية في العراق وخراسان * ورشحوا محمد بن علي وهو محمد بن الحنفية للخلافة وعرضوا عليه قبض زكّتهم لينفقها في مجاهدة الأعداء وتنظيم الحركة ضدهم * فقبل ذلك منهم وعين الدعاة في البلاد المختلفة لنشر أمره بين المخلصين والثقات سرّاً ، وحذر كل الحذر لئلا ينشر أمره . فلما أدركتة الوفاة ولي عبد الله ابنه من بعده . فلم ينجح في اعلان الثورة لان الامويين كانوا يراقبون خصومهم ويعدّدون عليهم اتقاسمهم فعبه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في الحيلة . وكان مفكراً فلم يرسل دعااته في الشام ومصر لان هواهم في بني أمية ولم يجعل الكوفة مركز اعماله خيفة ان يغدر به الكوفيون . وهم الذين اثبتت الحوادث خيانتهم لعلي بن ابي طالب ، والحسين ابنه وزيد بن علي وغيرهم . ولم يقيم بالحجاز لان الحجاز بلاد فقيرة لا قوة لأهلها ولا حول لرجالها ، فوجه وجهه نحو خراسان ، واعتمد بكل قوته على الفرس ورمى بنفسه في احضانهم ودعاهم الى نصرته . وقد فعل هذا اعتقاداً منه انهم مخلصون لقضيته متفانون في محبة آل البيت ولا غرابة في ذلك لانهم كانوا يرسلون له الاموال الطائلة المرة اثر الاخرى . روى ياقوت : (وكان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس قال لدعااته حين اراد توجيههم الى الامصار : — اما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده ، والبصرة وسوادها فعمانية تدّين بالكف . واما الجزيرة فخرورية — خارجية —

مارقة ، واعراب كأعلاج ، ومسلمون اخلاف النصارى ، واما الشام فليس يعرفون الا آل ابي سفيان وطاعة بني سروان ، عداوة راسخة وجهل متراكم ، واما مكة والمدينة فغلب عليهما ابو بكر وعمر ، ولكن عليكم بأهل خراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم يتقسمها الاهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدم عليهم فساد ، وهم جند لهم ابدان واجسام ومناكب وكواهل وهامات . . . واصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من اجواف منكرة ، معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٢ .

وقال محمد بن علي ايضاً : (ابي الله ان تكون شيعتنا الا أهل خراسان ، ولا ننصر الا بهم . ولا ينصرون الا بنا . انه يخرج من خراسان سبعون الف سيف مشهور ، قلوبهم كزبر الحديد ، يطون ملك بني أمية طياً ويزفون الملك الينا زفا . معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٢) .

ثم ان خراسان بلاد بعيدة عن عاصمة الخلافة الاموية ، وليس للعرب بها سلطان قوي او تقوذ عظيم ، فيمكن للحركة العباسية ان تنمو وان تثبت تجاه القوى الاموية ، وان ينتقل رجالها في جبالها ووادها وانتقالاً سريعاً قبل ان يكون للحكومة الوقت الكافي لتشتيت شملهم والقضاء عليهم . والحقبة التي لا غبار عليها ان دعاة العباسيين اظهروا مهارة تامة في تكتمهم فخذروا

جنراً شديداً من العرب في فارس، وكانوا لا يفشون أسرارهم إلا للمخلصين لهم، وأخذون عليهم اليهود والمواثيق المؤكدة، وأظهروا براعة تامة في تمثيل جور بني أمية واعتدائهم وتهكمهم، واستهتارهم واستخفافهم بأمور الدين والشريعة للطهارة. وجعلوا يسرون من مقاطعة إلى مقاطعة ومن كورة إلى كورة فيدعون الناس إلى مبادئهم فيستحيون لهم. قال الدينوري: « وقد ساروا — دعاة العباسية — من مدينة مرو إلى بخارا، ومن بخارا إلى سمرقند، ومن سمرقند إلى كش ونسف، ثم عطفوا على الصغانيان، وحازوا منها إلى ختلان، وانصرفوا إلى مرو الرود والطالقان، وعطفوا إلى هراة وبوشنج، وحازوا إلى سجستان، فغرسوا في هذه البلدان غرساً كثيراً وفشا أمرهم في جميع أقطار خراسان. فطلبهم عمال بني أمية فلم يدرکوا لهم أثراً، إلاخبار الطوال ص ٣٣٨ »

لما اشتهر رجال الدعوة العباسية العاملين فكانوا بكبير بن ملهان، وهو شاب فارسي غني وخطيب مفوه، وسليمان بن كثير، ولاهن بن قريظ، وقحطمة بن شبيب وغيرهم من رجال الفرس والشيعة. وقد خدموا القضية العباسية خدمة كبرى فضحوا بأموالهم وأوقاتهم وراحتهم في سبيلها. وعقب محمد بن علي ابنه إبراهيم المعروف بالأمام. وكان ساعده الإيمن

وعضده الثنين شابٌ فارسي يدعى ابا مسلم الخراساني . ولد ابو مسلم حوالي سنة ١٠٠ هجرية « ٧١٨ م » في رستاق فريدين من قرية تسمى سنجراد . وقيل انه من قرية ماخوان على بعد ثلاثة فراسخ من مرو . وتعالى والده التجارة بين خراسان والعراق ف جلب الى الكوفة الاغنام والمواشي ورجع حاملا منها المنسوجات والمحصولات العراقية . وقد ضمن مرة بعض رساتيق للحكومة وقاطع عليها فلحقه عجز فيها وناء تحت اعباء الديون . فهرب مع زوجته (وشيكة) وهي كوفية الاصل فارسية التريبة وعرج في طريقه على رستاق لبعض اصدقائه وهم آل العجلي ، بماه البصرة مما يلي اصبهان . ونزل عندهم ضيفاً كريماً . ولما اشتد طلب الحكومة له التجأ الى اذريجان فمات بها .

نشأ ابو مسلم في بيت عيسى ومعقل ابني ادريس العجلي فتعهداه وارسلاه الى المدرسة مع اولادهما فخرج اديباً لبيباً يشار اليه بالبتان حسب رواية ابن خلكان . ثم دارت الأيام دورتها وانتشرت الدعوة العباسية في خراسان وفارس ، فاشتراك آل العجلي في المؤامرة على الدولة الأموية وراحوا يشجعون الناس على تأخير الخراج عن خزينة الحكومة فقبضت عليهم وساقهم الى واسط ، وهناك صدر الأمر بسجنهم . فلحق بهم ابو مسلم يخدمهم ويختلف اليهم في حبسهم ، فاجتمع مدة اقامته في واسط بدعاة العباسيين واتصل بنقبائهم ، وقال

الى مناصرتهم انتقاماً من اولئك الذين سببوا نكبة عائلته وسجن اوليائه .
فلما آتسوا منه الذكاء وتوقد الخاطر او عزوا اليه بالمسير الى محمد بن علي زعيمهم
وهو في الحيمة من اعمال الشام . فركب اليه فاستقبله واستخدمه في بث الدعوة
فوجده كثير البيرة مخلصاً .

قدّم ابراهيم الامام ابا مسلم وأسند اليه منصب الزعامة على جميع النقباء
في خراسان ، وحضه على التكتّم واستعمال الشدة مع احزاب بني أمية ومناصريهم
من العرب . قال يوصيه حينما توجه الى فارس : « يا ابا عبد الرحمن — يعني
ابا مسلم — انك رجلٌ منا اهل البيت فاحفظ وصيتي . انظر هذا الحي من
اليمن فأكرمهم ، فان الله لا يثم هذا الامر الا بهم ، وانظر هذا الحي من ربيعة
فانهم معهم ، وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب ، فاقتل من شككت
في أمره ومن وقع في تقسك منه تهمة . . . السيف السيف لا تتبني العدو
بطرف . . . ان استطعت ان لاتدع بخراسان ارضاً فيها عربي فافعل وايماً
غلامٌ بلغ خمسة اشبار فاقتله ، ابن قتيبة ج ٢ ص ٢١٨ » فترى ان الأمام لم
يكن لينظر الى العرب عموماً الا اعداء لحركته وعاملاً من عوامل الانحلال
فيها بينما كان القرس — في نظره — الحصن الحصين لدعوته فاعتمد عليهم
اعتماداً كلياً .

واعجب الامام بما امتاز به ابو مسلم من الصفات الباهرة كحسن المنطق والعقل الوافر والادب الجم والرصانة والصبر وعدم الاهتمام بالمظاهر الخلابه، ومقدرته على كتمان الأمور وضبط الشعور فقال فيه: (هذا عضلة من العضل، ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨٣)

وقال ابن خلكان يصف ابا مسلم : « كان ابو مسلم خافض الصوت فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر عالماً بالأمر ، لم ير ضاحكاً ولا مازحاً الا في وقته ولا يكاد يقطب في شيء من احواله . تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه اثر السرور . وتنزل به الحوادث القادحة فلا يرى مكتئباً . واذا غضب لم يستمره الغضب . وكان من اشد الناس غيرة ، لا يدخل قصره غيره وكان اقل الناس طمعاً واكثرهم طغماً ، ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨٣ ، ووصفه ابن العبري بقوله : « كان ابو مسلم ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة ، وكان فاتكاً قليل الرحمة قاسي القلب سوطه سيفه من ٢٠٩ »

ولم يكد ابو مسلم يستلم مهام منصبه حتى اظهر براعة تامة في نشر الدعوة فوجه رجاله الى النواحي من خراسان بزي التجار . ونظم حركته فولى على شيعته في البلاد رجلاً من اهلها ، وكان على اتصال دائم بهؤلاء الزعماء فأصدر اليهم اوامره وطلب منهم تنفيذها حرفياً . وبلغ من نجاحه انه اجمع الخراسانيون

على محبته وصار من اعز الناس عندهم منزلة وارفعهم مقاماً فقتل الدينوري :
 • انهم كانوا يتحالفون فلا يحشون ويدكرونه فلا يملون . الاخبار الطوال ص ٣٤٤
 وعرف دعاة العباسيين باللواء والراية في بدء أمرهم . وقد بعث بهما الامام
 الى ابي مسلم في خراسان • اما اللواء فيدعى (الظل) واما الراية فتدعى
 (السحاب) • وكان تأويلهما (ان السحاب يطبق الارض ، وكما ان الارض
 لا تخلو من الظل ، كذلك لا تخلو - تيناً - من خليفة عباسي الى آخر
 الدهر . مختصر الدول ص ٢٠٦) •

لما ابو مسلم الخراساني الى السياسة المعروفة بسياسة (فرق تسد) حينما
 اراد مباواة العرب الامويين المنتشرين في الاقطار الفارسية • واستغل
 اختلاف بعضهم على بعض فراح يشعل نار العصية في صدورهم ويرسل دعائه
 الى الزعماء ليوقعوا بينهم الضغينة والبغضاء . ولو درسنا احوال القبائل العربية
 في اواخر القرن الاول للهجرة لتحققنا ان الخلفاء الامويين المتأخرين لجأوا
 ايضاً الى تفرقة العرب وانما روح العصية بينهم فاحسنوا الى فئة منهم واعدقوا
 عليها النعم وعينوا لها الرواتب واسندوا لرجالها المناصب دون الفئة الأخرى .
 فجاء ابو مسلم وبذل الاموال لاثارة الفتن بين مختلف القبائل العربية . فتكملت
 مساعيه بأكاليل النجاح . ووقعت العصية بين المضرية واليمانية بخراسان .

وكانت الحكومة الاموية — على عهد مروان بن محمد الخليفة الاخير — لا تستعمل احداً من اليمانية ولا تستعين بهم في الشؤون الحربية والادارية والسياسية . — وذلك لان نصر بن سيار الليثي والي خراسان كان متعصباً على اليمانية مبغضاً لهم — فغضب السكرماني زعيمهم واجتمع اليه احياء العرب واعتزل الحكومة ونصب لها العداء . فاستفاد ابو مسلم من هذه الفرصة واخذ يتقرب من كلا الزعيمين السكرماني ونصر بن سيار الليثي . وينفذ اليهما الكتب ويعني الحزبين بالمساعدة والمعونة . ويرجو لكل منهما الانتصار على عدوه . وصار يعرض عليهما الجوائز ويؤمنهما عسى ينضم احد منهما اليه . فصرح لهما صراحة : (ان الامام اوصاني بكم ولست اعدو رأييه فيكم ابن قتيبة ، ج ٢ ص ٢٢) .

قال ابن قتيبة : « وجعل ابو مسلم يكتب الكتب ثم يقول للرسول مروا بها على اليمانية فانهم يتعرضون لكم ويأخذون كتبكم فاذا رأوا فيها اني رأيت المضرة لا وفاء لهم ولا خير فيهم ... فلا تثق بهم ولا تطمئن اليهم ، فاني ارجو ان يريك الله في اليمانية ماتحب ، ويرسل رسولا آخر بمثل ذلك على اليمانية فيقول مر على المضرة فكان القرقيان جميعا معه » (ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٢٠)
فقال السكرماني اليه لان حبل الثقة كان قد انقطع بينه وبين نصر خصوصا

بعد ان اذاقه الاخير عذاب السجن * نتأكد من هذا لان عقلاء العرب حينما اشتد الخلاف بين الجامية والمضرية وبدأ ابو مسلم يضيق اخناق على كل عربي أموي ، سعوا لعقد الصلح بين الزعيمين فأبى الكرماني وصرح انه لا يثق بحسن نوايا نصر نحوه . قال الطبري : (قال عقيل : اني ارى امراً أخاف ان يذهب فيه العقول ، قال الكرماني ان نصراً يريد ان آتية ولا آمنه ونريد ان يعتزل ونعتزل ، ونختار رجلاً من بكر بن وائل نرضاه جميعاً ، فيلي أمرنا جميعاً حتى يأتي امر من الخليفة وهو يأبى هذا ، قال يا ابا علي — الكرماني — اني اخاف ان يهلك أهل هذا الثغر فان اميرك وقل ماشئت تجاب اليه ، ولا تطمع سفهاء قومك فقال الكرماني اني لا اهتمك في نصيحة ولا عقل ، ولسكني لا اثق بنصر فليحمل من مال خراسان ماشاء ويشخص ، قال فهل لك في امر يجمع الامر بينكما تنزوج اليه وتزوج اليك * قال لا آمنه على حال ، الطبري ج ٧ ص ١٨٦٦) .

مكث العرب يقتتلون في خراسان نحواً من عشرين شهراً و ابو مسلم لا يهدأ عن ايقاد نيران الفتنة ليهن قواهم ويشل سواعدهم ، وليكون له الوقت الكافي لضربهم ضربة قاسية لاتقوم لهم من بعدها قائمة * وقد تألم نصر بن سيار الليثي لما اصاب القوم من عوامل التفرقة والخذلان فاستنجد الحكومة في دمشق وكان

على رأسها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ليدراً خطر العباسيين ولينازلهم
 في عقر دراهم قبل ان يهاجوه ويجبروه على الانسحاب الى العراق، او ليشاغل
 ابا مسلم على الاقل قبل ان يشتد ركنه ويعلو شأنه . وكان يرجو ان يجمع
 كلمة العرب ويستعين على مخالفيه منهم بالقوة فارسل الى الخليفة رسالة قال منها:
 « قد بايعه — بايع ابا مسلم — مائتا الف رجل من اقتار خراسان فتدارك
 يا امير المؤمنين امرك وابعث الي بجنود من قبلك يقو بهم ركني واستعين بهم
 على محاربة من خالفني — يعني الكرمانى — الاخبار الطوال ص ٣٥٦ ،
 وذكر في آخر رسالته الايات المشهورة :

أرى بين الرماد وميض نارٍ	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفئها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
فان النار بالعودين تذكى	وان الحرب أولها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أيقاظُ أمية أم نيام
فان يقظت فذاك بقاء ملك	وان رقدت فاني لا ألام
فان يك اصبحوا وثروا نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام

(الدينوري ص ٣٥٦ ، الفخري ص ١٢٩)

فاجابه : « احسم انت هذا الداء الذي قد ظهر عندك ، الفخري ص ١٢٩ »

ويدلنا هذا على ان الحكومة كانت مضغضة مشلولة لا قدرة لها على ضبط زمام الامور والدفاع عن كيانها . ولما اعيت نصر الحيل ولم ينجد أحد يقال أنه كتب للخليفة :

يا ايها الملك الواني بنصرته قد آن للامران يأتيك من كتب
أضحت راسان قد باضت حقورتهما وفردت في نواحيها بلا رهب
فان يطرون ولم يحتل لمن بها يلهن ناز حرب ايما لهب
ولما ابطأ عليه الغوث ارسل اليه :

من مبلغ عني الامام الذم قام بامر بين ساطع
أتى نذير لك من دولة قام بها ذو رحم قاطع
والثوب ان انهج فيه الملى اعني على ذي الحيلة الصانع
كسنا نذارها فقد مزقت واتسع الخرق على الراقع

(الاخبار الطوال ص ٣٥٨ — ٣٥٩)

هذه وثائق ظاهرة بينة تشهد لنا ان العصبية فتت في عضد بني امية وكانت من اعظم الاسباب التي ادت الى سقوطهم .

قبض مروان بن محمد على ابراهيم الامام واحضره الى حران حينما كثرت شيعته وتعددت اغزابه . وكانت حران مركز مروان ومقامه . ثم أمر به

فأقدم ويذكر المؤرخون انه سمّاه ، فخاف اخواه السفاح والمنصور فهربوا الى
الكوفة مع بعض خاصتهم . وظهر السفاح بها الدعوة وخطب بالناس في المسجد
الجامع ويومع بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، ٧٤٩ م . ووفدت عليه الزعماء من
اطراف العراق تباعه وتقدم خضوعها له . وندب عمه عبد الله بن علي لقتال
مروان بن محمد . فترى مما تقدم ان العراق وخراسان اعلنتا خلع بني امية .
اما وقد خلعت كل من خراسان والعراق طاعة الامويين فلم يعد امام
مروان الا المناجزة العباسيين الواقعة الفاصلة لعله يصدمهم صدمة توهن
معنوياتهم . فجهز جيشاً بلغ عدده نحواً من مائة وعشرين الف مقاتل . وزحف
به نحو العراق فالتقى مع عبد الله بن علي على انزاب الكبير . فانهمز جيش
مروان . وغرق منه عددٌ وافر . وكان اصحاب مروان فآثري الهمة
قد لعبت بهم الدعوة العباسية وآثر عليهم الذهب الفرمي فولوا هاربين جزعين .
وبذل جهده ليثبت اقدامهم فعين لهم الاعطيات والرواتب فلم يقلح وكانت
الفوضى قد انتشرت في صفوفهم فما اطاعوا الأوامر التي اصدرها لهم زعمائهم
ولا أعاروها اهتماماً . روى الفخري : « واشتد القتال فصار مروان اذا امر
طائفة من العسكر بشي قالوا قل للطائفة الاخرى وبلغ من امره انه قال لصاحب
شرطته : انزل الى الارض فقال والله لا التي تقسي في التهلكة فقال له مروان

لا فعلن بك وتهده فقال وددت انك تقدر على ذلك . . ولما رأى مروان
 فترة اصحابه وضع ذهباً كثيراً قدام الناس وقال ايها الناس قاتلوا وهذا المال
 لكم فصار الناس يمدون ايديهم الى المال ويتناولون منه شيئاً شيئاً ص ١٣٢
 مضى مروان بعد هزيمته الى الموصل فخرآن فالشام فوثب عليه أهل حصص
 ودمشق والاردن وفلسطين واعملوا السيف في جنده وانهبوا امواله وذخائره .
 وكان بعد انكساره يستقري مدتهم ويستنهض عنهم فيروغون عنه ويهابون
 الحرب ويودون الخلاص منه . ولا غرابة في ذلك فان الشام كانت قد ملت
 القوضى والقتل وزهدت في مساعدة الخلفاء الامويين المترفين الذين لا يهونون
 الا اشباع مطامعهم واتباع ملذاتهم الشخصية .

فكر مروان مراراً بطلب النجدة والمعونة من البيزنطيين تجاه هذه
 الضائقة الشديدة التي نزلت به عليه يسترجع ما فقد من السطوة والسلطان
 فمنعه من ذلك انصاره المخلصون واثاروا عليه بالذهاب الى مصر الغنية فيجمع
 ثمنه ويجعل الشام هدفه وافر يقية حصنه وموئله . وقد جادل مروان بن محمد
 اسماعيل بن عبد الله القسري في هذا الموضوع وحفظ لنا الدينوري اقوالهما :
 قال مروان يخاطب اسماعيل بن عبد الله القسري : (اجمعت على ان
 ارتحل باهلي وولدي وخاصة اهل بيتي ومن اتبعني من اصحابي حتى اقطع

الدرب واصير الى ملك الروم فاستوثق منه بالأمان ، ولا يزال يأتيني الخائف
والهارب من اهل بيتي وجنودي حتى يكشف امري ، واصيب قوة على محاربة
عدوي) . فقال اسماعيل بن عبد الله القسري لمروان : « اعينك بالله ان تحكم
اهل الشرك في نفسك وحرملك لان الروم لا وفاء لهم . ثم ان الرأي عندي
ان تقطع الفرات وتستقري مدن الشام مدينة مدينة فان لك بكل مدينة صنائع
ونصحاء ، وتضمهم جميعاً اليك ، وتسير حتى تنزل ببلاد مصر فهي اكثر
اهل الارض مالا وخيلاً ورجالاً فتجعل الشام امامك وافريقية خلفك ،
فان رأيت ماتحب انصرفت الى الشام وان تسكن الاخرى اتسع لك المهرب
نحو افريقية فانها ارض واسعة نائية منفردة ، الاخبار الطوال ص ٣٦٣-٣٦٤ »
اتجه مروان نحو مصر ليجمع شمله ويطلق آخر سهم في كسنته فلحق
به ابو عون العلي احد قادة عبد الله بن علي وبث رجاله في اثره فاكتشفوا مكانه
في بوسير احدى قرى الصعيد - مصر - فطعنوه فصرعوه واحتزوا رأسه وحملوه الى
السفاح في الكوفة . ولم يمّ مروان رخيصة بل دافع الى النفس الاخير .
وقد أفل بمقتل مروان نجم بني امية في الشام .

قلنا ان العصبية القبائلية كانت سبباً كبيراً في سقوط الامويين وزوال
دولتهم . والآن نزيد ان الدعوة التي بثها اعداؤهم من الفرس والشيعة لعبت

دوراً مها في بلاط الخلفاء العباسيين. فاعملوا السيف في رقابهم ولا حقوقهم في كل فطر من الاقطار العربية حتى انهم افنوا معظمهم ولم يفلت منهم الا عبيد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش. وكان بعض الشعراء من اكبر المحرضين على اعدامهم وهم بلا ريب يمثلون لنا اراء الاحزاب المعارضة فيهم. انشد سديف احمد مولي بني العباس في حضرة السفاح :

يا ابن عم النبي انت ضياء	استبنا بك اليقين الجليبا
جزد السيف وارفع العفو حتى	لا ترى فوق ظهرها أمويا
لا يفرئك ماترى من رجال	ان تحت الضلوع داء دويا
بطن البغض في القديم فأضحى	ثاويًا في قلوبهم مطويا

وقال ايضاً يحضه على بني امية ويذكر من قتل مروان وبني امية من قومه :

كيف بالعفو عنهم وقديماً	قتلوكم وهتـموا الحرمات
ابن زيد وابن يحيى بن زيد	يا لها من مصيبة وترات
والامام الذي اصاب بحرا	ن امام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل احمد لاغنا للذنب لمروان	غافر السيئات

(الاغاني ج ٤ ص ٩٤ - ٩٥)

وله :

أصبح الملك ثابت الأساس
 طلبوا وترهاشم فسقوها
 لا تقبلن عبد شمس عثراً
 ذلها اظهر التودد منها
 ولقد غاظني وغاز سوائي
 واذكرن مقتل الحسين وزيداً

(ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٣٦)

فليس ذلك الا الخوف والطمع
 لكنهم قمعوا بالنل فانقمعوا
 سقوكم جرعاً من بعدها جرع
 منوا اليكم بالارحام التي قطعوا
 رياً وان يحصدوا الزرع الذي زرعوا
 اذا تفرقت الاهواء والشيع
 قد ملسكوا ثم ماضوا ولا تقموا

(الاغانى ج ٤ ص ٩٥)

وقال احد شيعة بني العباس :
 اياكم ان تلينوا لاعتذارهم
 لو انهم امنوا ابدوا عداوتهم
 أليس في ألف شهر قد مضت لهم
 حتى اذا ما انقضت ايام مدتهم
 هيهات لا بدان يسقوا بكأسهم
 انا واخواننا الانصار شيعتكم
 اياكم ان يقول الناس انهم

وقال آخر:

فلا عفا الله عن مروان مظلمة ولا أمية بئس المجلس الياضي
كانوا كعماد فأمسى الله اهلكهم بمثل ما اهلك الفادين من عاد

(الاغاني ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤)

استعمل العباسيون الحيلة في استقدام بني امية فأمنوهم على ارواحهم واموالهم
واملاهم راكدوا لهم انه لن يضطهدوهم وسوف يحافظون عليهم ويقيسونهم
في ديوان العطاء . فقدموا على السفاح مطمئين اليه عائدین به فنكث عهده
وتفنن في تعذيبهم واعدامهم . قال ابو القرج الاصهباني باسناده : « دعا
ابو العباس بالغداء حين قتلوا وامر ببساط فبسط عليهم وجلس فوقه يأكل
وهم يضطربون تحته فلما فرغ من الأكل قال ما اعلمني أكلت أكلة قط
أهنأ ولا أطيب لنفسی منها . فلما فرغ قال جروا بارجلهم فألقوا في الطريق
يلعنهم الناس امواتاً كما لعنوه احياء ، فرأيت السكالب تجر بارجلهم وعليهم
سراويلات الوشي حتى انتنوا ، ثم حفرت لهم بئر فالتقوا فيها ، الاغاني ج ٤
ص ٩٣ » .

وروى الاغاني : « قتل الامويين وصلبهم في بستانه حتى تأذى جلساؤه
بروائحهم فكمموه في ذلك فقال ، والله لهذا الذعدي من شم المسك والعنبر

غيفاً عليهم وحنقاً ، الاغاني ج ٤ ص ٩٦ ، وكانت تأخذ السفاح رعدة حينما يدكر ما فعله الأمويون مع آل البيت وما ارتكبوه من المظالم فيتلذذ بقتلهم .
 قل مرة يخاطب بعضهم قبل تسليمهم ليد الجلاد : ٦ أرى قتلاكم من أهلي
 قد سلفوا وانتم احياء تملذذون في الدنيا ، الاغاني ج ٤ ص ٩١ - ٩٢ .
 وطالما ردد هذا البيت :

ايا الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد ولا آباء ابناء
 وصدرت الاوامر العباسية الى جميع الاقطار الاسلامية وكلها تقول بآبائهم
 عن بكرة ابيهم . فذبح عبد الله بن علي نحواً من ثمانين رجلاً على نهر ابي
 فطرس بفلسطين . واحتذى اخوه داود بن علي بالحجاز فعله ، ٧ التنسية
 والاشراف ص ٣٢٩ . وما زالوا يلاحقونهم حتى فاهم ضرّ عظيم ، فهلك
 بعضهم جوعاً وعطشاً وشاهد من بقي منهم انواع الشدائد وصنوف الإحن .

اغرق الخلفاء الامويون المتأخرون في مجونهم واستهتارهم وتهتكهم واسرفوا
 اسرافاً زائداً في اتباعهم سبل الشهوات والملاذ . فاهلوا واجباتهم تجاه الامة
 التي اعتمدت عليهم في تدبير امورها والاعتناء بمقدراتها . انهم لم ينسجوا
 على منوال معاوية الاول وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وعمر
 ابن عبد العزيز فيوطنون دعايم الامن والسلام ، ويضربون اصحاب القلائل

وأهل القن بيد حديدية ، ويسنون القوانين التي تصالح حل السكان وتطي
تجارتهم وتنشط صناعاتهم وتحيي زراعتهم ، بل اخذوا يقرّبون الندماء وانفساق
والمأمورين الذين لا يعرفون من المنصب الارضاء ساداتهم ، ولا يفهمون
من روح المسؤولية سوى تعداد الايام والشهور لقبض رواتبهم .

جاء يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني) سنة ١٠١ هـ و ٧١٩ م بعد عمر
بن عبد العزيز فكان شديد الفخر ظاهر الكبر يحب اللهو والانس والطرب .
ولو امعنا النظر في احواله الخاصة وسلوكه الشخصي لحكمنا انه قضى عمره مغرماً
عاشقاً لا يجد في الحياة الا عبادة الحب والجمال . وقد تولع يزيدٌ بحُبابة وسلامة
الغانيتين الحجازيتين ولعاً شديداً ملك عليه لبه وانساء سياسة الدولة وادارتها .
فترك زمام الامور بيد اصدقائه ومريديه . وهما من مولدات المدينة وكانتا
اديبتين ترويان الاشعار وتضربان على العود ضرباً حسناً . وقتن بهما الشعراء
المعاصرون لهما فقلوا فيهما القضايد العائرة . وينذكر « الاغاني » ان الناس
في الحجاز كانت تتناقض ابياتهما في الاندية الخاصة والعامة . ج ١٣ ص ١٥٠ .
وبلغ من حب يزيد لهاتين الغانيتين القناتين انه جعل لهما مطلق التصرف
في شؤون الدولة حتى قال المورخون : « عمل ابن هبيرة في ولاية العراق من
قبل حبابة . » ولم تزل حبابة تعمل له في العراق حتى وليها . الاغاني ج ١٢
ص ١٥٠ - ١٥٢ .

فترى انه كان لبعض الحظيات الكلمة المفيدة في اسناد الوظائف للدولة .
وحكى الرواة ان حبابة غنت يزيد بن عبد الملك يوماً :

بين التراقي واللاهة جواراً ما تطمئن وما تسوغ فتبرد

فأهوى لي طير من شدة غرامه وهيامه بها فقالت تداعبه : يا امير المؤمنين
ان لنا فيك حاجة، الطبري ٢٧٨ ص ١٤٦٥ . ومرضت حبابة يوماً فبكى
لذلك بكاءً مرأً وحزن حزناً عميقاً . قال الطبري : « مرضت حبابة وثقلت
فقال كيف انت يا حبابة فلم تجبه فبكى وقال :

لئن تسلى عنك النفس أو الهوى فباليأس تساو عنك لا بالتجدد
وسمع جارية لها تتمثل :

كفى حزناً بالهائم الصب ان يرى منازل من بهوى معطلة قفرا

الطبري ٢٧٨ ص ١٤٦٩ - العهد القويدي ج ٣ ص ١٧٦

واجمع المؤرخون انه لم يتالك عن نبش حبابة بعد وفاتها لسكفها بها كفاً
جنونياً . روى اللدائني : « انه اشتاق اليها بعد ثلاثة ايام من دفنه اياها فقتل
لا بد من ان تنبش فنشيت وكشف له عن وجهها وقد تغير تغيراً فييحاً فقتل
لهيا امير المؤمنين اتق الله الا ترى كيف قد صارت فقتل ما رأيها قط احسن منها
اليوم . اخرجهوا . فجاءه ميسلة بن عبد الملك ووجهه أهله فلم يزالوا به حتى ازالوه عن

ذلك . ودفنوها . وانصرف فكمد كمداً شديداً حتى مات فدفن الى جانبها ،

الاغاني ج ١٣ ص ١٥٨ ، العقد القريد ج ٣ ص ١٧٦ »

فلما ان يزيد بن عبد الملك كان يهوى حباة ويحبها حباً جاً . وكانت
ذكرها تعاود قلبه الجريح حتى لفظ نفسه الاخير . والغريب ان سلامة كانت
مفتونة به فتألمت من تقديمه حباة عليها وهذا مانع عيشها . ومع ذلك
فلم تنس يزيداً وبكته بكاء مرأ . قالت سلامة تمثل يوم قضى :

لا تلمنا ان خشعنا أو هممنا بالخشوع
قد لعمري بت ليلي كأخي الداء الوجع
كلا ابصرت ربعا خالياً فاضت دموعي
قد خلا من سيد كان لنا غير مضيع

مات يزيد بن عبد الملك مغرماً بأسأ . وهو من تلك الشبية التي يسحرها
جمال الحياة وتستهوئها بهجة الدنيا فتسير في تيارها غير مبالية بما تأتي به من
النتائج . وقد وصفه المسعودي بقوله : « . . . لا يعرف صواباً فيأتيه ولا خطأ
فيده ، التنبيه والاشراف ص ٣٢٠ » خلفه رجال كان من مبادئهم ان
لا يتقيدوا ضمن القواعد التي وضعها الشرائع المقدسة والتقاليد المعروفة . فجعلوا
يتبعون فلسفتهم الخاصة في الحياة فلا يفكرون في سهام النقد والملامة التي

يسددونها اليهم . وكان من هؤلاء الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني) .
وقد لهج هذا الخليفة بالشراب والنساء والصيد ، وطلب الندماء والمغنين فحملوا
اليه . وعرف لدى شعبه بالاحاد واشتهر بالزندقة فاحتقر المبادي الدينية
الاسلامية ولم يراقب في ذلك احداً . ويقال انه « دعا ذات ليلة بمصحف فلما
فتحه وافق ورقة فيها واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم
ويسقى من ماء صديد . فقال اسجعا اسجعا علقوه ثم اخذ القوس والنبل
فرماه حتى مرقه ثم قال :

اتوعد كل جبار عنيد فيها انا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله مزقني الوليد
(الاغاني ج ٦ ص ١٢١) (امالي السيد المرتضى ج ١ ص ٩٠)

وكان مدعياً للشراب حتى ليروى انه خاطب الناس بشعر يوم الجمعة في
المسجد الجامع فصعد المنبر وقال :

مايزرع الزارع يوماً يحصده وما يقدم من صلاح يحمده
فاستغفروا ربكم وتوبوا فاموت منكم فاعلموا قريب
(الاغاني ج ٦ ص ١٢٥)

ولاريب عندنا ان المؤرخين يبالغون في قولهم انه شرب ليلة سبعين قدحاً .

ولو كان حقاً ما يدعون لقضى سريعاً من تأثير السم المعروف بالكحول .
والحقيقة التي نريد تأييدها هو انه كان سكيراً ولكن لا يمكننا قبول تلك الروايات
الحشوة بالمبالغة ، واليك مثلاً منها : « . . . قام الوليد صلى العصر ثم جلس
يتحدث الى المغرب ، ثم صلى المغرب ودعا بالعشاء فتعشيت معه ، ثم جلس
يتحدث حتى صلى العتمة ثم تحدثنا قليلاً ، ثم قال اسقينني فأبواه باناء مغطى
وجاء جوار قمن بيني وبينه فشرب وانصرفن ومكث قليلاً ثم قال اسقينني
فعلن مثل ذلك ، وما زال والله ذلك دأبه حتى طلع النجر فأحصيت له سبعين
قدحاً . الاغاني ج ٦ ص ١٠٣ . » ويذكر الكثيرون انه لما نعي اليه هشام
بن عبد الملك سلقه في الخلافة قال : « والله لأتلتين هذه النعمة بسكرة قبل
الظهر ثم انشأ يقول :

طاب يومي وَلَكَّ شرب السلافة اذ أتاني نعيٌ مِنِّ الرصافة
وأنا البريد ينعي هشاماً وأنا بخاتم الخلافة
فاصطبجنا من خمر عانةٍ صرفاً وهونا بقيمة عزافة
ثم حلف ان لا يبرح موضعه حتى يغني في هذا الشعر ويشرب عليه
فتغنى له فيه وشرب وسكر ثم دخل فبوع له بالخلافة ، (الاغاني ج ٦ ص ١٠٨)
فتجد ان الوليد بوع بالخلافة ونشوة الخمر تلعب في رأسه .

ولوليد اشعارٌ جَيَّادٌ في الحُرَيَّاتِ . وهي تصفُ تأثيرَ ابنةِ السَّكْرَةِ على
 النفوسِ الطُّرْبَةِ وصفًا دَقِيقًا رَافِعًا . وقد سَرَقَ الشعراءُ المتأخرونَ من معانيها
 وسمَّحُوا صُورَها وادَّعَوْها في اشعارِهِمْ . وكان ابو نُوَاسٍ من اشهرِ الادباءِ
 الذين سَطَّوْا عليها وادَّعَوْها .
 قال الوليد من خمر ياته :

أَصْدَعْ نَجِي الِهْمُومِ بِالطَّرِبِ	وَأَلْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بَابِنَةَ الْعَنْبِ
وَأَسْتَقْبِلُ الْعَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ	لَا تَقِفْ مِنْهُ أَثَارَ مَعْتَقِبِ
مَنْ قَهْوَةٍ زَانِهَا تَقَادُ مِنْهَا	فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْخَلْبِ
أَشْهَى إِلَى الشَّرْبِ يَوْمَ حُلُوتِهَا	مَنْ الْفَتَاةُ الْكَرِيمَةُ النَّسَبِ
فَقَدْ تَجَلَّتْ وَرَقٌ جَوْهَرُهَا	حَتَّى تَبَدَّتْ فِي مَنْظَرِ عَجَبِ
فَهِيَ بَغِيرُ الْمَزَاجِ مِنْ شَرَرِ	وَهِيَ لَدَى الْمَزْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ
كَأَنَّهَا فِي زُجَاجِهَا قَبْسٌ	تَدْكُ كَوْضِيَاءَ فِي عَيْنِ مُرِّ تَقَبِ
فِي فِتْيَةٍ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ أَهْلُ الْمَجْدِ وَالْمُؤَثَرَاتِ وَالْحَسَبِ	
مَا فِي الْوَرَى مِثْلَهُمْ وَلَا بِهِمْ	مِثْلِي وَلَا مِثْلِي مِثْلِي أَبِي

وكان الوليد الثاني عصبياً لا يثبت على قرار فبينما تراه قد وهب قلبه
 لفتاة من الفتيات الجميلات وراح يستغطفها ويتقلب على فراش الألم ان

صدته وخذلته اذا به يساوها ويعشق غيرها ويستमित في رضى حبيدته الجديدة ،
ثم تعاوده ذكرى حبه القديم فيبكي كالأطفال ويتوجع على ما فاتة فهو محب
للحسان مستعد لأن يضحي لأجلهن ما عز وهان . احب الوليد سعدة بنت
سعيد بن خالد فتزوجها . ثم علق باختها سلمى فطلق سعدة وطلب سلمى
الى ابيها فرده خائباً . ولم يحظ بها الا بعد اعتلائه عرش الخلافة . وكان دوماً يتألم
لاقصاله عن سعدة ويتحرق على فراقه لها . قال الاغانى : (كان الوليد متزوجاً
سعدة بنت سعيد بن خالد فرض سعيد وجاءه الوليد عائداً فدخل فلمح سلمى
بنت سعيد اخت زوجته ، وسترها حواضنها واختها فقامت فبرعتن طولاً
فوقعت بقلب الوليد . فلما مات ابوه طلق زوجته وخطب سلمى الى ابيها ،
فلم يزوجه سعيد ورده أقبح رد ، وهويها الوليد ورام السلو عنها فلم يسلو ،
ويقال انه لما طلق سعدة ندم على ذلك وغمه . وكان لها من قلبه محل . ولم
تحصل له سلمى فاهتم لذلك وجزع وراسل سعدة ، وقد كانت زوجت غيره
فلم ينتفع بذلك . وله من رسالة لها :

أسعدة هل اليك لنا سبيلٌ وهل حتى القيامة من تلاق

فاجابته :

أتبكي على ابني وانت تركتها فقد ذهبت ابني فمأنت صانع

..... وخرج الوليد بن يزيد لعله يراها فلقية زيات معه حمار
 عليه زيت فقال له هل لك ان تأخذ فرسي هذا وتعطيني حمارك هذا بما عليه
 وتأخذ ثيابي وتعطيني ثيابك ، ففعل الزيات ذلك . وجاء الوليد وعليه الثياب
 وبين يديه الحمار يسوقه متنكراً حتى دخل قصر سعيد فنادى من يشتري
 الزيت فاطلع بعض الجوارى فرأينه فدخلن الى سلمى وقلن ان بالباب زياتاً
 اشبه الناس بالوليد فاخرجي فانظري اليه فخرجت ورأته وراها فرجعت
 القهقري وقالت هو والله القاسق الوليد ، فقلن له لا حاجة بنا الى زيتك
 فانصرف وقال :

انني ابصرت شيخاً	حسن الوجه مليح
ولباسي ثوب شيخ	من عباء ومسوح
وابيع الزيت بيعاً	خاسراً غير ربيع

وقال ايضاً :

فما مسكت يعل بزنجيل	ولا غسلت باللبان اللقاح
بأشمتي من مجاجة ريق	ولا مافي الزقاق من القراح
ولا والله لا أنسى حياتي	وثاق الباب دوني واطراحي

« الاغاني ج ٦ ص ١١٠ - ١١٣ »

أفرط الوليد الثاني في لهوه وانهمك انهماكاً زائداً في تهيمته اسباب الأنس
والجور ، فأحيا الليالي الطوال وهو غارق بين السكاس والطاس لا هم له الا
التمتع بملاذ الحياة الدنيا .

وكان يدعو الى مجالس سمره رفاقه وخاصته ، ويسرف اسرافاً عظيماً
في سبيل ارضائهم واكتساب مودتهم فجلب الوصائف والوصيفات ليقفوا
بين ايديهم وكانوا من اجل الحور والولدان ، روى حماد الراوية بصف مجلسا
من مجالس انس الوليد قال :

(دعاني الوليد يوماً من الأيام في السحر والقمر طالع وعنده جماعة من
ندمائيه وقد اصطحب فقال انشدني في النسيب فأنشدته اشعاراً كثيرة ، فلم
يهش لشيء منها حتى أنشدته قول عدي بن زيد :

أصبح القوم قهوةً في الأباريق تحتذى
من كيت مدامة حبذا تلك حبذا

فحارب ثم رفع رأسه الى خادمه وكان قائماً كأنه الشمس فأوماً اليه فكشف
سترأ خلف ظهره فطلع اربعون وصيفاً ووصيفة كأنهم اللؤلؤ المنثور في ايديهم
الأباريق والمناديل فقال اسقوهم وانا في خلال ذلك أنشده الشعر ، فما زال
يشرب ويستقي الى طلوع الفجر ، ثم لم يخرج عن حضرته حتى حملنا القراشون

في البسط فألقونا في دار الضيافة ، فما أفتنا حتى طلعت الشمس . الاغاني ج ٩
ص ١٠٢٩ .

وجعل ائداد الوليد الثاني وخصومه السياسيون يذالون منه ويذمونه ويذكرون فضائله . وتماديه في الفجور ، وينشرون اقواله التي تم عن الحاده وزندقته حتى ثقل أمره . على رعيته واصبحت دمشق تهوى اعداءه . وكان من اكبر اعدائه آل الوليد بن عبد الملك ، وولد هشام بن عبد الملك لأنه اساء اليهم وضربهم وسجنهم وشهرهم . وذلك لمنافستهم له وموامرتهم التي كانوا يدبرونها ضده . ونعتقد ان الوليد ارتكب غلطاً فادحاً في افساده اليمانية عليه وهم عظم جند اهل السلم فقال في ذمهم ومدح بني نزار القيسيين :

ونسومهم المذلة والنكالا	ونحن المالكون الناس قسراً
وما نألوهم الا خبالا	ونوردهم حياض الخسف ذلاً
وقومنا بهم من كان مالا	شددنا ملكنا ببني نزار

« الاخبار الطوال ص ٣٤٨ »

فقام على رأس اليمانية وغيرهم من المعارضين يزيد بن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث) واظهر النسك والتواضع وانزه في الحياة وقال بوجوب الاصلاح في دواوين الحكومة ، ووعد بالعدل ونادى بالسلام والنهوض باقتصاديات البلاد

فحاصروا الوليد الثاني في قصره وقتلوه ثم احتزوا رأسه ونصبوه على رمح وطافوا به في دمشق . وكان ذلك سنة ١٢٥ هـ و (٧٤٢ م) . ولا يغرب عن بالنا ان الوليد كان قد زاد اهل الشام في اعطياتهم واجرى على فقرائهم الرزق واخرج لعليا لثمهم الكسوة ، ومع ذلك فقد ناصروا الاحزاب المعارضة له ليتخلصوا من النفوضى التي سادت في البلاد . واعلن يزيد الثالث منهج سياسته حينما اعتلى عرش الخلافة واخذ يبرر الوسائل التي اتخذها في قتله للوليد بن يزيد بن عبد الملك . قال من خطبة العرش : « ايها الناس ، والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك ، وما بي اطراء نفسي واني لظلومٌ لها . ولتد خسرت ان لم يرحمني ربي ، ولسكني خرجت غضباً لله ودينه ، وداعياً الى الله وسنة نبيه ، لما هدمت معالم الهدى ، واطفي نور التقوى ، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة . والراكب لكل بدعة ، مع انه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ، ولا يصدق بالثواب والعقاب ، وانه لابن عمي في النسب ، وكفئي في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في امره ، وسألته ان لا يكانني الى نفسي ، ودعوت الى ذلك من اجابني من اهل ولايتي ، حتى اراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ، بحول الله وقوته ، لاجولي وقوتي ايها الناس ان لكم عليّ ان لا اضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة

ولا اكري نهراً ولا اكنز مالا ، ولا اعطيه زوجاً ولا ولداً ، ولا اتقل مالا
 من بلد الى بلد حتى اسد فقر ذلك البلد وخصاصة اهله بما يغنيهم ، فان فضل
 فضل نقلته الى البلد الذي يليه ممن هو احوج اليه منه . واني لا اجركم -
 الحبس - في نفوركم فافتنكم وافتن اها اليكم ، ولا اغلق بابي دونكم فيأكل قويمكم
 ضعيفكم ، ولا احمل على اهل جزيتكم ما اجلهم به عن بلادهم واقطع نسلهم .
 ولكم عندي اعطياتكم في كل سنة ، وارزاقكم في كل شهر ، حتى تستدر
 المعيشة بين المسلمين فيكون اقصاهم كادناهم ، فاذا انا وفيت لكم فعليكم السمع
 والطاعة ، وحسن الموازنة والمساكنة : وان انا لم اوف لكم فلكم ان تخلعوني ،
 الا ان تستتيوني فان انا تبت قبلتم مني ، وان عرفتم احداً يقوم مقامي ممن
 يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما اعطيتم فأردتم ان تبايعوه فأنا اول
 من يايعه ودخل في طاعته . ايها الناس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٠

لم يكذب زيد الثالث او الناقص - لقب بالناقص لانه نقص في اعطيات
 الناس بعد ان زادها الوايد الثاني - يستلم زمام الاحكام حتى عاجلته المنية
 فقضى واحوال الدولة مرتبكة والقطن مشتعلة في حصص وفلسطين . والظاهر
 ان اهل حصص قاموا يثأرون للوليد بن يزيد ، واهل فلسطين اخنوا يشجعون

آل سليمان بن عبد الملك على القيام بطلب الخلافة . وكانت الضعيفة تأكل
 قلوب المضربة بني نزار وهم احزاب الوليد الثاني كما قدمنا . فاتحدوا وصمموا
 على خلع ابراهيم بن الوليد اخي الخليفة يزيد الثالث . وكان قد بايعه قبل
 وفاته . والحقيقة ان الدمشقيين لم يعترفوا به فكانت فئة منهم تسلم عليه بالخلافة
 وفئة اخرى تسلم عليه بالامارة . اما الحزب المضري فلم يبايعه بل بايع مروان
 بن محمد الملقب بالبحار لصبره وجلده في الحروب . فخلعه وسار نحو دمشق
 وقتل ابراهيم . وهكذا فقد لعبت العصبية دوراً مهماً في تاريخ بني امية وكان
 من نتائج سقوطهم تحت سيوف العباسيين .

وامام مروان فاراد ان يتخلص من القوضى فلم يتمكن لان اعداءه القرس
 والشيعية كان قد انبسط نفوذهم واتسع سلطانهم فلم يقدر على الثبات امامهم .
 وبقتله اقل نجم بني امية في الشام كما اسهبنا .



— الخلفاء الأمويون —

الاسم	تاريخ توليهم الخلافة (الهجري)	(المسيحي)
معاوية بن أبي سفيان (الاول)	٤١	٦٦١
يزيد بن معاوية (الاول)	٦١	٦٨٠
معاوية بن يزيد (الثاني)	٦٤	٦٨٣
مروان بن الحكم	٦٥	٦٨٤
عبد الملك بن مروان	٦٦	٦٨٥
الوليد بن عبد الملك (الاول)	٨٦ - ٨٧	٧٠٥
سليمان بن عبد الملك	٩٧	٧١٥
عمر بن عبد العزيز	٩٩	٧١٧
يزيد بن عبد الملك (الثاني)	١٠٢	٧٢٠
هشام بن عبد الملك	١٠٦	٧٢٤
الوليد بن يزيد (الثاني)	١٢٦	٧٤٣
يزيد بن الوليد (الثالث)	١٢٧	٧٤٤
ابراهيم بن الوليد	١٢٧	٧٤٤
مروان بن محمد	١٢٧	٧٤٤
انقضاء الدولة الاموية في الشام	١٣٣	٧٥٠

جدول الخلفاء الامويين

القرع اللوواني	امية	القرع السفياي
— ابو العاص — الحكم		— حرب — — ابوسفبان — — معاوية الاول (١) —
— مروان الاول (٤) —		
— عبد الملك (٥) —	— عبدالعزیز —	
— محمد —		
— مروان — الثاني (١٤)	— عمر الثاني (٨) —	— يزيد الاول (٢) —
		— معاوية الثاني (٣) —
		خالد

(٦) — الوليد الاول — سليمان (٧) — يزيد الثاني (٩) — هشام (١٠)

الوليد الثاني (١١)

يزيد الثالث (١٢)

ابراهيم (١٣)

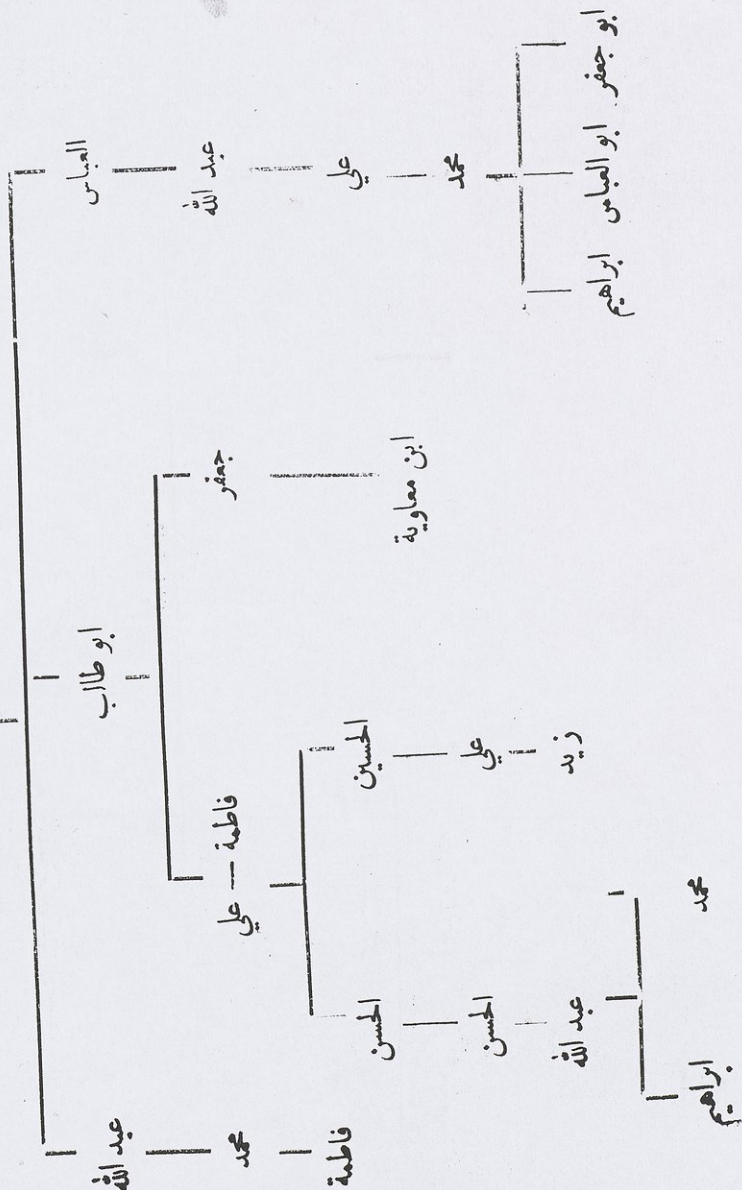
The Caliphate, Rise, Decline
and Fall By Sr Wm Muir
Edinburgh 1915 P 318

(جدول بين القرابة بين الهاشميين والامويين)

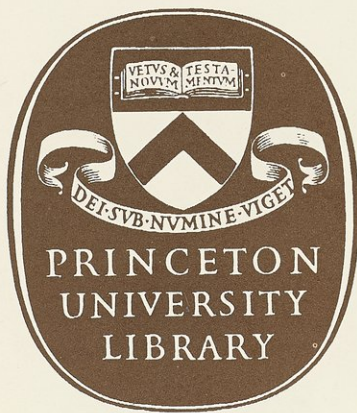


جدول يظهر القرابة بين العباسيين والعلويين

عبد الطالب







Princeton University Library



32101 048852410